أَسْئِلَةٌ بَيَانِيَّةٌ

فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

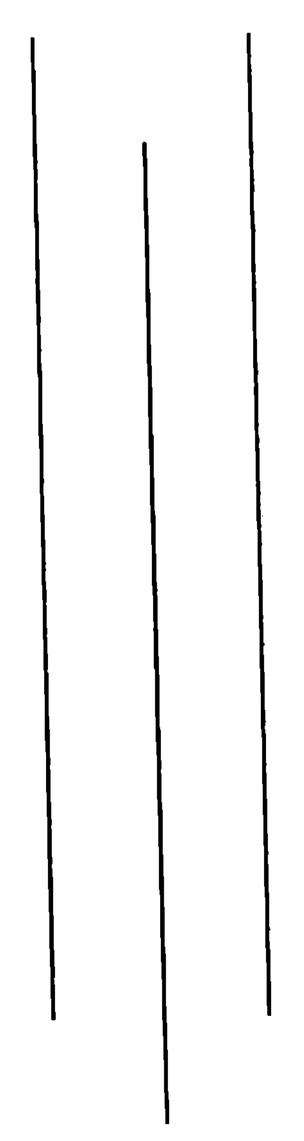
تأليف

الدكتور فاضل صالح السامرائي

الجُزْءُ الأَوَّل



دار ابن كثير



أسئلة بيانية

في القرآن الكريم

الجزء الأول

● الموضوع: علوم القرآن
العنوان: أسئلة بيانية في القرآن الكريم 2/1
تأليف: الدكتور فاضل السامرائي

الطبعة الثانية

1434 هـ - 2013 م

ISBN 978-614-415-040-5



● الطباعة: مطبعة IPEX - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

● الورق: أبيض / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه

● القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 554 / الوزن: 1380 غ



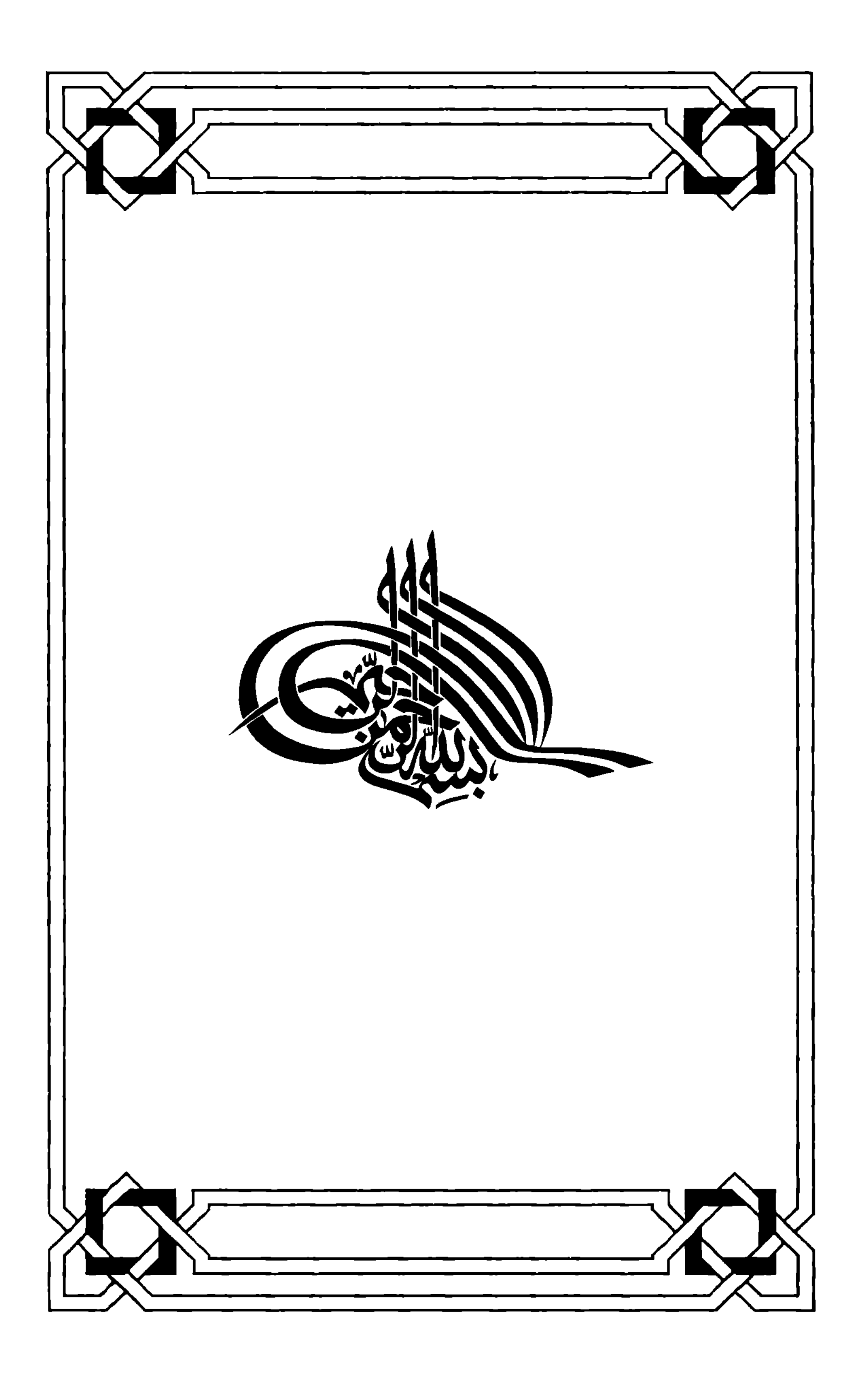
دمشق - سوريا - ص.ب : 311
حلبوني . جادة ابن سينا . بناء الجابي - صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2258541
بيروت - لبنان - ص.ب : 113/6318
برج أبي حيدر . خلف دبوس الأصلي . بناء الحديقة - تلفاكس : 817857 01 - جوال : 204459 03
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



تأليف
الدكتور فاضل صالح السامرائي

الجزء الأول




بسم الله الرحمن الرحيم

المُقدِّمة

الحمد لله الذي علَّم بالقلم ، علَّم الإنسان ما لم يعلم ، والصَّلاة والسَّلام علىٰ السِّراج المنير ، سيدنا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين ، مصابيح الهُدىٰ وأئمَّة التُّقىٰ ، ومَن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين ، وبعد :

فهٰذه أسئلةٌ ورَدَ إليَّ كثيرٌ منها علىٰ طريق التلفاز ، بينما كنتُ أتحدَّث في برنامج (لمساتٌ بيانيةٌ في نصوص من التَّنزيل) في قناة الشَّارقة الفضائية في دولة الإمارات العربية المتحدة ، وورد القسم الآخر عن طريق المراسلة .

وقد أجبتُ عن قسم غير قليل منها عبر البرنامج ، وبقي قسم آخر لم يتسنَّ لي الإجابةُ عنه .

وفي هٰذا الكتاب ، حاولتُ الإجابةَ عن مئتي سؤالٍ مما سبق أن أجبتُ عنه ، أو لم يتسنَّ لي ذٰلك .

وقد رتَّبتُ موضوعات الأسئلة علىٰ حسب تسلسلها في المصحف الشَّريف في الغالب ، ولم يختلف هٰذا المنهج إلا نادراً ، وذٰلك فيما أراه أنه هو الأنسب ، كأن يكون بين الموضوعين ارتباطٌ ما ، وإن كانا

متباعدين في المصحف ، وذٰلك كالسُّؤال في آية النور من سورة النور ، عن سبب إخبار ربنا عن نفسه بأنه نور السمٰوات والأرض ، ولم يخبر عن نفسه أنه ضياء ، مع أن الضياء أقوىٰ من النور ، والسُّؤال في آية من سورة الأنبياء عن سبب الإخبار عن التَّوراة أنها ضياء وفي مواضع أخرىٰ أنها نور ، فرأيت من المناسب أن أضعها بجانب بعضٍ .

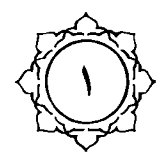
أما ما لم تكن بينهما علاقة من نوع ما ، فرتبته بحسب ما ورد في المصحف ، وهو الأعم الأغلب .

وأرجو من القارئ العزيز أن يعذرني إذا كنت عنده غيرَ مصيبٍ ، وألا يبخل عليَّ بدعوة يسألُ ٱلله فيها أن يعطيني أجر أحدِ المجتهدين ، وأن يبصِّرني بالصَّوابِ .

أسألُ ٱلله سبحانه أن يُلهمنا الرُّشد ويَمُنَّ علينا بالسَّداد في القول ، والعمل إنه أكرم مسؤولٍ ، وأعظم مسؤولٍ .

فاضل السَّامرَّائي

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ البقـرةِ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ٢] .

وقال في سورةِ لقمان : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان : ٢ ـ ٣] .

سؤالٌ

لماذا زاد الرَّحمة علىٰ الهدىٰ في آية لقمانَ ؟

الجواب

إن آيةَ البقرةِ في المتقين ، والمتَّقي هو الذي يحفظ نفسه .

وأما آية لقمان ففي المحسنين ، والمحسن هو الذي يُحسِن إلىٰ نفسه ، وإلىٰ غيره ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص : ٧٧] .

وقال : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء : ٣٦] .

وقال : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء : ٧] .

جاء في (المفردات) للرَّاغب : « الإحسان علىٰ وجهين :

أحدهما : الإنعام علىٰ الغير .

يقال : أحْسن إلىٰ فلان .

والثَّاني : إحسانٌ في فعله ، وذٰلك إذا علم علماً حسناً ، أو عمل عملاً حسناً »[1] .

فلمَّا ذكر في آية لقمانَ أنهم محسنون ، زاد لهم الرَّحمة علىٰ الهدىٰ ، وذٰلك أنهم زادوا في الوصف علىٰ المتقين بأن أحسنوا إلىٰ غيرهم ، وإلىٰ أنفسهم ، فزاد ٱلله لهم في الجزاء .

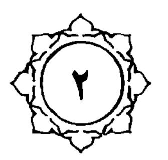
ثم إن الإحسان إلىٰ الآخرين إنَّما هو من الرحمة ، فزاد ٱلله لهم الرَّحمة لما رحموا الآخرين .

ولم تقتصر هٰذه الزِّيادة لهم في الدنيا ، بل زاد ٱلله لهم الجزاء في الآخرة أيضاً ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ ﴾ [يونس : ٢٦] .

فكما زادوا في الدنيا من الخير ، زاد ٱلله لهم فيه في الدنيا والآخرة ، والجزاء من جنسِ العملِ .

* * *

(١) المفردات (حسن) .



قال في سورةِ البقرةِ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣ ـ ٢٤] .

وقال في سورةِ يونسَ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس : ٣٨ ـ ٣٩] .

وقال في سورةِ هودٍ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود : ١٣ ـ ١٤] .

سؤالٌ

١ ـ لماذا قال في البقرةِ : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ بذكر ﴿ مِّن ﴾

مع المِثْل ولم يذكرها في يونسَ ، ولا في هود ؟

٢ ـ لماذا قال في البقرة : ﴿ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، وقال في يونسَ وهودٍ : ﴿ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ؟

٣ ـ لماذا شدَّد التَّحذير في البقرةِ ، فقال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ ولم يقل مثل ذٰلك في يونس ، ولا في هود ؟

٤ ـ ولماذا قطع بعدمِ الفعلِ بعد الشَّرط في البقرةِ ، فقال : ﴿ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ ؟

الجوابُ

١ ـ إن معنىٰ : (ائتني بشيء من مثله) يختلف عن قولك : (ائتني بشيء مثله) ، فإن قولك : (ائتني بشيء من مثله) يعني افتراض أن له مثْلاً ، فتقول : ائتني بشيء من هـٰذا المثلِ .

يقال : إن لهـٰذا الشَّيء أمثالاً .

فتقول : ائتني بشيء من مثله ؛ أي من هـٰذه الأمثالِ .

أما قولك : (ائتني بشيء مثله) فإنك لا تفترض أن له مثلاً ، فقد يكون أن له مثلاً ، أو لا يكون ، فاستحدِثْ أنت مثله ، كأن تقول لصاحبك : ائتني بشعرٍ مثل هـٰذا ؛ أي بشعرٍ مماثلٍ له ، سواء كان مستحدثاً أم موجوداً .

وبعد هٰذه المقدمة في التفريق بين معنيي (من مثله) و(مثله) نقول :

٢ ـ قوله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ أعمُّ من قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ في يونس وهود ؛ لأن مظنة الافتراء واحد من أمورِ الرّيبةِ . فالريبة قد تكون من مظنة الافتراء ، أو غيره ، فإنهم قالوا : ساحر ، أو مجنون ، أو يعلّمه بشر ، وما إلىٰ ذٰلك .

٣ ـ قوله في البقرةِ : ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ يحتمل أن يكون من مثل القرآن ، أو من مثلِ الرسولِ ، أي من شخص أميٍّ لم يتعلم .

وهو أعم مما في الآيتين في يونس وهود ، فإنهما نصٌّ في أن المطلوب أن يأتوا بمثل القرآن .

فناسب العمومُ العمومَ ، وإن كان المعنىٰ الأول هو الأظهر .

٤ ـ حذف مفعولي ﴿ تَفْعَلُوا ﴾ و﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ مجانسةً للإطلاقِ ، وإن كان المقصود معلوماً .

٥ ـ قال في يونس وهود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ فقال : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ أو : ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ ؛ أي افتروا أنتم كما افترىٰ .

٦ ـ لا يحسن بعد قوله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ أن يقال : (فائتوا بسورة من مثله مفتراة) من جهتين :

الأولىٰ : أنهم لم يقولوا : (افتراه) كما في آيتي يونس وهود .

والجهة الأخرىٰ : أنه لا يحسن بعد قوله : ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ أن يقول : (مفتراة) لأنه افترض أن له مثلاً ، فهو إذن ليس مفترًىٰ .

٧ ـ وعلىٰ هـٰذا لا يحسن أن يقال : (أم يقولون افتراه فائتوا بسورة من مثله) ؛ لأنه افترض أن له مثلاً ، فهو إذن ليس بمفترًىٰ .

٨ ـ لا يحسن بعد قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ في يونس وهود أن يقال : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ .

فإنهم قالوا : (افتراه) وإذن ليس له مثلٌ . وقوله : (من مثله) يقتضي أن له مثلاً ، وإنما ينبغي أن يقال : (فائتوا بسورة مثله) ، أي : افتروا أنتم أيضاً .

٩ ـ لم يقل في البقرةِ : (وادعوا من استطعتم من دون ٱلله) لأنه افترض أن له مثلاً ، ومعنىٰ ذٰلك أن هناك مَن استطاع أن يفعل ، إذن فليأتوا بشيء مما فعله المستطيع . فإن الغرض من دعوة من استطاعوا أن يفعلوا مثله ، وهو قد افترض أن له مثلاً ، فدعاهم إلىٰ أن يأتوا بشيءٍ مما فعله هـٰؤلاء .

١٠ ـ قال : ﴿ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي : ادعوا مَن يشهد لكم أن هـٰذا الكلام مثل هـٰذا .

وعلىٰ هـٰذا فالآية تقتضي دعاء مَن استطاعوا ، ودعاء الشُّهداء ، فالأوَّلون دعاهم بقوله : ﴿ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ ؛ لأنه افترض أن هناك مَن استطاع أن يأتي بمثله .

والشُّهداء دعاهم للشهادةِ .

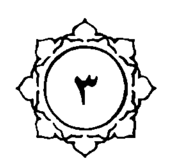
وهٰذا أوسع وأعمُّ فناسب العمومُ العمومَ .

١١ ـ ذكر بعد آيةِ البقرةِ أن يتقوا النَّار التي وقودها الناس والحجارة ؛ لأن الذي لا يؤمن بعد إقامةِ الحجةِ عليه ، ولم يستعمل عقله ، إنما هو بمنزلةِ الحجارةِ فقرن بينهما .

١٢ ـ لما قال في أوَّل سورةِ البقرةِ : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾ ناسب أن يقول : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ .

كما ناسب أن يقطع بعدمِ الاستطاعةِ علىٰ الفعل ، بقوله : ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ ؛ لأنه ذكر ابتداءً أنه لا ريب فيه .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾[البقرة : ٤٩] .

وقال في سورةِ الأعرافِ [١٤١] : ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ البقرةِ : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ وقال في الأعراف : ﴿ يُقَتِّلُونَ ﴾ ؟

الجوابُ

إنه قال في الأعراف في قصة موسىٰ ، قبل هٰذه الآية : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [١٢٧] ، فناسب قولُ فرعونَ فعلَه ، فقد قال : ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ فقال : ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ وهو المناسب ، فقد فعل ما قاله وهدّد به .

هـٰذا من جهةٍ ، ومن جهةٍ أخرىٰ أن القتل أعم من الذَّبح ، وأن القصة في الأعراف مبنيةٌ علىٰ العمومِ والتفصيلِ في موقف فرعونَ من بني إسرائيلَ ، فإنه لم يَرِد في سورة البقرة ذكرٌ لفرعون مع بني إسرائيل ، ولا فتنته لهم إلا هـٰذه الآية .

في حين أن القصة في الأعرافِ فَصَّلت في ذكرِ الحوادثِ قبل موسىٰ وبعده ، وذكرت فتنة فرعونَ لبني إسرائيلَ ، وذكرت مجيء موسىٰ إلىٰ فرعون وتبليغه بالدعوة ، وذكرت موقف فرعون من السَّحرةِ وتهديد فرعون لبني إسرائيل بالقتل والإذلال والإيذاء ؛ حتىٰ قالوا لموسىٰ : ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [١٢٩] .

وذكر الآيات التي حلَّت بفرعون وقومه : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [١٣٠] .

وتستمر القصَّة في ذكرِ التفاصيلِ :

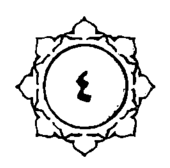
فناسب العمومُ في الأعراف العمومَ في اللفظِ ، وهو التقتيلُ .

ثم إنه لم يرد في البقرة ذكرٌ لهارون في هـٰذه القصةِ ، وأما في الأعراف ، فقد ورد ذكره في أكثرِ من موقفٍ ، منها قول السَّحرةِ : ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [١٢١ ـ ١٢٢] .

وورد استخلافه في قومه ، فقال : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ ﴾ [١٤٢] .

فناسب ذٰلك أيضاً ذكرُ التقتيلِ ، فإن ذكر موسىٰ وهارون أعمُّ من ذكر موسىٰ وحده ، فناسب العمومُ العمومَ .

* * *



لماذا قال في البقرة : ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [البقرة : ٥١] .

وقال في الأعراف : ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف : ١٤٢] ؟

الجوابُ

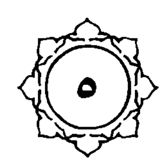
إن السِّياق في الأعراف في تفصيل ما حصل في هٰذه المواعدةِ ، فقد قال : ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [١٤٢ ـ ١٤٥] .

في حين أن السِّياق في البقرةِ كان مجملاً ، فإنه لم يتعدَّ آيةً واحدةً أو جزءاً من آيةٍ ، وهي قوله : ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [٥١] .

وبعدها قوله : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ . . . ﴾ بل إن ما يخصُّ المواعدةَ هو قوله : ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ وبعده يتعلق باتخاذِ العجلِ كما هو ظاهر .

فناسب التفصيلُ التفصيلَ والإجمالُ الإجمالَ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة : ٨٦] .

وقال فيها أيضاً : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾ [البقرة : ١٦١ ـ ١٦٢] .

وقال في آلِ عمرانَ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٧ ـ ٨٨] .

سؤالٌ

لماذا قال في الآيةِ السادسةِ والثمانين : ﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ ، وقال في الآيتين الأخريين : ﴿ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾ ؟

الجوابُ

إن الآيةَ الأولىٰ إنما هي في سياقِ القتلِ والحربِ والأسرِ ، والأُسارىٰ إنما هم من أوزارِ الحربِ ، ومَن في هٰذه الحال إنما يبتغي

النصر ، فنفىٰ ذٰلك عنهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [٨٤ ـ ٨٦] فناسب ذٰلك ذكر النصر .

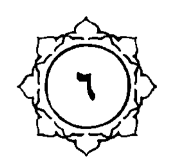
وأما الآيتان الأخريان ، فقد ذكرتا أن عليهم لعنةَ ٱلله والملائكةِ والناسِ أجمعين ، وذكر بعد ذٰلك أنهم خالدون فيها ، لا يخفَّفُ عنهم العذابُ ولا هم ينظرون .

واللَّعنة هي الطَّرد والإبعادُ من رحمةِ ٱلله ، والمطرودُ لا يُنظر إليه ؛ لأنه يُبْعد .

والنظرُ قد يكون معناه التأخيرَ والإمهالَ ، وقد يكون معناه نظر الرحمةِ . وكلاهما منفي .

أما الأول فلأنه مطرودٌ فكيف يؤخَّرُ ؟ وكذٰلك بالنسبةِ إلىٰ المعنىٰ الآخر ، فناسب كل تعبيرٍ مكانه .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة : ١١٤] .

وقال في سورةِ المائدةِ : ﴿ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣] .

وقال في سورةِ الحجِّ : ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج : ٩] .

سؤالٌ

لماذا قدَّم الخزي علىٰ الدُّنيا في آيةِ المائدةِ ، فقال : ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ﴾ وأخّره عنها في آيتي البقرة والحج ، فقال : ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ ؟ .

الجوابُ

إن الخزي المذكور في آيةِ المائدةِ أظهر للعيان مما في آيتي البقرة والحج ، وهو ثابت لا يزول ، بخلاف ما في آيتي الحجِّ والبقرةِ ، فإنه غير ظاهرٍ ذٰلك الظهورِ ولا ثابت ذٰلك الثباتِ ، فقد قال تعالىٰ في آيةِ

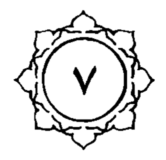
المائدةِ : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ، في حينِ قال في البقرةِ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

فقد ذكر عن هٰؤلاءِ أنهم لا يدخلونها إلا خائفين ؛ أي لا يدخلون المساجدَ إلا خائفين ، فالخوف مقارنٌ للدخولِ ، فإذا انتفىٰ الدخول انتفىٰ الخوف ، ثم إن الخوف أمرٌ قلبيٌّ غير ظاهرٍ للعيان ، فالخزي المذكور في آيةِ المائدةِ أظهرُ وأشدُّ .

وقال في الحجِّ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [٨ ـ ٩] ولم يذكر الخزيَ الذي سيلحقهم في الدُّنيا .

فالتَّقتيل ، والتَّصليب ، وقطع الأيدي والأرجل من خلاف ، والنَّفي من الأرض ، أظهر خزياً وأشد عقوبةً في الدنيا مما ذكره في الآيتين الأخريين . فناسب تقديمه في آيةِ المائدةِ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

سؤالٌ

لماذا قال : ﴿ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ بإفرادِ الملةِ ولم يقلْ : حتىٰ تتبع ملتيهما ؟

ولماذا جاء بـ : (لا) في قوله : ﴿ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ ﴾ ولم يقلْ : (ولَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ) ؟

الجوابُ

١ ـ الجواب عن السُّؤالِ الأول أنه لو قال : (حتىٰ تتبع ملتيهما) لكان المعنىٰ أن اليهود لا يرضون حتىٰ تتبع الملتين ، وأن النَّصارىٰ لا يرضون حتىٰ تتبع الملتين ، وهـٰذا غير مرادٍ ولا يصحُّ .

٢ ـ أما الجواب عن السُّؤال الثاني ، فإنه لو قال ذٰلك من دون (لا) أي : (ولن ترضىٰ عنك اليهود والنصارىٰ حتىٰ تتبع ملتيهما) كان المعنىٰ أنه لن يرضىٰ عنك الجميع ؛ حتىٰ تتبع الملَّتين .

ولو قال : (ولن ترضىٰ عنك اليهود والنصارىٰ حتىٰ تتبع ملتهم) احتمل ذٰلك معنيين :

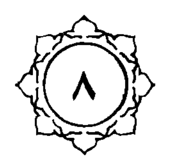
الأول : أن الجميع لا يرضون حتىٰ تتبع ملَّتهم .

بمعنىٰ أنك إذا اتبعت ملَّة اليهود ، رضيت عنك اليهود والنَّصارىٰ ، وإذا اتبعت ملة النَّصارىٰ ، رضيت عنك اليهود والنَّصارىٰ ، وهٰذا المعنىٰ لا يصحُّ وهو غير مراد .

والآخر : هو احتمالُ ما نصَّت عليه الآية أي : لن ترضىٰ عنك اليهودُ حتىٰ تتبع ملَّتهم ، ولن ترضىٰ عنك النَّصارىٰ حتىٰ تتَّبع ملَّتهم .

وما جاء في التعبيرِ القرآني نصَّ علىٰ المعنىٰ المراد من دون احتمالٍ آخرَ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

وقال في سورةِ الرعدِ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ [الرعد : ٣٧] .

سؤالٌ

١ ـ لقد قالَ تعالىٰ في آيةِ البقرةِ : ﴿ بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ ﴾ ، وقال في آيةِ الرَّعدِ : ﴿ بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ .

٢ ـ قال في آيةِ البقرةِ : ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

وقال في آيةِ الرَّعدِ : ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ .

فما سببُ هـٰذا الاختلافِ ؟

الجوابُ

١ ـ نقول أولاً : إن الفرقَ بين (الَّذي) و(مَا) مع أن كليهما اسمٌ

موصولٌ ، أن (الَّذي) اسمٌ موصولٌ مختصٌّ فهو مختصٌّ بالمفردِ المذكَّرِ .

وأن (مَا) اسمٌ موصولٌ مشتركٌ يشترك فيه المذكرُ والمؤنث المفرد والمثنىٰ والجمع .

وأنه حدد الأهواء في البقرةِ وعيَّنها بقوله : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ .

ولم يحددها في الرعد ، بل أطلقها ، غير أنه قال قبل هـٰذه الآية : ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ ولم يذكر هـٰذا البعض .

فجاء مع ذكرِ الأهواءِ المخصصةِ بالاسمِ الموصولِ المختصِّ وهو (الذي) .

وجاء مع ذكرِ الأهواءِ العامةِ بالاسم الموصول المشترك وهو (ما) .

ثم إن العلم المذكور في كل من الآيتين مرتبط بالسياق الذي ورد فيه ، فالمقصود بالعلم في قوله : ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ في آيةِ البقرةِ العلم بدين الإسلام ، وهو هدىٰ ٱلله وهو ما يقابل ملةَ اليهودِ والنَّصارىٰ وهو معلومٌ .

وأما العلم المذكور في آيةِ الرَّعدِ ، فلم يعيَّن ولم يحدَّد وهو ما يقابل ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ فلم يذكر الأحزاب ، ولم يذكر البعض الذي تنكره .

فجاء في العلمِ المحدَّد المعلوم بالاسم الموصول المختص وهو

(الذي) ، وجاء في غير المعين بالاسم الموصول المشترك ، وهو (ما) فناسب كل تعبيرٍ موضعَه .

٢ ـ وأما من ناحيةِ الفاصلةِ في كل من الآيتين ، فإنه قال في البقرة : ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ .

وقال في الرَّعدِ : ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ ، والواقي أعمُّ من النَّصير ، فالواقي هو الحافظ ، و(وقىٰ) معناه : (حفظ) .

والواقي يكون عاقلاً أو غيره ، فقد يكون من الجماداتِ أو غيرها ، فالسقف واقٍ ، والملابس واقيةٌ ، قال تعالىٰ : ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل : ٨١] .

وأما النصير فلا يكون إلا عاقلاً قادراً ، فجعل العامَّ وهو (الواقي) مع العام وهو عموم الأهواء ، والاسم الموصول المشترك (ما) ، وجعل الخاصَّ مع الأهواء المحددة ، والاسم الموصول المختص وهو (الذي) .

٣ ـ إن النصيرَ ينصرُ صاحبَه علىٰ الخصمِ والعدو ويمكِّنه منه ، وأما الواقي فإنه يحفظه منه وقد لا يتمكَّن من نصرهِ .

فوجودُ النصير أتم في النعمةِ من وجودِ الواقي ؛ لأنه ينصره ، وإذا نصره فقد وقاه ، وإذا عدم النصير فإنه لا يزال مطلوباً لخصمه ، أو مهضوماً حقه ، حتىٰ مع وجود ما يحفظه أو مَن يحفظه ، فإن الحافظ قد يخفي مَن يحفظه في مكان لا يعلمه خصمه أو لا يصل إليه .

فجعل نفي النَّصيرِ ـ وهو النعمة الأتم ـ مع الوزرِ الأعظمِ ، وهو

ترك ملة الإسلامِ إلىٰ ملة اليهودِ أو النَّصارىٰ ، وجعل نفي الواقي الذي هو دون ذٰلك ، مع ما هو أقل ، وهو إنكار بعضِ الأحزابِ بعضَ ما أنزل إليه .

وقد تقول : لقد قلتَ في النقطة السَّابقة إن الواقي أعم من النصير ، وإن مدلولَ الكلامِ ههنا ، أن النصير أعم ؛ لأنه ينصر صاحبه ، وإذا نصره فقد وقاه ، فهو واقٍ ونصيرٌ ؟

والحق أنه لا تناقض بين القولين ، فإن النصير لابد أن يكون عاقلاً قادراً ، والمنصور عليه لابد أن يكون عاقلاً قادراً ، فهو مختصٌّ بذوي العلمِ والقدرةِ ؛ ناصراً ومنصوراً ومنصوراً عليه ، فلا تقول : هو نصيره من العقرب ، أو من الحر أو من البرد ، ونحو ذٰلك .

وأما الواقي فهو عامٌّ فقد يكون عاقلاً أو غيره ، وكذٰلك ما تقيه منه ، فقد يكون عاقلاً أو غيره .

وما تقيه قد يكون عاقلاً أو غيره ، فإنك قد تقي بضاعةً من التَّلفِ ، وملابسَ من الوسخِ ، وماءً من القذرِ ونحو ذٰلك ، فلا الواقي ، ولا ما تقيه ، ولا ما تقيه منه ، يُشترط أن يكون عاقلاً بخلاف النَّصير ، فإن النصرة مختصةٌ بالعقلاءِ ، وليست كذٰلك الوقاية ، فاتضح ما قلناه .

٤ ـ ثم إن سياق كل آيةٍ يقتضي فاصلتها التي وردت فيها من جهة أخرىٰ ، فقد قال في آية البقرة : ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ فإذا اتبع ملتهم كان منهم ، وأهل الملةِ ينصرون أتباعهم علىٰ غيرهم من أصحابِ المللِ الأخرىٰ ، فنفىٰ النصير عنه .

وأما آيةُ الرَّعدِ ، فلم يذكر فيها ذٰلك ، وإنما قال : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾ فإذا اتبع أهواءهم في ذٰلك البعض ، فإنه قد لا يقتضي النصرة ومحاربة أعدائه ؛ من أجل ذٰلك البعضِ الذي قد يكون هيناً ، ولٰكن ربما يحفظونه إذا وقع في شدةٍ أو أَمْرٍ ، مما هو دون الدخول في مجابهةِ عدوه ، فنفىٰ الواقي ، فناسب كل تعبيرٍ موضعَه كما هو ظاهر .

٥ ـ هٰذا ومن الطريفِ أن نذكر أن كلمة (نصير) وردت في البقرةِ مرتين : مرة في هٰذه الآيةِ ومرة في الآيةِ السابعةِ بعد المئة ، ولم ترد في سورة الرعد ، وأن كلمة (واقٍ) وردت في سورةِ الرَّعدِ مرتين ، مرة في هٰذه الآية ، ومرة في الآية الرَّابعة والثلاثين ، ولم ترد في البقرة ، فناسب ذٰلك من جهةٍ أخرىٰ .

٦ ـ هٰذا علاوةً علىٰ تناسبِ فواصلِ الآياتِ في كلِّ سورةٍ ، فآية البقرة تناسب فاصلتها فواصل الآيات التي وردت في سياقها ، من مثل ﴿ ٱلْجَحِيمِ ﴾ ، و﴿ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ، و﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، وفاصلةُ آيةِ الرعدِ تناسب فواصل الآيات التي وردت في سياقها من مثل : ﴿ مَـَٔابِ ﴾ و : ﴿ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ و : ﴿ ٱلْحِسَابُ ﴾ ، فناسب كلُّ تعبيرٍ موضعه الذي ورد فيه من كل جهةٍ ، وٱلله أعلم .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وقال في سورةِ الأنعام : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [الأنعام : ٨٩ ـ ٩٠] .

وقال في سورةِ الزمرِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : ١٧ ـ ١٨] .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ البقرةِ : ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ ﴾ ، فحذف العائد علىٰ (الذين) من الفعل (هدىٰ) .

وكذلك في آيةِ الأنعامِ ، فقد قال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ ﴾ ، ولم يقل : (هداهم ٱلله) .

في حين قال في آيةِ الزمرِ : ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ فذكر العائد وهو الضمير (هم) المتصل بالفعل (هدىٰ) ؟

الجوابُ

إن هـٰذا النوعَ من الحذفِ إنما هو من الحذف الكثير في اللغة ، والفرق بين الذكر والحذف ، أن الذكر يفيد التوكيد كما هو معلومٌ ، ومعنىٰ ذٰلك أن قوله : ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ آكدُ من قوله : ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ ؛ لأنه صرح بذكر الضمير .

أما الفرق بين آيةِ البقرةِ وآيةِ الزمرِ ، فإن آية الزمر تقتضي التوكيد أكثر من آية البقرة ، وذٰلك أن آية البقرة إنما هي في تحويلِ القبلةِ .

وأما آيةُ الزمرِ فإنها فيمن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وهـٰؤلاء علىٰ درجةٍ كبيرةٍ من الهدىٰ ، فإنهم لا يكتفون باتباعِ الحسنِ ، وإنما يتبعون الأحسن ، ثم إنه جاء معهم بالفاء ، فقال : ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ ولم يأت بـ : (ثم) ، والفاء تدل علىٰ الترتيبِ والتعقيبِ ، فإنهم بمجرد سماع القول يتبعون الأحسن .

وقال : (يتّبعون) مضارع (اتّبع) بتضعيف التاء ، وهو علىٰ وزن (افتعل) الدالّ علىٰ المبالغة في الاتباعِ ، ولم يقل (يتْبعون) بالتخفيف ، وهـٰذه مرتبةٌ عظيمة أعلىٰ من مجرَّدِ اتباع القبلة ؛ لأن اتباع القبلة إنما هو من استماع القول واتباعه ، فهو واحد من الأمور المطلوبة .

فهداية المذكورين في الزمرِ أعلىٰ وآكد ؛ لأنها تشمل ما ذكره في آيةِ البقرةِ وغيره مما يريده ٱلله .

ولذا كان التوكيدُ في الزمرِ هو المناسب .

وأما آيةُ الأنعامِ فهي في جمعٍ من رسلِ ٱلله وأنبيائهِ وفيهم أولو العزمِ ، ولا شكَّ أن هـٰؤلاء أعلىٰ من المذكورين في آية الزمر .

قد تقول : ولماذا إذن لم يذكر الضَّمير مع فعلِ الهدايةِ ، مع أنهم أولىٰ بالتوكيد من غيرهم ؟

والجواب : إن ربنا ذكر كل أحوالِ الهدايةِ مع هـٰؤلاء الذين ذكرهم في سياق آيةِ الأنعامِ ، واستعمل كل أنواعِ التَّعديةِ لفعلِ الهدايةِ .

فقد عدَّىٰ الفعل إلىٰ المفعول مباشرةً بأسمائهم الظَّاهرة ، فقال : ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ. . . ﴾ إلخ .

فعطف هـٰؤلاء الأنبياء والرسل علىٰ نوح الذي هو مفعول ﴿ هَدَيْنَا ﴾ أي : ومن ذريته هدينا سليمان وأيوب ويوسف . . . إلخ ، ثمَّ عدَّىٰ الفعل إلىٰ ضميرهم أيضاً ، فقال : ﴿ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [٨٧] ، فقال : ﴿ وَهَدَيْنَـٰهُمْ ﴾ فعدَّىٰ الفعل إلىٰ ضميرهم ، كما قال : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ وزاد علىٰ ذٰلك الاجتباء .

ولم يكتفِ بذاك ، بل قال أيضاً : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ فحذف مفعول (هدىٰ) وهو الضَّمير العائد علىٰ الرسل ، فجعل الكلام علىٰ

صورة المطلق فأطلق المعنىٰ ، إذ يحتمل هـٰذا التعبير معنيين :

الأول : أولـٰئك الذين هداهم ٱلله ، وهو الأظهرُ .

والثاني : أولـٰئك الذين هدىٰ ٱلله بهم .

فصار المعنىٰ : أولـٰئك الذين هداهم ٱلله وهدىٰ بهم ، ولو ذكر الضَّمير لدلَّ علىٰ معنىً واحدٍ ، فاتسع المعنىٰ بالحذف .

ولا شكَّ أن هـٰذا المعنىٰ أوسع من ذكرِ الضَّمير وأمدح لهم .

فزاد علىٰ ما ذكره في الزمرِ بالتعدية إلىٰ المفعول المباشرِ ، وهو الاسم الظاهر ، وبالحذف للدلالة علىٰ الإطلاقِ واتساعِ المعنىٰ .

ثم إنه ذكر من الهداية ما لم يذكره في الآيتين .

فقد ذكر الهداية العامة ، وهو قوله : ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ . . . ﴾ إلخ ، ولم يخصصِ الهدايةَ بأمرٍ معين .

ثم ذكر أنه هداهم إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ ، فقال : ﴿ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهـٰذه هدايةٌ أخرىٰ .

ثم أفاد بالحذف أنه هداهم ، وهدىٰ بهم .

هـٰذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرىٰ ، أنه أسند فعل الهداية مع رسل ٱلله مرةً إلىٰ ضمير التعظيمِ ، فقال : ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ . . . ﴾ إلخ ، وقال : ﴿ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وأسنده مرةً أخرىٰ إلىٰ اسمه الجليل وهو اسمه العَلَم ، فقال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ ﴾ .

في حين أسنده في الآيتين الأخريين إلىٰ اسمه العلم ، فزاد الإسناد مع الرسلِ علىٰ ما في الآيتين الأخريين .

هـٰذا علاوةً علىٰ ما ذكره من التعظيمِ لأنبيائه ، ما لم يذكره مع الآخرين من نحو قوله : ﴿ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [٨٦] .

وقوله : ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فزاد الاجتباء علىٰ الهداية .

وقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ [٨٩] .

وقوله : ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [٩٠] .

فناسب كلٌّ تعبيرٍ موضعه .

وقد تقول : ألا يحتمل الحذف في آيةِ البقرةِ ، وهي قوله : ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ ﴾ ما ذكرته في قوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ ﴾ فيكون المعنىٰ : إلا علىٰ الذين هداهم ٱلله وهدىٰ بهم ، فيتسع المعنىٰ ، فيكون مَن ذكرهم في البقرةِ أعلىٰ ممن ذكرهم في الزمرِ ، نظير ما ذكرته في آية الأنعام ؟

والجوابُ : إن السِّياق يأبىٰ ذٰلك ، فإن هـٰذه الآيةَ في تحويلِ القبلةِ إلىٰ الكعبةِ ، بعد أن كانت إلىٰ بيت المقدس ، ويكفي في ذٰلك أن يتجه المسلم إلىٰ الكعبة في صلاته ، وأن يهديه ٱلله للرضا بذٰلك ، سواء كان

يهدي الآخرين أم لا ، وسواء كان عالماً أم لا .

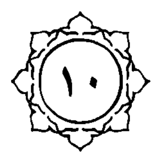
فمن رضي بذلك واتجه إلىٰ القبلة ، شملته الآية أيّاً كان ، فلا يصحُّ تقدير ما ذكرت .

وقد تقول : ولِمَ لَم يحذف الضَّمير في آية الزمر ، فيقول : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ ﴾ ليشمل الذين هداهم ٱلله وهدىٰ بهم ، فيكون أمدحَ لهـٰؤلاء ، كما فعل في آية الأنعام ؟

والجوابُ : إن ذكر الضَّميرِ ههنا من رحمةِ ٱلله بنا ، ولو حذفه لكانت البشرىٰ لا تنال إلا مَن هداه ٱلله وهدىٰ به ، فيكون ممن جمع بين الأمرين ، ولا تَنال مَن هداه ٱلله ولم يَهدِ به ، فذِكْرُ الضَّميرِ أفاد نصًّا أن البشرىٰ تنال مَن هداه ٱلله ، وأن ذٰلك كافٍ لأن تناله بشرىٰ ربِّنا .

وهـٰذا من رحمته سبحانه بعباده ، والحمد لله ربِّ العالمين .

* * *



قال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٥٩ ـ ١٦٠] .

وقال فيهم أيضاً : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [البقرة : ١٦١ ـ ١٦٢] .

فقال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ بصيغة الفعل .

وقال في الآيةِ الثانيةِ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ بالصيغة الاسمية ، فَلِمَ ذاك ؟

والجوابُ

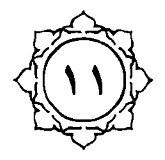
إن الآية الأولىٰ قيلت فيمن كان لا يزال في الحياة الدنيا ، فجاء بالفعل ، (يكتمون) مضارعاً ، وجاء بفعلِ اللعنةِ مضارعاً أيضاً ، فما

داموا يكتمون ما أنزل ٱلله تصيبهم اللعنة ، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا ، فأولـٰئك يتوب ٱلله عليهم .

وهـٰذا هو المناسب لفعلهم ، فاللعنة تستمرُّ ما دام الكتمان مستمرّاً .

وأما الآية الثانية فنزلت في الذين ماتوا علىٰ الكفرِ ، وقد انقطعت أعمالهم وثبتوا علىٰ حالةٍ واحدةٍ ، لا يرجىٰ لهم تبديلٌ ولا تغييرٌ ، فجاء باللعنة بالصيغة الاسمية للدلالةِ علىٰ الثبوتِ ، فناسب كلُّ تعبيرٍ مكانه الذي ورد فيه .

* * *



وقال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

وقال في سورةِ النحلِ : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل : ١١٤] .

سؤالٌ

لماذا قال في آية البقرة : ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ ﴾ فأمر بالشكرِ لله ، وقال في آيةِ النحلِ : ﴿ وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ فأمر بشكرِ النِّعمةِ ؟

الجوابُ

إن السِّياق الذي وردت فيه آيةُ البقرةِ ، إنما هو في الكلام علىٰ ٱلله ، والسياق الذي جاءت فيه آيةُ النحلِ في الكلام علىٰ النعمِ .

فقد قال تعالىٰ في سياقِ آيةِ البقرةِ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [١٦٥] .

وقال قبل الآيةِ : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا

دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [١٧١] .

فالكلام كما ترىٰ علىٰ ٱلله ، وعلىٰ ما يدعوه الكفار من الآلهة ، فناسب الأمرُ بشكر ٱلله .

وأما آية النحلِ فهي في سياق النعم ، فقد قال قبل الآية : ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرۡيَةً كَانَتۡ ءَامِنَةً مُّطۡمَئِنَّةً يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [١١٢] .

فذكر القرية التي كفرت بأنعم ٱلله ، فأذاقها ٱلله لباس الجوع والخوف ، فناسب الأمر بشكرِ النعمةِ ؛ لئلا يصيبهم ما أصاب مَن قبلهم .

هـٰذا إضافةٌ إلىٰ أن كلمة (النعمة) وردت في سورة النحل أكثر مما وردت في سورةِ البقرةِ ، فقد وردت في سورة البقرةِ ستَّ مراتٍ ، ووردت في النحل تسع مراتٍ ، فناسب كلُّ تعبيرٍ مكانه من جهةٍ أخرىٰ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

سؤالٌ

١ ـ لماذا قال : ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ ﴾ ولم يقل : (وعلىٰ الوالدِ) ؟

٢ ـ ولماذا قال : ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ ﴾ بالجمعِ ، وقال : ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ ﴾ بالإفراد ؟

٣ ـ ولماذا قال : ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ ﴾ ولم يقل : (وعلىٰ الوالدات أن يرضعن) كما قال في الوالد ؟

الجوابُ

١ ـ بالنسبةِ إلىٰ السُّؤالِ الأول فإنه قال : ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ ﴾ دون الوالد « للدَّلالة علىٰ أن الأولاد للآباء لا للأمهات ، ولهـٰذا يُنسبون إليهم دونهن كأنهن إنما ولدن لهم فقط »[1] .

٢ ـ وأما بالنسبة إلىٰ السؤالِ الثاني ، فإنه عبر بـ : (الْوَالِدَاتُ)

---

(١) فتح القدير (١ / ٢٤٥) .

علىٰ صيغة الجمعِ دون المولود له ؛ للكثرةِ النسبية ، فإن الوالدات أكثر من الآباء ؛ لأن الأب قد تكون له أكثر من زوجة ، وكلهن يلدن والوالد واحد .

٣ - وأما بالنسبة إلىٰ السؤالِ الثالثِ ، فإنه قال : ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ﴾ ولم يقل : (وعلىٰ الوالدات أن يرضعن) لأن الزوج مكلفٌ بالرزقِ والكسوة للزوجاتِ ، أما الزوجة فلا يجب عليها أن ترضع أولادها ، وهي غير مكلفةٍ بذٰلك ، بل لها أن تمتنع عن إرضاع ولدها ، فيبحث له والده عن مُرضعةٍ ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق : ٦] .

ولهٰذا لم يقل : (وعلىٰ الوالدات أن يرضعن) كما لم يقل : (والوالدات ليرضعن) بلام الأمر ، وإنما قال : ﴿ ۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة البقرة : ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨ ـ ٢٣٩] .

سؤالٌ

لماذا وسّط ربُّنا هـٰذه الآية بين أحداثِ الطلاقِ والوفاةِ ، فإن قبلها : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [٢٣٦ ـ ٢٣٧] .

وبعدها : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا . . . ﴾ [٢٤٠] ؟

الجوابُ

١ ـ إن المشكلاتِ بين الزَّوجين قد تؤدي إلىٰ أن يحيف أحدهما علىٰ الآخر ، وينتصر لنفسه ، فيظلم الآخر .

وإن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر ، كما قال ربنا[١] ، فأمرهم بذٰلك ؛ ليرتدعوا ، ولئلا يبغي بعضهم علىٰ بعض .

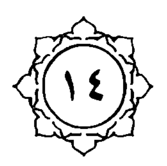
٢ ـ ثم إنه أمرهم بالمحافظة علىٰ الصلاة ؛ لئلا تشغلهم المشكلات العائلية عنها ، فيتركوها أو يتهاونوا في أدائها .

وقد أمرهم بالمحافظةِ عليها في الوقت الذي هو أشدُّ من ذلكَ ، وذٰلك عند الخوفِ ، فقال : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ ، فكيف فيما هو دون ذلكَ ؟

وهٰذا يدل علىٰ عِظم هٰذهِ الفريضةِ ، وأنه ينبغي ألا يشغلهم عنها شاغل مهما عظم .

* * *

(١) العنكبوت الآية (٤٥) .



قال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

سؤالٌ

لماذا قال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ ﴾ ولم يقل : (ومن لم يشربه) ، مع أن الكلام علىٰ الماء ؟

الجوابُ

يقال : (طعم) إذا أكل أو ذاق ، والطَّعم الذوق ، وهو يكون في الطعام والشَّراب .

يقال : طعمه مر أو حلو أو غير ذٰلك ، ويكون ذٰلك في كل شيء مما يؤكل أو يُشرب[١] .

ثم إن « الماء قد يُطعم إذا كان مع شيء يمضغُ .

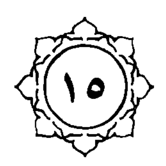
(١) انظر : لسان العرب (طعم) .

ولو قال : (ومن لم يشربه) لكان يقتضي أن يجوز تناوله إذا كان في طعام .

فلما قال : ﴿ وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ ﴾ تبين أنه لا يجوز تناوله علىٰ كلِّ حالٍ إلا قدر المستثنىٰ وهو الغرفة باليد »[١] .

* * *

(١) المفردات (طعم) .



قال تعالىٰ في آلِ عمرانَ علىٰ لسان زكريا عليه السلام ، حين بشرته الملائكة بيحيىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [آل عمران : ٤٠] .

وقال علىٰ لسان مريم ، حين بشرتها الملائكة بالمسيح : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٤٧] .

سؤالٌ

١ ـ لماذا قال زكريّا : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ .

وقالت مريمُ : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ ﴾ .

فذكر زكريّا الغلامَ ، وذكرت مريم الولدَ ؟

٢ ـ لماذا قال ٱلله مخاطباً زكريّا : ﴿ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

وقال مخاطباً مريمَ : ﴿ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

فاستعمل (الفعل) مع زكريّا ، و(الخلق) مع مريم ؟

الجوابُ

١ ـ أما بالنِّسبة إلىٰ استعمال الغلامِ مع زكريّا فهو المناسب ؛ لأن ٱلله بشره بيحيىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [٣٩] . ويحيىٰ غلام .

أما بالنِّسبة إلىٰ استعمالِ الولدِ مع مريم ، فهو المناسب أيضاً ؛ ذٰلك أن ٱلله بشرها بكلمة منه اسمه المسيح ، قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [٤٥] .

والكلمة أعم من الغلام فهي تصحُّ لكل ما أراد ٱلله أن يكون ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يسٓ : ٨٢] ، والولد أعمُّ من الغلامِ ، فالولد يُقال للذكر والأنثىٰ ، والمفرد والجمع ، قال تعالىٰ : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ [الكهف : ٣٩ ـ ٤٠] .

فلما بشَّرها بالكلمة وهي عامة ، سألت بما هو أعمُّ من الغلام وهو الولد ، فناسب العمومُ العمومَ والخصوصُ الخصوصَ .

ألا ترىٰ في سورةِ مريمَ ، حين بشرها رسول ربها بالغلام قائلاً : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم : ١٩] .

قالت : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ [مريم : ٢٠] ، فناسبَ كل تعبيرٍ مكانه .

٢ ـ وأما قوله مخاطباً زكريّا : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ ،

وقوله مخاطباً مريم : ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ فهو المناسب أيضاً .

ذٰلك أن الفعلَ أيسر من الخلقِ ، فالفعلُ عامٌّ ، ألا ترىٰ أنه قد يقول لك قائل : لِمَ فعلت كذا ؟ ولم تفعل كذا ؟ فتقول : أنا أفعل ما أشاء .

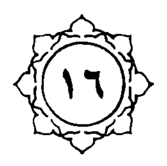
ولا يصحُّ أن تقول : (أنا أخلق ما أشاء) فإنك لا تستطيعُ ذٰلك .

هٰذا وإن إيجاد الذريّةِ من أبوين مهما كان شأنهما ، أيسر من إيجادها من أمٍّ بلا أب .

فناسب ذكرُ الفعلِ الذي هو أيسرُ من الخلقِ مع زكريا .

وناسب ذكرُ الخلقِ مع مريمَ التي لم يمسسها بشرٌ .

* * *



قال تعالىٰ في آلِ عمرانَ : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٦ ـ ٥٧] .

سؤالٌ

لماذا قال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ ﴾ بإسنادِ التعذيبِ إلىٰ ضميرِ المتكلِّم ، وقال في الآية الثانية : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ بإسنادِ توفيةِ الأجورِ إلىٰ الغائبِ ولم يقلْ : (فأوفيهم أجورهم) فيكونُ الكلامُ علىٰ نسقٍ واحدٍ ؟

الجوابُ

إن الآيةَ الأولىٰ في سياق كلام ٱلله سبحانه عن نفسه ، قال تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [٥٥ ـ ٥٦] .

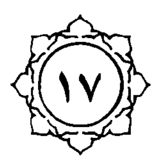
فناسب إسنادُ التعذيبِ إلىٰ نفسه ، جرياً مع سياقِ الحديثِ عن النفسِ .

وأما الآية الثانية ، فهي في مقامِ الالتفاتِ إلىٰ الغائب ؛ وذٰلك ليكون مدخلاً إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإنه لو لم يلتفت لقال : (وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فأوفيهم أجورهم وأنا لا أحب الظالمين) .

ولم يرد فعل الحبِّ من ٱلله في القرآن ؛ إثباتاً أو نفياً مسنداً إلىٰ ضميرِ المتكلِّمِ ، أي إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ لم يقل في جميع القرآن مخبراً عن نفسه بنحو : (وأنا لا أحب الظالمين أو المعتدين) أو : (وأنا أحب الصابرين أو المحسنين) بل يسند ذٰلك إلىٰ لفظِ الجلالةِ في الأغلبِ ، أو إلىٰ ضميره كأن يقول : (إنه لا يحب المسرفين) أو : (إنه لا يحب المعتدين) .

فالمناسبُ هو الالتفاتُ ، وليس الاستمرارُ بالحديثِ عن النفسِ .

* * *



قال تعالىٰ في آلِ عمرانَ : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

وقال في سورةِ هودٍ : ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ﴾ [هود : ٥٤ ـ ٥٥] .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ آلِ عمرانَ : ﴿ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ فجاء بالباء مع (أنا) ولم يذكرها في قولِهِ : ﴿ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ ﴾ فلم يقلْ : (بأني بريء) مع أن الفعلَ فيهما واحدٌ ، وهو قوله : (اشهدوا) ؟

الجوابُ

إن الباءَ مُقدرةٌ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ ﴾ والمصدر المؤول منصوب علىٰ نزعِ الخافضِ ؛ لأن (شهد) بهـٰذا المعنىٰ يتعدَّىٰ بالباء ، وذٰلك نحو قوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الزخرف : ٨٦] ، وقوله : ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ [يوسف : ٨١] .

ومعلومٌ أن الذكر أقوىٰ وآكدُ من الحذفِ ، فقوله : ﴿ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا

مُسْلِمُونَ﴾ أقوىٰ وآكد من قوله : ﴿وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ .

وسياقُ كلٍّ من الآيتين يوضح ذٰلك .

قال تعالىٰ في آلِ عمرانَ : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٦٤] .

وقال في سورةِ هودٍ : ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [٥٤ ـ ٥٥] .

ومن النَّظرِ في كلٍّ من الموضعين ، يتضح أن ما ذكره رسول ٱلله في آل عمرانَ ، أكثرُ مما قاله نبيُّ ٱلله هودٌ في سورةِ هودٍ .

فقد قال في آلِ عمرانَ :

١ ـ ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ .

٢ ـ ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ .

٣ ـ ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ .

وأما في هودٍ فقد ذكر البراءة من الشرك فقط فقال : ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ﴾ ، وهو واحدٌ مما جاء في آلِ عمرانَ .

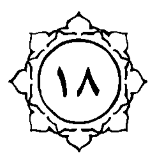
ثم لو نظرنا فيما جاء عن الشِّركِ في كلٍّ من الموضعين ، لوجدنا أن ما في آل عمرانَ أقوىٰ وأعم ، فقد قال فيها : ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي : أيُّ شيءٍ كان ، وهٰذا التعبير يحتمل معنيين : لا نشرك به شيئاً من

الشِّركِ ، ولا نشرك به شيئاً من الأشياءِ .

في حين قال في هود : ﴿ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ ﴾ فإنه ذكر البراءة مما يشرك قومه . فكان ما في آلِ عمرانَ أعم وأشمل ؛ لأنه نفىٰ كل أنواعِ الشِّركِ ويدخل فيه ما ذكره في هودٍ .

فكان ما في آلِ عمرانَ أقوىٰ وآكد وأعم ، فناسبَ ذكر الباءِ فيه ، ولما كان ما في هود جزءاً مما ذكر في آلِ عمرانَ ناسب الحذف ، والحذف في نحو هـٰذا قياس كما هو معلومٌ .

* * *



قال تعالىٰ في آلِ عمرانَ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

سؤالٌ

من المعلومِ أن الحجَّ عبادة مأمور بها المسلمون ، وهي ركنٌ من أركان الإسلام ، فلماذا قال : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾ فقال : ﴿ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ، والناس فيهم الكافرُ والمسلمُ ، ولم يقل : (علىٰ المسلمين) أو (علىٰ المؤمنين) كما قال تعالىٰ في الصِّيامِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة : ١٨٣] ، وكما قال في الصَّلاةِ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء : ١٠٣] فذكر المؤمنين ؟

الجوابُ

١ ـ قال تعالىٰ قبل هـٰذه الآية : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] ، فذكر أن هـٰذا البيت إنما وضع للناسِ ، فناسب أن يدعو الناس إلىٰ حجِّه .

وقال : ﴿ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ فذكر العالمينَ ، فناسب ذٰلك أيضاً أن يدعو العالمين إلىٰ حجه .

وقال : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فذكر العالمين أيضاً ، فناسب ذٰلك من جهة أخرىٰ أن يدعو العالمين إلىٰ حجه .

٢ - إن هـٰذه الفريضة تختلف عن بقيةِ الفرائضِ ، من صلاة وصيام وزكاة ، فإن هـٰذه الفرائضَ مأمورٌ بها الأنبياء السابقون وأتباعهم .

فقد قال في الصِّيام : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ .

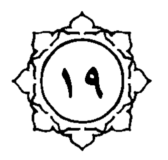
فذكر أن الصِّيام كتب علينا كما كتب علىٰ الذين من قبلنا ، فلو قال : (لله علىٰ الناس أن يصوموا) لقال أصحابُ الدِّياناتِ الأخرىٰ أو كثيرٌ منهم : نحن نصوم ، فنحن قائمون بما أمر ٱلله به .

ولو قال : (ولله علىٰ الناس إقامة الصلاة) لقال كثيرٌ من أهلِ المللِ من أهل الكتابِ وغيرهم : نحن نقيمُ الصلاةِ ، فإن الصلاةَ عبادةٌ مأمورٌ بها الأنبياء وأتباعهم .

قال تعالىٰ في سيدنا موسىٰ : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [يونس : ٨٧] .

وقال علىٰ لسان سيدنا إبراهيم : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ آلِ عمرانَ : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٦ ـ ١٠٧] .

سؤالٌ

لماذا قدّم أولاً من تبيضُّ وجوههم علىٰ من تَسودُّ ، فقال : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ ، ثم قدَّم بعده من تسودُّ وجوههم علىٰ من تبيضُّ ، فقال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ وقال بعده : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ .

وكان المظنون أن يكون التَّفصيل علىٰ نسقِ ما بدأ ، فيقول أولاً : (فأما الذين ابيضت وجوههم) ويقول بعده : (وأما الذين اسودت وجوههم) نظيرَ قولِه تعالىٰ في سورةِ هودٍ : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ . . . ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ [١٠٥ ـ ١٠٨] .

فإنه لما قال : ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فقدَّم الشَّقي ، كان التفصيل علىٰ نسق ذٰلك ، فقال : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ فقدَّم الذين شَقوا علىٰ الذين سُعدوا ، فما الفرق ؟

الجوابُ

إن التَّقديم والتَّأخير في آلِ عمرانَ جرىٰ بحسب القربِ والبعدِ ، فمَن كان قريباً قدم القول فيه ، ومَن كان بعيداً أخَّر القولَ فيه .

وإيضاح ذٰلك أن الكلامَ كان علىٰ صنفين من النَّاسِ ، أحدِهما مُخاطبٍ والآخرِ غائبٍ ، ولا شكَّ أن المخاطب أقرب من الغائبِ ، فقدَّم ما يتعلَّق بالمخاطبِ وأخَّر ما يتعلَّق بالغائبِ .

وبيان ذٰلك أن السِّياق في آلِ عمرانَ إنما هو في خطابِ المؤمنين ، فقد خاطبهم بقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [١٠٠] ، ويستمرُّ الكلام في خطابهم ، فيقول : ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ . . . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ . . . وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ . . . وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ . . .﴾ [١٠١ ـ ١٠٦] ، فالمؤمنون هم المُخَاطَبون وهم الذين تَبيض وجوههم .

والذين تفرَّقوا واختلفوا هم الذين تسودّ وجوههم ، وهم في السياق

غائبون ، ألا ترىٰ إلىٰ قوله : ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فأخبر عنهم بضمير الغيبة ؟

فقدَّم القول في المخاطبين كما ذكرنا ، فقال : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ .

وأما الكلام بعد ذٰلك ، فإن الذين اسودَّت وجوههم ، هم المخاطبون فيه ، وأما الذين ابيضَّت وجوههم فهم غائبون .

فقد قال : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ .

فقد خاطبهم بقوله : ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ ، ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ .

وأما الذين ابيضَّت وجوههم فهم هنا غائبون ، فقد قال فيهم : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ .

فأخبر عنهم بضمير الغيبة .

فقدَّم القولَ في المُخَاطبين كما فعل أولاً ، فجرىٰ الكلامُ علىٰ نسقٍ واحدٍ في التقديمِ والتأخيرِ .

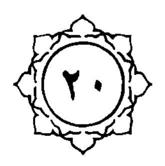
وأما التقديمُ والتأخيرُ في سورةِ هودٍ فقد جرىٰ علىٰ نهجٍ واضحٍ أيضاً ، فإن السِّياق فيها في ذكرِ الأممِ الكافرةِ الذين عصوا رسلهم ، وأنزل بهم العقوبات ، ثم عقّب بعد ذٰلك بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ

أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [١٠٠ ـ ١٠١] ، فالسِّياق في الأشقياءِ من الناسِ فقدَّم الأشقياءَ ، فقال : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ .

وأما التفصيل فيما بعد ، فقد جرىٰ علىٰ نسق ما ذكر ؛ لأنهم كلهم غائبون فهم بمنزلةٍ واحدةٍ ، فقد قال : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ .

وقال بعدها : ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ بخلاف ما عليه السياق في آل عمران ؛ فإن منهم مخاطباً ومنهم غائب ، فجرىٰ التفصيل في هود علىٰ ما أجمل ، فلما قال : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ فقدَّم الأشقياء ، فصّل الكلام علىٰ نسق ذٰلك ، فقال : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ ﴾ ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ ﴾ فكان كلُّ تعبيرٍ مناسباً في سياقه الذي ورد فيه .

* * *



قال تعالىٰ في آلِ عمرانَ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران : ١٦٧] .

وقال في سورةِ الفتحِ : ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح : ١١] .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ آلِ عمرانَ : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ ، وقال في الفتحِ : ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ ؟

الجوابُ

إن الأفواه أعمُّ وأشملُ من الألسنةِ ، فإن اللسانَ جزءٌ من الفمِ ، والمناسب أنه إذا كان القولُ كبيراً عظيماً ذُكرتِ الأفواه ، وإذا كان أقل ذُكرت الألسنةُ مناسبةً لكلِّ حالةٍ .

وعلىٰ هـٰذا فقوله : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ يدل علىٰ أن القولَ أعظمُ وأكبرُ ، والأمر كذٰلك .

فإن السِّياق في آلِ عمرانَ إنما هو في المتخلفين عن القتال في

أُحد ، فقد دُعوا إلىٰ القتال ، أو الدفع عن المدينة ، فامتنعوا قائلين : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [١٦٧ ـ ١٦٨] .

ومما قيل في معنىٰ قوله : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ إننا لا نُحسن القتال ، ولو كُنا نحسن القتال لاتبعناكم .

وأما المذكورون في سورةِ الفتحِ ، فهم المتخلِّفون عن عُمرة الحُديبية ، فهم لم يذهبوا إلىٰ العُمرة مع الرسولِ ﷺ مُعتلِّين بالشُّغل ، قال تعالىٰ : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [١١] .

ومن النظر في السِّياقين يتبين ما يأتي :

١ ـ إن الموقف في آيةِ آلِ عمرانَ إنما هو في قتال المشركين ؛ الذين جاؤوا إلىٰ المدينة .

وأما الموقف في آية الفتحِ فهو في الذهاب إلىٰ العمرةِ ، وليس إلىٰ قتالٍ ، فالموقف في أُحُدٍ أشدُّ والخطر أظهر .

٢ ـ إن القول في آيات آلِ عمرانَ أعظم وأكبر مما في الفتح ، فإنهم قالوا : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ فهم كانوا مُصرين علىٰ عدمِ المشاركةِ

في القتالِ ، راضين بقعودهم ، ولم يكتفوا بذٰلك بل كانوا يخذِّلون غيرهم ، ويُزينون لهم القعود ، فقد قال عنهم سبحانه إنهم قالوا لإخوانهم : ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ﴾ ، فهم لم يندموا ، بل كانوا يرون ذٰلك من بُعد النظرِ .

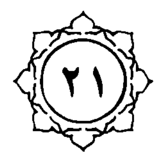
وأما المُخلَّفون الذين ذُكروا في سورةِ الفتحِ ، فإنهم قالوا : ﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ .

فاعتذروا عن عدمِ الذَّهابِ إلىٰ العُمرة بالشُّغلِ ، وأنهم طلبوا الاستغفارَ من الرسول ﷺ ، فهم أظهروا للرسول ﷺ أنهم مُقصِّرون وأنهم مذنبون فطلبوا الاستغفار ، وأنه كان لهم عذر .

ولم يُظهِر الأولون ذٰلك ، بل كانوا راضين بما فعلوا مُخذَلين لغيرهم ، غير نادمين ولا طالبين لمغفرةٍ .

فقول أصحاب أُحد أكبر وأعظم ، وموقفهم أخطر وأكبر ، فناسب أن يُذكر فيهم ما هو أكبر وهو الأفواه ، وناسب ذكر الألسنةِ في آيةِ الفتحِ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة النساء: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٦ ـ ٢٨] .

سؤالٌ

١ ـ لماذا رتَّب الآية السادسة والعشرين علىٰ هٰذا النَّحوِ ، أي قدَّم البيان ، ثم الهداية ، ثم التوبة ؟

٢ ـ لماذا قدّم لفظ الجلالة علىٰ الفعل (يريد) في الآيةِ السابعةِ والعشرين ؟

٣ ـ لماذا عدَّىٰ فعلَ الإرادةِ باللاَّمِ في الآيةِ السادسةِ والعشرين ، وعدّاه بنفسه في الآية التي بعدها ؟

الجوابُ

١ ـ بالنسبة إلىٰ التَّقديم والتأخير في الآية الأولىٰ ، فإن هٰذا هو الترتيب الطبيعي ، فإنه قدَّم البيان علىٰ هداية السُّنن ؛ لأن البيان مقدَّمٌ

علىٰ الهدايةِ ، فالهداية تكون بعد البيان ، وإلا فإلىٰ أي شيءٍ يهديه ؟

وأما التوبةُ فهي بعد البيانِ والهدايةِ ، فإنها تكون بعد التقصيرِ في الاتباعِ ، وارتكاب الذنوب والمعاصي .

٢ ـ قُدِّم لفظُ الجلالةِ علىٰ الفعل (يريد) في الآيةِ السابعةِ والعشرين لأكثر من سببٍ .

منها : أنها بمقابل ما يُريده الذين يتبعون الشَّهواتِ .

ومنها : أن هـٰذا التقديم يُفيد الاهتمامَ والتوكيدَ ، والمبالغةَ في إرادة التوبة من ٱلله(١) .

ومن جهةٍ أخرىٰ أن هـٰذا التقديمَ يُفيد الحصر ، إضافة إلىٰ ما تقدَّم ، فإن التوبة مُختصة بٱلله حصراً ، فلا يتوب غيره علىٰ العبدِ ، ولا يمكنه ذٰلك .

قد تقول : ولِمَ كان هـٰذا الموضع موضع تأكيدٍ ومبالغةٍ ؟

فنقول : إن ذٰلك لأكثرِ من سببٍ :

منها : أن التوبة من ٱلله أهم شيءٍ بالنسبة إلىٰ العبد ، ولا يقوم شيءٌ مقامها ، فإنه إذا لم يتب ٱلله علىٰ العبد هلك .

ثم إن السِّياق يدل علىٰ ذٰلك ، فقد كرَّر إرادةَ التوبةِ ، فقال : ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

---

(١) انظر : تفسير البيضاوي (١٠٩) ، روح المعاني (٥ / ١٢) .

وقال إضافةً إلىٰ ذٰلك : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ والتوبةُ من ٱلله تخفيفٌ عن العبدِ .

ومما يدلُّ علىٰ ذٰلك أيضاً أنه قال : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ بمقابل ما ذكره من إرادة الفجّارِ ، فقد قال : ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ .

وكان المظنونُ بمقابلِ ذٰلك أن يقول : (وٱلله يريد أن تستقيموا) مثلاً أو أن تطيعوه ، فإن الاستقامةَ تُقابل الميلَ ، ولٰكنه لم يقلْ ذٰلك ، وإنما قال : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ فذكر ما هو أخفُّ ، ولا شكَّ أن ذكر هٰذه الإرادةِ بمقابلِ ما يريده الذين يتبعون الشَّهواتِ رحمةٌ وتخفيفٌ .

ثم ذكر أن الإنسان خُلق ضعيفاً ، والضَّعيف به حاجةٌ إلىٰ التخفيفِ ، والتوبةُ من التخفيفِ .

ثم إن السياقَ قبل هٰذه الآياتِ في ذكرِ التوبةِ ، فقد قال : ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ [١٦ ـ ١٨] .

فاتَّضحَ أن سياقَ الآياتِ وما قبلها إنما هو في التوبةِ ، فاقتضىٰ ذٰلك الاهتمامَ والمبالغةَ في إرادة التوبة .

واقتضىٰ تقديم لفظِ الجلالةِ من كلٍّ وجهٍ .

قد تقول : لقد اتضح سبب تقديمِ لفظِ الجلالةِ في قوله : ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فلِمَ لم يُقدم الذين يتبعون الشهوات ، فيقول : (والذين يتبعون الشهوات يريدون أن تميلوا ميلاً عظيماً) حتىٰ يكون التعبيران علىٰ نسقٍ واحدٍ ؟

فنقول : إن الذين يتبعون الشهوات ليسوا وحدهم الذين يريدون للمسلمين أن يميلوا ميلاً عظيماً ، بل هناك غيرهم ممن يريد ذٰلك من المنافقين ، وأهل الكتاب والمشركين ، وغيرهم ممن يأكلُ قلبه الحسدُ والحقدُ ، أو لغير ذٰلك ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة : ١٠٩] . وقال : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة : ٨٢] . وقال : ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة : ٦٨] .

وقال في المنافقين : ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء : ٨٨ ـ ٨٩] .

فذكر أن الذين يتبعون الشَّهوات يريدون أن تميلوا ميلاً عظيماً ، ولم يَقصر ذٰلك عليهم فلا يُناسب التقديم .

٣ ـ وأما تعدية فعل الإرادةِ باللاَّم مرة ، وبنفسه مرة أخرىٰ ، فإن التَّعدية باللام تحتمل أمرين :

الأول : أن تكون اللام مزيدةً للتوكيد ، وهٰذا كثيرٌ في أفعال الإرادةِ ، وذٰلك نحو قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [الأحزاب : ٣٣] ، وقوله : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ [الصف : ٨] ، والآخر : أن تكون اللام للتعليلِ[1] ؛ أي إرادته لهٰذا الغرضِ .

وكلاهما يدلُّ علىٰ المبالغةِ والقوة ، وهو آكدُ وأقوىٰ من التعدية بنفسه[2] ، فالتعبير (يريد ٱلله ليتوب عليكم) آكد من : (يريد ٱلله أن يتوب عليكم) .

وقد ذكر ٱلله الأمرين فإن قوله : ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ في الآية الأولىٰ أي في قوله : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ . . . وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ معطوفٌ علىٰ إرادةِ اللامِ .

وفي الثانية مفعولٌ به للفعلِ (يريد) .

فتكون إرادة ٱلله للتوبةِ مطلوبةً مؤكدةً علىٰ كل حالٍ ، وهٰذا يدل علىٰ عظيمِ رحمةِ ٱلله بخلقه .

ولما كانت الآية الأولىٰ ذكرت أموراً في غاية الأهميةِ ، منها البيان لما يريده ٱلله ، وهداية الخلق لما يريد ، ومنها التوبة ، جاء بفعلِ الإرادةِ معدًّىٰ باللامِ .

---

(١) انظر : تفسير البيضاوي (١٠٩) .

(٢) انظر : كتابنا (معاني النحو) (٣ / ٦٧) وما بعدها .

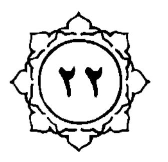
ولما كانت الآية التي تليها مندرجةً في مطلوبِ الآيةِ السابقةِ ، وهي إرادةُ التوبةِ ، وليس فيها ما في الآية التي قبلها لم تحتجْ إلىٰ اللاَّمِ .

وقد تقول : ولِمَ لَم يقدَّم لفظ الجلالةِ في الآية الأولىٰ فيقول : (ٱلله يريد ليبين لكم) ؟

فنقول : إن هـٰذا المواطنَ لا يقتضي التَّقديم ؛ لأنه لم يذكر أن جهةً أخرىٰ تُريد غير ذٰلك ، ولا هو موطنُ تعريضٍ بجهةٍ أخرىٰ تريد غير هـٰذا الأمر ، وإنما هو إخبارٌ عن إرادةِ ٱلله لذٰلك ، بخلاف الآية التي تليها ، فإنه ذكر جهة أخرىٰ تريد غير ما يريده ٱلله للمؤمنين .

فلا يناسبُ التَّقديمَ في الآيةِ الأولىٰ ، وٱلله أعلم .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ النِّساءِ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء : ٩٢] .

وقال في سورةِ التَّوبةِ : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة : ١٠٤] .

وقال في سورةِ الشُّورىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورىٰ : ٢٥] .

سؤالٌ

لماذا جاء مع التوبةِ بـ : (من) في آيةِ النِّساءِ ، وجاء معها بـ : (عن) في آيتي التوبة والشُّورىٰ ؟

الجوابُ

لقد ذكر (من) مع التوبة ليُبيِّنَ الجهةَ التي تقبل التوبة ، وهو (ٱلله) .

وذكر معها (عن) ليُبيِّن طالبَ التَّوبةِ وهمُ العبادُ .

فقوله : ﴿ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ يعني أن التَّوبة قَبِلَها ٱلله ، وهو يتوب علىٰ مَن يفعل ذٰلك .

وقوله : ﴿ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ يعني أنه يقبل التوبة التي تصدر عن عباده طالبين لها .

وقيل : إن معناه أنه يتجاوز عنهم ، ويعفو عن ذنوبهم التي تابوا منها ، جاء في « روح المعاني » : « وتعدية القَبول بـ : (عن) لتضمُّنه معنىٰ التَّجاوز والعفو أي : يقبل ذٰلك متجاوزاً عن ذنوبهم التي تابوا عنها »(١) .

* * *

---

(١) روح المعاني : (١١ / ١٥) .



قال تعالىٰ في سورةِ النساءِ: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٢] .

سؤالٌ

لماذا قال : ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بنصب ﴿ ٱلْمُقِيمِينَ ﴾ مع أنه معطوفٌ علىٰ ﴿ ٱلرَّٰسِخُونَ ﴾ وهو مرفوع ؟

الجوابُ

إن هٰذا مما يسمىٰ في علمِ النَّحوِ بالقطعِ ، وهو يكثر في المدح والذم والترحم ، ويكون ذٰلك لأهميةِ المعطوفِ[١] .

والقطع هنا للمدحِ ، وهو مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ تقديره (أمدح) أو (أخص) .

وحسَّن القطع أنه ذكر عبادتين ظاهرتين وهما : إقامةُ الصلاةِ وإيتاءُ

(١) انظر : (معاني النحو) (٣ / ١٨٧) وما بعدها .

الزكاةِ ، والصلاة أهم من إيتاء الزكاة ؛ لأنها فرض عين علىٰ كل مكلَّفٍ سواء كان غنيًّا أم فقيراً ، صحيحاً أم سقيماً ، وهي أهمُّ ركنٍ في الإسلامِ ، ولا تسقط في حالٍ من الأحوال ، ولذا قطعها للدلالة علىٰ فضلها علىٰ الزكاةِ ، أما الصِّفات الأخرىٰ فهي أمورٌ باطنةٌ وقلبيةٌ .

ونظير ذٰلك قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

فقطع الصابرين لفضلهم ، وذٰلك أنهم صابرون في الفقر ، وفي المرض ، وفي القتال ، والبأساء هي البؤس والفقر ، والضَّراء السقم والوجع ، وحين البأس ؛ أي وقت القتالِ وجهاد العدو(١) .

جاء في (البحر المحيط) : « انتصب (والصابرين) علىٰ المدح .

ولما كان الصَّبر مبدأ الفضائل ـ ومن وجهٍ ـ جامعاً للفضائل ؛ إذ لا فضيلة إلا وللصبر فيها أثرٌ بليغٌ ، غيّر إعرابه ؛ تنبيهاً علىٰ هٰذا المقصد »(٢) .

---

(١) انظر : روح المعاني (٢ / ٤٨) ، البحر المحيط (٢ / ٧) .
(٢) البحر المحيط (٢ / ٧) .

وجاء في (روح المعاني) : « ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ نصب علىٰ المدح بتقدير : أخصُّ أو أمدحُ .

وغيَّر سبكه عمّا قبله ؛ تنبيهاً علىٰ فضيلة الصبرِ ومزيته علىٰ سائر الأعمال ، حتىٰ كأنه ليس من جنسِ الأوَّلِ »[1] .

* * *

(١) روح المعاني (٢ / ٤٧) .



قال تعالىٰ في سورةِ النِّساءِ: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٣ ـ ١٦٤] .

سؤالٌ

لماذا خصّ داود بقوله : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ ؟

والجوابُ

إن أهل الكتابِ سألوا سيدنا محمداً ﷺ أن يُنزل عليهم كتاباً من السَّماء ، قال تعالىٰ : ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء : ١٥٣] .

فأجابهم ربُّ العزةِ أن محمداً ﷺ أوتي مثلما أوتي رسل اللهِ الذين تؤمنون بهم ، وتُقرون بنبوتهم ، فقال : ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ

﴿إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ومَن ذكرهم من الأنبياءِ الآخرين .

وآتيناه كما آتينا داود زبوراً ، وقد نَزَلَ الكتابُ علىٰ داود منجماً[١] ، وكذلك نزل علىٰ محمدٍ ﷺ .

فإن مَن ذكرهم من الأنبياء الذين سبق ذكرهم ذكر داود ، اشتركوا في الوحي ، ولم يؤتهم كلهم كتباً ، فإن قسماً منهم لم ينزل عليهم كتباً ، فاشترك معهم محمدٌ ﷺ في الوحي ، وأوتي كتاباً كما أوتي داود الذي تؤمنون به ، وأرسله كما أرسل رسلاً آخرين قصَّهم عليه ، وآخرين لم يقصصهم عليه .

وقد تقول : ولِمَ قال : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ﴾ ؟

والجوابُ : إن قسماً ممن ذكرهم في صدرِ الأنبياءِ أنبياء ، وليسوا رسلاً مثل إسحاقَ ويعقوبَ ، فقد أوتي محمدٌ ﷺ مثلما أوتي أنبياء ٱلله ورسله جميعاً .

١ ـ فقد أوحي إليه كالنبيين .

٢ ـ وأوتي كما أوتي داود .

٣ ـ وأُرسل كما أُرسل رسلُ اللهِ ممن قصهم عليه ، ومَن لم يقصصهم عليه .

---

(١) انظر : روح المعاني (٦ / ٢٦) .

٤ ـ ذكر سبحانه أن ٱلله كلَّم موسىٰ تكليماً ، وهٰذه خصوصيةٌ لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ .

وأوتي محمدٌ ﷺ ما هو أعظم من ذٰلك ، فإن موسىٰ كلَّمه اللهُ علىٰ الطُّورِ ، وأما محمدٌ ﷺ فقد عرج به إلىٰ السمٰوات العلا ، إلىٰ سدرة المنتهىٰ عندها جنة المأوىٰ .

ثم إن موسىٰ خرَّ صعقاً .

وأما محمدٌ ﷺ فقد قال ربه فيه : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] ، فأحرىٰ بكم أن تؤمنوا به ، وقد أوتي مثلما أوتي رُسل ٱلله .

جاء في (روح المعاني) في تحقيق المماثلة بين شأنه ﷺ « وبين شؤون مَن يعترفون بنبوتهِ من الأنبياءِ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في مطلق الإيحاء ، ثم في إيتاء الكتاب ، ثم في الإرسالِ ، فإن قوله سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ منتظمٌ لمعنىٰ (آتيناك) و(أرسلناك) فكأنه قيل : إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلىٰ فلانٍ وفلانٍ ، وآتيناك مثلما آتينا فلاناً ، وأرسلناك مثلما أرسلنا الرسل الذين قصصناهم وغيرهم ، ولا تفاوت بينك وبينهم في حقيقةِ الإيحاءِ والإرسالِ ، فما للكفرةِ يسألونك شيئاً لم يُعطه أحدٌ من هٰؤلاء الرُّسلِ عليهم الصَّلاة والسلام »[1] .

* * *

(١) روح المعاني : (٦ / ٢٦) .



قال تعالىٰ في سورة المائدة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة : ٢] .

وقال في السورة نفسها أيضاً : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة : ٨] .

فقال في الآية الأولىٰ : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ ... أَن تَعْتَدُوا۟﴾ ، والتقدير : (علىٰ أن تعتدوا) فحذف (علىٰ) ، وقال في الآية الثانية : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ فذكر (علىٰ) فما السبب ؟

الجوابُ

إن الذِّكر يفيد التَّوكيد فذكر (علىٰ) في الآية الثانية ؛ لأنها آكد ، ذٰلك أن الآية الأولىٰ في حالةٍ وقعت ومضت وهي حالة عارضة ، وذٰلك في قوم صدُّوهم عن المسجدِ الحرامِ ، وهي في أهلِ مكة وذٰلك عام الحديبيةِ .

أما الآيةُ الثانيةُ فهي نهي عن حالةٍ مستديمةٍ إلىٰ يوم القيامةِ ، وهي النَّهي عن عدمِ العدلِ .

ثم إنَّ الاعتداءَ يدخل في عدمِ العدلِ ؛ لأنه اعتداء فدخلت الآية الأولىٰ في الثانية .

فالثانية آكد وأعم وأشمل ، فجاء فيها بـ : (علىٰ) وحذفها من الأخرىٰ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ ﴾ [المائدة : ٦] .

سؤالٌ

هل يصحّ في اللغةِ عطف الأرجل علىٰ الوجوه في الغسل ، مع أنه قد فصل بين المعطوف والمعطوف عليه بأجنبيٍّ عن الغسلِ ، وهو المسح بالرؤوسِ ؟ ثم لماذا فعل ذاك ؟

الجوابُ

لا شكَّ في صحةِ هـٰذا العطف في اللغةِ ، وهو كثيرٌ في القرآن وغيره ، قال تعالىٰ : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم : ١٧ ـ ١٨] .

فقد عطف : ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ علىٰ : ﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ وبينهما متعاطفاتٌ ، فقوله : ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ معطوفٌ علىٰ قوله : ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ ، و﴿ وَٱلْأَرْضِ ﴾ معطوفةٌ علىٰ ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ .

ونحو ذلك آية الكرسي ، فإن قوله : ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ معطوفٌ علىٰ قوله في أول الآية : ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ وبينهما متعاطفاتٌ مختلفةٌ وهي : ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ، ونحو ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، فعطف : ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ علىٰ ﴿ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ أي (ومن أقام الصلاة) علىٰ ما بينهما من متعاطفاتٍ .

وقال تعالىٰ في سورةِ الجنِّ : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [١٦] فعطفَ هـٰذهِ الآيةَ علىٰ قولِهِ : ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ وهي الآيةُ الأولىٰ .

فعطف الآية السادسة عشرة علىٰ الآية الأولىٰ .

وفي سورة الأعراف عطف قوله : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [٨٥] علىٰ قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [٥٩] .

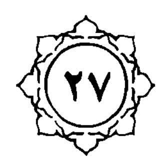
علىٰ ما بينهما من بُعدٍ ، وذكر قصصاً متعددةً ومتعاطفاتٍ كثيرةً ، فإن بينهما ستًّا وعشرين آية ، فلا خلافَ في صحَّةِ نحو هـٰذا .

تقول في الكلام : (ذهبت إلىٰ السُّوقِ فاشتريت من البقالِ فاكهةً وخضراواتٍ وبيضاً ، ومن البزازِ قماشاً وقميصاً ، ومن المكتبةِ كتابين ودفتراً ، ثم عُدت) فتعطف الفعل (عدت) علىٰ (ذهبت) في أول

العبارة علىٰ ما بينهما من متعاطفاتٍ متعددةٍ مختلفةٍ .

أما لماذا فعل ذٰلك في آيةِ الوضوءِ ، فإن الغرضَ إرادةُ الترتيبِ في الوضوء ، فإنه يجب أن تكون أعمالُ الوضوءِ مرتبةً بحسب ما ذكره القرآن الكريم .

* * *



لماذا قال تعالىٰ في المائدة: ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٦] ، وقال في السورة نفسها في الآية [٦٨] : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ؟

الجوابُ

إن الآية الأولىٰ قالها ربُّنا في قوم موسىٰ ؛ الذين نكلوا عن قتال الجبارين ، وقالوا : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [٢٤ ـ ٢٦] .

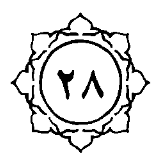
وقوم موسىٰ ليسوا كافرين ، وإنما هم فاسقون لمخالفةِ أمرِ اللهِ في القتالِ ، ثم إن هٰذا الوصفَ مجانسٌ لما وصفهم به موسىٰ عليه السلام بقوله : ﴿ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ فقال له ربُّه : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

وأما الآية الثانية فهي خطابٌ لرسوله محمدٍ ﷺ بخصوص أهل

الكتاب الذين لم يؤمنوا به ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ .

وهٰؤلاء كافرون ، فإنهم لم يؤمنوا برسول ٱلله ، وقد قال ٱلله في هٰذه الآية : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ ﴾ فذكر أنه يزيدهم ما أُنزل إليه طغياناً وكفراً ، فقال فيهم : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ المائدةِ: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة : ٢٧] .

وقال في سورةِ الأحقافِ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ﴾ [١٦] .

سؤالٌ

عدّىٰ الفعل (تقبل) في آيةِ المائدةِ بـ : (من) فقال : ﴿ فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ ... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ، وعدّىٰ الفعلَ في آيةِ الأحقافِ بـ : (عن) فقال : ﴿ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ ﴾ فما السَّبب ؟

الجوابُ

إن تعديةَ الفعلِ (تقبل) بـ : (من) تدل علىٰ الاهتمامِ أو العنايةِ بالذاتِ أو الجهة التي يتقبل منها .

وتعديته بـ : (عن) تدل علىٰ الاهتمامِ والعنايةِ بتقبُّلِ العملِ الصادر عنها ، فإذا كانتِ العناية والاهتمام بالذات أو الجهة التي يتقبل منها عدّاه

بـ : (من) ، وذٰلك نحو قوله : ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ ، وقـــولـــه : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٧] ، وقوله : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ [آل عمران : ٣٥] .

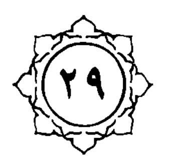
أما إذا كان محطُّ العنايةِ والاهتمامِ علىٰ العملِ وقبوله فإنه يعدّيه بـ : (عن) ، وذٰلك نحو قوله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي : نتقبل العملَ الصادرَ عنهم .

وحيث عُدِّي الفعل (تقبل) بـ : (من) لم يذكر له مفعولاً ، أو هو يبنيه للمجهولِ ؛ مما يدلُّ علىٰ الاهتمامِ بالذات أو الجهة التي يتقبل منها .

فإذا عدَّاه بـ : (عن) ذكر العمل كما في الآية المذكورة ، وهي الآيةُ الوحيدةُ في القرآن الكريم .

فدلَّ علىٰ أن مناطَ الاهتمامِ بالعملِ مع تعديةِ الفعلِ بـ : (عن) ، ومناطَ الاهتمامِ بالذاتِ أو الجهة مع تعديته بـ : (من) ، وٱلله أعلم .

* * *



قال تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : ١٧] .

وقال في سورة يونس : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ ﴾ [يونس : ١٠٧] .

سؤالٌ

لماذا اختلف التعقيب في الآيتين ، فقال في آية الأنعام : ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، وقال في آية يونس : ﴿ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ ﴾ ؟

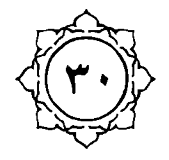
الجوابُ

إن آية الأنعام في افتراض مسِّ الخيرِ ، فقد قال : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ ، وأما آية يونسَ فهي في افتراض إرادةِ الخيرِ وليس المسَّ ، فقد قال : ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ ، والإرادة من غيرِ ٱلله قد لا تتحقق ؛ لأنه قد يحول بينها وبين وقوعها حائلٌ ، وأما إرادته سبحانه فلا رادَّ لها .

فاختلف التَّعقيبان بحسب ما يقتضيه المقام .

ألا ترىٰ أنه لما اتفق الافتراضان في مسِّ الضُّر اتفق الجوابان ، فقد قال في كلٍّ منهما : ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ ؟ ولما اختلف الافتراضان كان الجواب بحسب ما يقتضيه كلُّ افتراضٍ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الأنعام: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ٥١] .

وقال في سورةِ الأنعامِ أيضاً : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ [الأنعام : ٧٠] .

وقال في سورةِ السَّجدةِ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة : ٣ ـ ٤] .

سؤالٌ

لماذا قال تعالىٰ في آيتي الأنعام : ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ ، و : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ فنفىٰ بـ : (ليس) .

وقال في آيةِ السَّجدةِ : ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ فنفىٰ

بـ : (ما) ، وجاء معها بـ : (من) ؟

الجوابُ

إن النَّفي في آيةِ السَّجدةِ أقوىٰ منه في آيتي الأنعامِ ؛ ذٰلك أن آيتي الأنعامِ من الجمل الفعلية ، فهي مبدوءةٌ بـ : (ليس) . و(ليس) فعل .

وأما آيةُ السَّجدةِ فهي جملةٌ اسميةٌ منفيةٌ بـ : (ما) ، ومعلومٌ أن الجملَ الاسميةَ أقوىٰ من الفعلية ، و(ما) أقوىٰ من (ليس)[1] .

هـٰذا علاوةً علىٰ المجيءِ مع ذٰلك بـ : (من) الاستغراقية التي تُفيد نفي الجنسِ وتُفيد التوكيد مع ذٰلك ، فهي تُفيد نفي الولي والشَّفيع علىٰ سبيلِ الاستغراقِ .

وأما سبب ذٰلك ـ واللهُ أعلم ـ فإن الكلام في آيتي الأنعامِ علىٰ أصنافٍ خاصةٍ من الناسِ .

فإن الإنذار في الآيةِ الأولىٰ للذين يخافون أن يحشروا إلىٰ ربهم علىٰ هـٰذه الحالةِ ، وهناك غيرهم كثيرٌ من غيرِ هـٰذا الصِّنفِ ، فإن هناك مَن لا يؤمن أصلاً باليومِ الآخر ، ولا يخاف الحشر ، وهناك أصنافٌ آخرون غير هـٰؤلاء .

وأما الآية الثانية فإن التَّذكير فيها لنفي مخافةِ أن تؤخذ بجريرتها وتُسلم بذنبها وتفضح به ، وذكر من حالة هـٰذا الصِّنف بقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) انظر : معاني النحو (١ / ٢٧٢) وما بعدها .

ﵟٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَﵞ [٧٠] .

وأما آيةُ السجدةِ فالخطاب لعموم مَن يصحُّ خطابه من الثقلين ، لا يخصُّ صنفاً دون صنفٍ ولا واحداً دون آخر ، وإنما هو خطابٌ عامٌّ يعم الجميع ، فقد قال : ﵟٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚﵞ فلم يذكر صفةً معينةً ، ولا صنفاً خاصًّا .

فلما عمَّ ذٰلك الجميع احتاج إلىٰ التوكيدِ ولا شك ، فإنه جارٍ في العادةِ أن يكون للشخص وليٌّ واحدٌ ، أو أن يكون لمجموعةٍ من الناس وليٌّ واحدٌ ، أما ألاَّ يكون للخلق جميعاً إلا وليٌّ واحدٌ وليس لأحدٍ منهم وليٌّ غيره ، فهـٰذا يحتاج إلىٰ التوكيد ، فأكده بالجملةِ الاسميةِ و(من) الاستغراقية .

هـٰذا أمرٌ .

والأمر الآخر أنه لم يذكر في آيتي الأنعام شيئاً من صفاتِ اللهِ ، وإنما ذكر اسمه العلم في آيةٍ ، فقال : ﵟلَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞﵞ ، وأعاد الضَّمير علىٰ الربِّ في الآيةِ الأخرىٰ ، فقال : ﵟلَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞﵞ .

وأما في آيةِ السَّجدةِ فذكر له صفاتٍ عظيمةً ، فقال : ﵟٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖﵞ [٤] .

وقال : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [٥] .

وقال : ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [٦ ـ ٧] .

ويستمرُّ في ذكرِ صفاته العظيمة وقدرته التي لا تُحدُّ .

فناسب ذٰلك أن يؤكد أنه ليس للخلق من دونه وليٌّ ، ولا من دونِ رضاه شفيع ، وإنما هو الولي الأوحد للخلقِ أجمعين .

قد تقول : ولٰكنه ذكر من صفاتِ المعصيةِ والضَّلالِ في آيتي الأنعام ما لم يذكره في آية السجدةِ ، أفلا يقتضي ذٰلك توكيد نفي الوليِّ والشفيعِ فيهما ؟

والجواب : أن ليس الأمر كما توهمت ، بل لقد ذكر في سياقِ آيةِ السجدةِ من المعصية والكفر ما لم يذكر في آيتي الأنعامِ .

فقد قال في آيةِ الأنعامِ [٥١] : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ .

فلم يذكر لهم معصيةً ، وإنما قال عنهم : إنهم يخافون أن يحشروا إلىٰ ربهم في هٰذه الحالِ ، ومعنىٰ ذٰلك أنهم مقرُّون بالحشر ، معترفون به ، يخافون ربهم ويخافون أن يحشروا ، وليس لهم من دون ٱلله وليٌّ ولا شفيعٌ ، وهٰذا ليس معصيةً ولا ذنباً .

وأما آيةُ الأنعامِ الأخرىٰ فإنه قال فيها : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ

﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي : اتركهم ، ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ : أي بالقرآنِ مخافةَ أن تؤخذ نفسٌ بجريرتها وتجزىٰ بكسبها ، ولم يذكر لها ذنباً ، وأما الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ، فأمر بتركهم .

وأما آية السجدةِ فإنها في سياقِ من ينسب إلىٰ رسولِ ٱلله ﷺ الكذبَ وافتراء القرآن وفيمن ينكر الحشر والمعاد ، فقال : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فنسبوا إليه ﷺ افتراءَ القرآنِ أي كذبه علىٰ ٱلله ، وقال عنهم : ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [١٠] .

فهم كذبوا الرسول ﷺ وأنكروا الحشر والمعاد ، ولا شكَّ أن هـٰذا أكبر مما ذُكر في آيتي الأنعامِ ، فاقتضىٰ السِّياق توكيد نفي الوليِّ والشفيعِ من دون ٱلله ، وطاعته ورضاه من هـٰذه الجهة أيضاً ، فاقتضىٰ توكيد ذٰلك في آيةِ السجدةِ من كلِّ وجهِ ، وٱلله أعلم .

* * *



قال تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٦] .

سؤالٌ

ما سرُّ ترتيبِ الأنبياءِ في هـٰذه الآياتِ ؟

الجوابُ

ربنا أعلم بسرِّ ترتيبِ كلامِه ، ولـٰكن هناك أكثرُ من ظاهرةٍ في ترتيب هـٰؤلاء الأنبياءِ سلام ٱلله عليهم ، فنحن نلاحظ نسقاً منتظماً في هـٰذا الترتيبِ ، وهو أنه يذكر ثلاثة أنبياء ثم يعود إلىٰ مَن هو أقدم من المذكورين .

ثم يذكر ثلاثة أنبياءٍ آخرين ويعود بعدهم إلىٰ مَن هو أقدم ، وهـٰذا هو الأمر الظاهر في هـٰذا الترتيبِ .

١ ـ فقد ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ثم ذكر بعدهم مَن هو أقدم منهم جميعاً ، وهو نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

٢ ـ ثم ذكر بعد ذٰلك : داودَ وسليمانَ وأيوبَ ، ثم ذكر بعدهم مَن هم أقدم منهم وهم : يوسف وموسىٰ وهارون .

٣ ـ ثم ذكر بعد ذٰلك : زكريّا ويحيىٰ وعيسىٰ ، ثم ذكر بعدهم : إلياسَ وهو أقدم منهم .

٤ ـ ثم ذكر إسماعيلَ واليسعَ ويونسَ ، ثم ذكر بعدهم : لوطاً وهو أقدم منهم .

هـٰذا من ناحيةٍ .

ومن ناحية أخرىٰ : إن هناك علاقةً ما تربط بين المذكورين ، إضافةً إلىٰ علاقةِ النبوةِ التي تجمع بين الجميعِ ، وإيضاحُ ذٰلك :

١ ـ أن إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ تربط بينهم علاقةُ البنوةِ ، فإسحاق ابن إبراهيم ، ويعقوب ابن إسحاق .

٢ ـ وأن داود وسليمان تربط بينهما علاقة البنوة والملك ، فسليمان ابن داود ، وكانا ملكين .

٣ ـ وأن سليمان وأيوب كلاهما قال ٱلله تعالىٰ فيهما : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [صٓ : ٣٠] ، أولهما : الغني الشاكر وهو سليمان ،

وثانيهما : الفقير الصابر ، والشُّكر والصَّبر جِماع الإيمانِ كما قيل ، فإن الإيمان نصفه صبرٌ ونصفه شكرٌ ، وقد جمع بينهما في سورةِ (صٓ) .

٤ - أيوب ويوسف : كلاهما أُنعِمَ عليه بعد الابتلاء ، وأصابه الرخاء بعد الشِّدةِ .

٥ - يوسف وموسىٰ : كلاهما رسولٌ ، ولم يذكر القرآن بينهما اسمَ رسولٍ فيما أعلم ، وقد قال موسىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ [غافر : ٣٤] .

٦ - موسىٰ وهارون يجمع بينهما الأخوةُ والرسالةُ .

٧ - زكريا ويحيىٰ : يجمعُ بينهما البنوةُ فيحيىٰ ابن زكريا .

٨ - يحيىٰ وعيسىٰ : كلاهما مستغربُ الولادةِ .

الأول : من أبوين لا ينجبان أحدهما شيخٌ فانٍ ، والآخر أمٌّ عاقرٌ ، وعيسىٰ من أمٍّ بلا أبٍ .

٩ - أن عيسىٰ خاتمة النسبِ من ولد إسحاقَ إذ ليس له أبٌ ، والمذكورون بعد عيسىٰ سلسلةٌ أخرىٰ ، ومن ذرية أخرىٰ ليست من ذريةِ إسحاقَ ، فكان عيسىٰ الحد الفاصل بين السلسلتين .

١٠ - فقد ذكر أن إلياس من ولدِ إسماعيلَ وليس من ذريةِ إسحاقَ .

١١ ـ وإسماعيلُ أخو إسحاقَ ، وهو ابن إبراهيمَ من هاجر عليهم السلام .

١٢ ـ اليسع صاحبُ إلياسَ ، وحيث ورد ذكر اليسع في القرآن ، يسبقه بذكر إسماعيلَ .

١٣ ـ يونسُ ولوطٌ كلاهما ليس من ذريةِ إبراهيمَ ، وكلاهما خرج يحمل همَّ الدعوة إلىٰ ٱلله .

فإن يونس خرج مُغاضباً قومه ، وظنَّ أن لن يضيق ٱلله عليه ، فخرج يحمل همَّ الدعوة إلىٰ ٱلله .

وإن لوطاً خرج مهاجراً إلىٰ ربه ، كما قال تعالىٰ فيه : ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ﴾ [العنكبوت : ٢٦] .

وجمع بينهما في سورة الصَّافاتِ .

فبدأت زمر الأنبياءِ بالذاهبِ إلىٰ ربِّه وهو سيدنا إبراهيم ، ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات : ٩٩] . وخُتمت بالمهاجر إلىٰ ربِّه سيدنا لوط .

قد تقول : لِمَ بدأ بسيدنا إبراهيمَ ، ولـم يبدأ بسيدنا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟

والجواب : إن الكلام والسياق في سيدنا إبراهيم ، فإن الآياتِ تبدأ بقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً . . . وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا

كَوْكَبًا . . . فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي . . . فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ . . . ﴾ .

ويستمر الكلام علىٰ سيدنا إبراهيمَ من الآية (٧٤) إلىٰ الآية (٨٣) ، فكان ذٰلك هو المناسب .

وقد **أُثير سؤالٌ آخرُ في هٰذا السّياق** : وهو أنه قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ فلِمَ لَم يقل : (وأزواجهم) ؟

والجواب : إن السياق في ذكرِ الأنبياءِ ، والنِّساءُ لسن كذٰلك ، فلا يناسب ذكر الأزواجِ .

* * *



في الآياتِ السَّابقةِ وهي قوله تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام : ٨٣ ـ ٨٦] .

سؤالٌ

لماذا ختم الآيات بما ختم ، فقال في مجموعةٍ من الأنبياءِ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ، وقالَ في قسمٍ آخرَ : ﴿ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ، وقال في الآخرين : ﴿ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ؟

الجوابُ

إن خاتمةَ كلِّ آيةٍ مناسبةٌ لمن ذكر فيها من الأنبياءِ ، وإن كانت كلُّ فاصلةٍ تصح علىٰ جميع الأنبياءِ .

فقوله تعالىٰ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا

هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ذكر فيه إسحاقَ ويعقوبَ ، وقد أنعم ٱلله عليهما بالهدايةِ ، فقال : ﴿ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ ويعقوبُ أنعم ٱلله عليه بلقب (إسرائيل) ، وقيل : معناه في لسانهم : صفوة ٱلله ، وقيل : عبد ٱلله ، وقيل : رجل اللهِ ، وقيل غير ذٰلك[1] .

وأنعم عليه بعد فَقْدِ ولده بأنه أعاد إليه ولده ، وجعله عزيز مصرَ ، ورفعه ابنه علىٰ العرشِ ، وجعل أولاده أنبياء وهم الأسباط ، وذريته من بعده ينتسبون إليه اعتزازاً به فيقال : (بنو إسرائيل) .

وداود صار قائداً وصار ملكاً ، وسليمان ملكٌ ، وهب ٱلله له مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وأيوب أغناه ٱلله بعد الابتلاءِ ، وآتاه أهله ومثلهم معهم ، وآتاه مالاً وفيراً ، وموسىٰ وهارون أكرمهما ٱلله بالرسالةِ والآياتِ العظيمةِ ، والنصر علىٰ فرعون الذي أغرقه ٱلله وجنوده في اليمِّ في آيةٍ عظيمةٍ من آياتِ ٱلله .

فكلاًّ جزاه بإحسانه ، فناسب ذٰلك قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وأما قوله : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ ، فإن زكريّا قتل بعد قتل ولده ، ويحيىٰ قتل ، وعيسىٰ أُريد قتله فرفعه ٱلله إليه ، فلا يناسب ذٰلك أن يقول فيهم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ؛ لأن

---

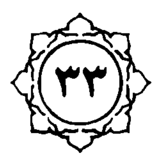
(١) انظر : الكشاف (١ / ٢١٢) ، البحر المحيط (١ / ١٧٣) ، روح المعاني (١ / ٢٤١) .

معناه أنه يجازي المحسنين بالقتلِ والخوفِ ومحاولةِ القتلِ .

وأما إسماعيلُ واليسعُ ويونسُ ولوطٌ فقد أكرمهم ٱلله بالرسالةِ والتفضيلِ علىٰ عالمي زمانهم ، ولم يعطهم ما أعطىٰ الأولين من الملكِ ونحوه .

ولم يصبهم ما أصاب مَن ذكرهم بعد الأولين من القتلِ والخوفِ ، فذكر أنه فضَّلهم علىٰ العالمين ، وهو أعلىٰ وسامٍ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

سؤالٌ

ما هٰذه الهاء في (اقتده) ، وما دلالتها ؟

الجوابُ

هٰذه الهاء اسمها هاءُ السَّكتِ ، ويؤتىٰ بها عند الوقفِ ، وفي مثل هٰذهِ المواضعِ يكون الإتيان بها جائزاً ، وقد جاءت هنا لغرضٍ لطيفٍ ، فقد جاءت بعد ذكر عددٍ من الأنبياءِ منهم إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسىٰ ، وهارون ، وزكريّا ، ويحيىٰ ، وعيسىٰ ، وغيرهم .

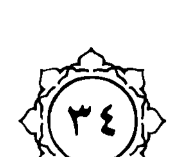
ثم قال بعد ذٰلك : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [٩٠] .

أي : اقتدِ بهدىٰ هٰؤلاءِ حصراً ، وقِفْ عنده ، ولا تطلب هدىً في غير هداهم .

أي : اقتدِ بهدىٰ هـٰؤلاءِ حصراً ، وقِفْ عنده ، ولا تطلب هدىً في غير هداهم .

وقدم الجار والمجرور ؛ للدلالةِ علىٰ القصرِ ، وهو من لطيفِ البيانِ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الأنعامِ: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ ﴾ [الأنعام : ١٣٠] .

وقال في سورةِ الزُّمرِ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الزمر : ٧١] .

سؤالٌ

لماذا قال في الأنعامِ : ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾ وقال في الزُّمرِ : ﴿ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ ﴾ ؟

الجوابُ

إن سورةَ الأنعامِ جرىٰ فيها ذكرُ قصصِ الماضين في مواضع كثيرة منها ، وفيها من التحذير ومواضع العبرةِ ما يكفي للاتعاظِ .

فمن ذٰلك قولُه تعالىٰ : ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي

ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [٦] .

وقولُه : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [١٠ ـ ١١] .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [٣٤] .

أي : من أخبارِهم وقصصِهم .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [٤٢ ـ ٤٥] .

ثم ذكر قصةَ إبراهيم وحيرته حتىٰ اهتدىٰ إلىٰ خالقِه في عشر آياتٍ ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً . . . ﴾ [٧٤ ـ ٨٣] .

وذكر مجموعةً من الأنبياءِ قبل وبعد إبراهيمَ ، فقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ . . . ﴾ .

إلىٰ أن قال : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ . . . ﴾ [٨٤ ـ ٩٠] .

ثم ذكر إشاراتٍ أخرىٰ إلىٰ أممٍ ورسلٍ سابقين .

فناسب ذكر القصصِ التي تستدعي الحذرَ والموعظةَ قولُه تعالىٰ : ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي ﴾ .

وأما في سورةِ الزُّمرِ فلم يأتِ شيءٌ من ذٰلك ، ولم تأتِ إشارةٌ إلىٰ الأممِ السابقةِ غير قوله : ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢٥ ـ ٢٦] .

ثم إنه ورد في سورةِ الزُّمرِ من ذكرِ الكتابِ وما يقتضي تلاوته الكثير ، فقد قال في أول سورةِ الزُّمرِ : ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [١ ـ ٢] .

والكتابُ إنما أُنزل ليُتلىٰ ويُتبع ما فيه .

وقال : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [٢٣] .

وذٰلك عند تلاوتِه أو سماعِ تلاوتِه .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [٢٧ ـ ٢٨] . وذٰلك يتبيَّنُ من تلاوتِه .

وقال : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ

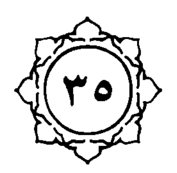
وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [٤١] . وإنما أنزله ليتلوه عباده ، ويعملوا بما فيه ، ويتعظوا .

وقال : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [٥٥] ، وذلك يكون بتلاوتِه ، والاطلاع على ما فيه .

حتىٰ إنه ذكر الكتاب في مشهدٍ من مشاهدِ القيامةِ ، فقال : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ ، والكتاب إنما جيء به ليَطلع عليه مَن يطَّلع ، وذلك إنما يكون بتلاوةِ ما فيه .

ومما قيل في ذلك الكتاب : إنه صحائفُ الأعمالِ ، وقيل : إنه اللوحُ المحفوظُ ، وقيل غير ذلك ، فناسب ذكرُ التلاوةِ في الزمرِ والقصُّ في الأنعامِ ، والله أعلم .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الأعرافِ : ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف : ١٨] .

وقال في سورةِ (صٓ) : ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٤ ـ ٨٥] .

سؤالٌ

لماذا قدَّم في آيةِ الأعرافِ مَن تبعه علىٰ ملءِ جهنمَ ، فقال : ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وقدَّم ملء جهنمَ علىٰ مَن تبعه في آية (صٓ) فقال : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ؟

الجوابُ

إن كلتا الآيتين في قصةِ آدم وإبليس في السورتين ، وقد تقدَّم قبل هٰذه القصة في سورة (صٓ) الكلام علىٰ جهنمَ وعذابها ، وذٰلك من قوله : ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ . . . ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ [٥٥ ـ ٦٤] .

فلما تقدَّم الكلامُ علىٰ جهنمَ قدَّم ما يتعلق بها وهو ملءُ جهنمَ .

وأما في سورةِ الأعرافِ ، فقد تأخر ذكرُ جهنمَ وعذابها عن هـٰذه القصة ، فلما تأخر ذكرُ جهنمَ أخَّر ما يتعلق بها في القصة .

هـٰذا أمر ، والأمر الآخر أنه تقدَّم علىٰ القصةِ في الأعرافِ ذكرُ مَن تبع إبليس ، ممن أهلكهم ٱلله من أهلِ القُرىٰ ، فقال : ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [٤ ـ ٥] .

وتَقدَّمها عتابُ ربِّنا لأهلِ الأرضِ لقلَّةِ شكرِهم ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [١٠] .

فكأنه صدَّق عليهم إبليس ظنه ، فاتبعوه حين قال في قصَّةِ آدم في هـٰذه السورة : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [١٧] .

فناسبَ تقديمُ مَن اتبعوه في الأعرافِ من هـٰذه الناحيةِ أيضاً .

هـٰذا إضافةً إلىٰ أن إبليس ذكر في الأعرافِ ما سيحتال لذريةِ آدمَ ؛ ليتبعوه أكثر مما ذكره في (صٓ) ، فقد قال :

١ ـ ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ .

٢ ـ ﴿ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ .

٣ ـ ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ .

٤ ـ ﴿ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ .

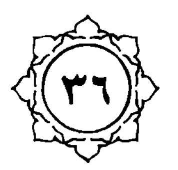
٥ ـ ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ .

٦ ـ ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] .

في حين قال في (صٓ) :

ـ ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [٨٢ ـ ٨٣] ،
فلما أفاضَ فيما سيفعله ، ويحتال لذريةِ آدمَ في الأعرافِ ليتبعوه ، ناسبَ أن يقدم مَن تبعه من هٰذه الذُّريةِ ، بخلاف ما في (صٓ) التي لم تكن فيها مثلُ هٰذه المناسبةِ ، فناسب كلٌّ تعبيرٍ مكانه من كلِّ وجهٍ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الأعرافِ: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف : ٥٥ ـ ٥٦] .

وقال فيها : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] .

وقال في سورةِ الأنعامِ : ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام : ٦٣ ـ ٦٤] .

سؤالٌ

لماذا ذكر الخوف في آيتي الأعرافِ ، فقال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ﴾ وقال في الآيةِ الثانية : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ والخيفةُ هي الخوفُ ، ولم يذكرِ الخوفَ في آيةِ الأنعامِ ، وإنما قال : ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ والخفيةُ نقيضُ الجهرِ ؟

الجوابُ

إن الدعاءَ والذكر المذكورين في آيتي الأعرافِ ، إنما هما في مقامِ

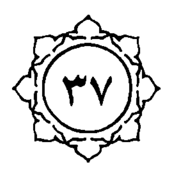
العبادةِ ، والخوف المذكور فيهما إنما هو الخوفُ من اللهِ دعاءً وذكراً .

وأما آيةُ الأنعامِ فهي في مقامِ الخوفِ مما قد يحيطُ بالناسِ في ظلماتِ البرِّ والبحرِ ، فلو ذكر الخوف لانصرف إلىٰ هـٰذه الأمورِ المخوفةِ ، ولم ينصرف إلىٰ الخوفِ من ٱلله .

والخوفُ في مثلِ هـٰذه المواطن مما يعتري النفس البشرية ، وهـٰذا ظاهرٌ معلومٌ ، وقد أوضحته الآيةُ وسياقها ، فقد ذكرَ تضرعهم وتذللهم إليه سبحانه قائلين : ﴿ لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ وطلبُ النجاةِ إنما يكون من الأمورِ المخوفةِ .

وقال بعد ذٰلك : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾ فسمَّىٰ ذٰلك كرباً ، فاتضح الفرق بين الموضعين فناسب كلٌّ تعبيرٍ موضعَه .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الأعرافِ في قصَّةِ نوحٍ : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٤] .

وقال في سورةِ يونسَ في قصة نوحٍ : ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ [يونس : ٧٣] .

سؤالٌ

لماذا قال في سورةِ الأعرافِ : ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ وقال في سورة يونس : ﴿ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾[1] ؟

الجوابُ

من أوجهٍ منها :

١ ـ أن (الذين) اسمٌ موصولٌ مختصٌّ ، وهو يخصُّ جماعةَ

---

(١) أما السؤال عن نجينا وأنجيناه فقد ذكرناه في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) (ص٧٢) .

الذكورِ العقلاءِ ، ولا يُطلق علىٰ المفردِ أو المثنىٰ .

وأما (من) فإنه اسمٌ موصولٌ مشتركٌ ، يطلق علىٰ المفردِ والمثنىٰ والجمع المذكرِ والمؤنثِ .

وأن سياق القصةِ في سورةِ يونسَ فيه إلماحٌ إلىٰ أن قومه كبر عليهم تذكيره لهم بآياتِ ربهم ، وبقاؤه بينهم يبلِّغ دعوةَ ربِّه ، وأن نوحاً تحدّاهم بأن يجمعوا أمرهم ، ويسعوا في إهلاكه ، وألا يمهلوه ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [٧١] .

وليس الأمرُ في الأعرافِ كذٰلك ، وإنما هو تبليغٌ ودعوةٌ ، وقصارىٰ ما قال فيه الملأ من قومه : ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ، فردَّ عليهم قائلاً : ﴿ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ .

فلما كانتِ المواجهةُ في يونسَ أشدَّ ، وأنه تحداهم أن يجمعوا أمرهم ، ويسعوا في إهلاكه ، وألا يُمهلوه ، كان ذٰلك مدعاةً إلىٰ قلةِ من يؤمن له وأن يخاف من يخاف في مثل هٰذا الظرف العصيب .

فقال في هٰذا السياقِ : ﴿ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ ﴾ وهٰذا يحتمل في اللغةِ أن يكون معه شخصٌ أو شخصان ، وليس فيه تنصيصٌ علىٰ الجمعِ .

وأما في الأعرافِ فإن قوله : ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ تنصيصٌ علىٰ أن معه جماعة من المؤمنين له ، وليس شخصاً واحداً أو شخصين قطعاً ،

فناسبت حالةُ التحدي والمواجهةِ الشديدةِ أن يقول : (من) التي ليس فيها تنصيصٌ علىٰ الجمع .

وفي الحالةِ الأخرىٰ أن يقول : (الذين) التي هي تنصيصٌ علىٰ أن المؤمنين له جماعةٌ ، وليس واحداً ؛ ذٰلك أن السياق لا يستدعي مثل حالةِ الخوفِ تلك ، ولا يستدعي قلة المؤمنين علىٰ النحوِ الذي في يونس .

٢ ـ إن القصةَ في الأعرافِ أطولُ مما في يونس ، فإنها في الأعرافِ ستُّ آياتٍ ، من الآيةِ التاسعة والخمسين إلىٰ الآيةِ الرابعةِ والستين ، وهي في يونس ثلاثُ آياتٍ من الآيةِ الحادية والسبعين إلىٰ الآيةِ الثالثةِ والسبعين .

وإن كلمة (الذين) أطولُ من (من) فناسب في مقامِ الإطالةِ أن يأتي بأطولِ الكلمتينِ .

٣ ـ وعلاوةً علىٰ ذٰلك فإن كلمة (من) في يونسَ أكثرُ مما في الأعرافِ .

وإن كلمة (الذين) في الأعرافِ أكثر مما في يونسَ ، فإن كلمةَ (من) وردت في يونسَ (٢٤) أربعاً وعشرين مرةً ، ووردت في الأعرافِ (١٨) ثماني عشر مرةً .

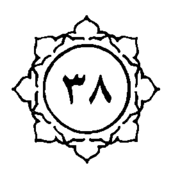
وأن كلمة (الذين) وردت في الأعرافِ (٤٧) سبعاً وأربعين مرةً ، ووردت في يونسَ (٢٨) ثمانياً وعشرين مرةً .

فناسب كلٌّ تعبيرٍ موضعَه من حيث السِّمة التَّعبيرية لكل سورةٍ[١] .

فاتضح أن كلَّ تعبيرٍ مناسب لموضعه الذي ورد فيه من كلِّ وجهٍ .

* * *

(١) انظر : موضوع (السمة التعبيرية للسياق) في كتابنا (التعبير القرآني) .



قال تعالىٰ في سورةِ الأعرافِ : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٢٣] .

وقال في سورةِ طـٰه [٧١] ، وفي سورةِ الشعراءِ [٤٩] : ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ .

سؤالٌ

لماذا قال في سورةِ الأعرافِ : ﴿ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ وقال في سورتي طـٰه ، والشعراء : ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾ ؟

الجوابُ

إن معنىٰ : ﴿ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ أي بٱلله تعالىٰ .

و : ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ ﴾ أي : لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، والمعنىٰ : صدَّقتم وأقررتم له ، والسياقُ يوضحُ ذلكَ .

قال تعالىٰ في الأعرافِ : ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ﴾ .

وقال في سورةِ طٰه : ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ ﴾ ، فقوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ ﴾ يعني موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

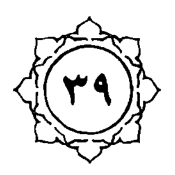
وقال في سورةِ الشعراءِ : ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ . وهو نحو ما مر في طٰه .

وإذا رأيت الإيمانَ معدًّىٰ باللامِ ، فاعلم أنه لغيرِ اللهِ فإنه لا يعديه مع ٱلله إلا بالباءِ نحو قوله : ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة : ٤] وقوله : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وفي القرآنِ عدَّىٰ (آمن) باللامِ مع الأشخاصِ غالباً ، وذٰلك نحو قوله : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : ٥٥] ، وقوله : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ [التوبة : ٩٤] ، وقوله : ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ٦١] .

وربما استعمله مع غيرِ الأشخاصِ نادراً ، وذٰلك نحو قوله : ﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ [الإسراء : ٩٣] .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الأعرافِ : ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الأعراف : ١٤٤ ـ ١٤٥] .

سؤالٌ

لماذا قال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ ، وقال في الآيةِ التاليةِ لها : ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ فذكر القوةَ ولم يذكرها في الآيةِ الأولىٰ ؟

الجوابُ

إن ذٰلك لعدةِ أمورٍ منها :

١ ـ أن الآيةَ الأولىٰ في الإيتاءِ ، والثانيةَ في الإيتاءِ والتبليغِ ، فقد أمره في الآيةِ الثانيةِ أن يأخذَ ما آتاه بقوةٍ ، ويُبلغه قومه ، فقد قال له فيها : ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ﴾ ، وهـٰذا أمرٌ بالتبليغِ ، والتبليغُ يحتاجُ إلىٰ قوةٍ وجهدٍ وعزيمةٍ .

٢ ـ إنه طلب من قومه في الآيةِ الثانيةِ أن يأخذوا بأحسنها ، فإنه لم

يقل : (وأمر قومك يأخذوا بها) بل قال : ﴿ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ وهو أقوىٰ من عمومِ الأخذِ وآكد ، ذٰلك أن فيما آتاه حسناً وأحسن ، فأمرهم أن يأخذوا بالأحسنِ ، فإذا كان قومه مأمورين بما هو أقوىٰ وآكد ، ناسب أن يكون هو كذٰلك ، فكان مأموراً أن يأخذها بقوة .

٣ ـ إن في الآيةِ الثانيةِ تفصيلاً ليس في الآيةِ الأولىٰ .

فإنه قال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ ، فقال : ﴿ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ علىٰ الإجمالِ .

وفصَّل في الآيةِ الثانيةِ ما آتاه ، فقال : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ .

وأجمل في الطلبِ في الآيةِ الأولىٰ ، فقال : ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ ، وفصَّل في الآيةِ الثانيةِ ما أجمله في الآيةِ الأولىٰ من الطَّلبِ ، فقال : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ .

فكما أجمل في ذكرِ ما آتاه في الآيةِ الأولىٰ أجملَ في الأمرِ بأخذها ، وكما فصَّل في ذكرِ ما آتاه في الآيةِ الثانيةِ ، فصَّل وبيَّن في الأمرِ بأخذِه ، فناسبَ الإجمالُ الإجمالَ ، والتفصيلُ التفصيلَ .

٤ ـ ومما حسَّن ذٰلك أيضاً ـ إضافة إلىٰ ما ذكرنا ـ أن الآيةَ الأولىٰ وردت عقبَ إفاقةِ موسىٰ بعدما خرَّ صعقاً ، فقد جاءتِ الآيةُ الأولىٰ عقبَ قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١٤٣] .

والإنسانُ بعدما يفيق من صعقةٍ يصعقها يكون واهنَ القِوىٰ .

وقد ذكر قبل الآيةِ الأولىٰ أكثرُ من أمرٍ يدعو إلىٰ وهنِ القوةِ ، فقد ذكر أنه ﴿ خَرَّ ﴾ أي : قد هوىٰ وسقطَ ، والخرور مدعاةٌ إلىٰ الوهنِ .

وذكر أنه (صعق) أي غشي عليه ، ومعنىٰ (صعق) في اللغةِ : غُشي عليه وذهب عقله[1] ، وأن قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ دليلٌ علىٰ الغشيِّ[2] . والصعقُ مدعاةٌ إلىٰ وهنِ القوىٰ .

فكلٌّ من الخرورِ والصعقِ يدعو إلىٰ الوهنِ فكيف إذا اجتمعا ؟

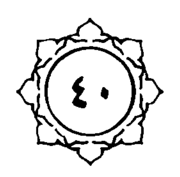
فلم يذكر الأخذ بالقوةِ بعد ذكرِ الإفاقةِ مباشرةً ؛ إذ العادةُ أن يكون الإنسانُ واهناً في مثل هـٰذا الوقت ، فأخره إلىٰ ما بعد ذٰلك في الآيةِ الثانيةِ ، فناسبَ كلُّ تعبيرٍ موضعَه من كلِّ وجهٍ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

---

(١) انظر : لسان العرب (صعق) (١٢ / ٦٦) .

(٢) انظر : لسان العرب (صعق) (١٢ / ٦٧) .



قال تعالىٰ في سورةِ الأنفالِ: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنفال : ٥٢ ـ ٥٤] .

سؤالٌ

١ ـ ما الفرقُ بين الدأبين المذكورين لآلِ فرعونَ في الآيةِ الثانيةِ والخمسين ، والآيةِ الرابعةِ والخمسين ؟

٢ ـ لماذا قال في الآيةِ الثانيةِ والخمسين : ﴿ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ، وقال في الآيةِ الرابعةِ والخمسين : ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ ؟

الجوابُ

١ ـ الدأبُ الأولُ هو مشابهتهم لهم في الكفرِ ، ذلك أنه سبق الآيةَ الأولىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ

وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ . . . ﴾ [٥٠ - ٥٢] .

فالدأبُ الأولُ هو مشابهتهم في الكفرِ والجري علىٰ عادتِهم ، ألا ترىٰ أنه قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ ، ثم قال : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ .

أما الدأبُ الثاني فإنه مشابهتهم لهم في تغييرِ النِّعمِ والأحوالِ ، فقد قال قبلَ الآيةِ الرابعةِ والخمسين : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٥٣] ، ثم قال بعدها : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ .

قد تقول : وما التغييرُ الذي أحدثوه ، فإنهم كفارٌ علىٰ كلِّ حالٍ ، ولم يغيروا شيئاً ؟

فنقول : إنهم كانوا علىٰ حالٍ من الكفرِ ، حتىٰ جاء موسىٰ فدعاهم وأنذرهم ، وجاءهم بالآياتِ الدالةِ علىٰ صدقه ، فكذبوا بها فزادوا علىٰ ما هم عليه تكذيبهم بآياتِ اللهِ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ فعاجلهم العقوبة بالإغراق .

جاء في (البحر المحيط) : « وتغيير آلِ فرعونَ ومشركي مكةَ ، ومَن يجري مجراهم بأن كانوا كفاراً ، ولم تكن لهم حالةٌ مرضيةٌ ، فغيروا تلك الحالة المسخوطة إلىٰ أسخط منها ، من تكذيبِ الرسلِ والمعاندةِ والتخريبِ وقتلِ الأنبياءِ والسعي في إبطالِ آياتِ ٱلله ، فغيَّر ٱلله تعالىٰ

ما كان أنعم عليهم به وعاجلهم ولم يمهلهم »[١] .

وجاء في (الكشاف) : « أي : دأبُ هٰؤلاءِ مثل دأبِ آلِ فرعونَ ، ودأبهم عادتهم وعملهم الذي دأبوا فيه ؛ أي داوموا عليه وواظبوا ، و(كفروا) تفسيرٌ لدأب آل فرعون . . .

﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ فإن قلت : فما كان من تغيير آلِ فرعونَ ومشركي مكة حتىٰ غيَّر ٱللهُ نعمته عليهم ، ولم تكن لهم حالٌ مرضيةٌ فيغيروها إلىٰ حالٍ مسخوطةٍ ؟

قلت : كما تغيرت الحالُ المرضيةُ إلىٰ المسخوطةِ تغيرتِ الحالُ المسخوطةُ إلىٰ أسخط منها .

وأولئكَ كانوا قبل بعثةِ الرسولِ ﷺ إليهم كفرةً عبدةَ أصنامٍ ، فلما بعث إليهم بالآياتِ البيناتِ ، فكذبوه وعادوه ، وتحزبوا عليه في إراقة دمه ، غيروا حالهم إلىٰ أسوأ مما كانت ، فغير ٱلله ما أنعم به عليهم من الإمهالِ وعاجلهم بالعذابِ »[٢] .

٢ ـ وأما الجوابُ عن السؤالِ الثاني فإن كلَّ عقوبةٍ مناسبةٌ للحالةِ التي هم فيها ، فقد قال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ وقال في الأخرىٰ : ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ .

---

(١) البحر المحيط (٤ / ٥٠٧) .
(٢) الكشاف (٢ / ٢٠) .

ذٰلك أن الكفرَ أعمُّ من التكذيبِ بآياتِ ٱلله ، فقد يكون الكفرُ بالتكذيبِ وبغيره ، من نحو عبادةِ غيرِ ٱلله ، والمعتقداتِ الباطلةِ ، وغير ذٰلك من نحو ما أخبر به ربُّنا في قوله : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ﴾ [المائدة : ٧٣] ، وقوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ٧٢] ، وقوله : ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ [المائدة : ١٠٣] .

فالتكذيبُ بآياتِ اللهِ نوعٌ من أنواعِ الكفرِ .

فقال في عقوبةِ الكفرِ : ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ وهو أمر عام يشمل عقوبات الدنيا والآخرة .

وقال في عقوبةِ التكذيبِ بالآياتِ : ﴿ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ ، وهٰذه حالةٌ من حالاتِ الأخذِ بالذنوبِ ، فقد يكون الأخذُ بالذنوبِ بالتعذيبِ والسجنِ والنارِ وغير ذٰلك .

فجعلَ عقوبةَ الكفرِ الذي هو عامٌّ ، الأخذَ بالذنوبِ وهو عامٌّ ، وجعل عقوبةَ التكذيبِ بالآياتِ الذي هو أخصُّ من الكفرِ بالإهلاكِ والإغراقِ ، وهو أخصُّ .

هٰذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرىٰ أن قوله : ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ عقابٌ عامٌّ قد يكون في الدنيا ، وقد يكون في الآخرةِ ، وقد يكون فيهما .

وأما قوله : ﴿ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ فإنه عقابٌ في الدنيا فهو أخصُّ من حيث الوقتُ ، فإن الإهلاكَ والإغراقَ إنما يكونان في

الدنيا وليسا من عقابِ الآخرةِ ، فكانت عقوبةُ الكفرِ أعمَّ من حيث النوع والوقت .

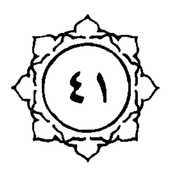
ومن الملاحظ أنه قال في الآيةِ الرابعةِ والخمسين : ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ فذكر الرب وأضافه إلىٰ ضميرهم ، في حين قال في الآية الثانية والخمسين : ﴿ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ذٰلك أنه قبل ذكرِ التكذيبِ بآياتِ ربهم ذكر نعمه عليهم ، فقال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ فناسب ذكرُ الربِّ ؛ لأن الربَّ هو المربي والمنعم ، جاء في (روحِ المعاني) : « وأشير بلفظ الربِّ إلىٰ أن ذٰلك التغييرَ كان بكفر نعمه تعالىٰ لما فيه من الدلالة علىٰ أنه مربيهم المنعم عليهم »[1] .

ثم إنه أضافَ الربَّ إلىٰ ضميرهم ؛ ليبين قبحَ كفرهِم ، فإنهم كفروا بآيات ربهم الذي أنعم عليهم ، فإنه من أقبح كفرِ النعمِ أن تكفر نعمة ربك ؛ الذي رباك وأنعم عليك ، فذٰلك أدل علىٰ قبحِ كفرهم .

هـٰذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرىٰ أنه ذكر مرةً لفظَ الجلالةِ (ٱلله) ، ومرةً ذكرَ الربِّ ؛ ليدل علىٰ أن الرب هو ٱلله وليس شيئاً آخرَ .

* * *

(١) روح المعاني (١٠ / ٢٠) .



قال تعالىٰ في سورةِ يونسَ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس : ١٩] ، وقال في سورةِ هودٍ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ [هود : ١١٠] ، وقال في سورةِ فصلت : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ [فصلت : ٤٥] ، وقال في سورةِ الشورىٰ : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورىٰ : ١٤] .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ الشُّورىٰ : ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ولم يقلْ مثل ذٰلك في بقيةِ الآياتِ ؟

الجوابُ

إن الآياتِ في يونسَ وهودٍ وفصلتْ إنما هي في أمةٍ واحدةٍ ، والقضاءُ يمكن أن يكون بينهم عاجلاً أو آجلاً .

أما آيةُ الشُّورىٰ فهي في أممٍ مختلفةٍ أكثرها هالكٌ ، فلا يمكن القضاء بينهم في الدنيا ، وإنما يقضىٰ بينهم في الآخرةِ ، وهو الأجلُ المسمَّىٰ لذٰلك .

وإيضاحُ ذلك أنه قال في يونسَ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فهي أمةٌ واحدةٌ اختلفت ، والقضاء بينهم ممكنٌ ؛ لأنهم أمةٌ واحدةٌ مختلفةٌ .

وقال في هودٍ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ ، وهٰذه الآية في بني إسرائيل حين اختلفوا في الكتابِ ، والقضاءُ بينهم ممكنٌ في الحياةِ الدنيا ، ونحوها آية فصلت فإنها تطابق آية هود ، قال تعالىٰ في فصلت : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ .

وأما آيةُ الشورىٰ فهي في سياقِ أممٍ مختلفةٍ متعاقبةٍ ، منها أممٌ مندثرةٌ هالكةٌ ، فكيف يكون القضاء بينها في غير اليوم الآخر وهو الأجل المسمىٰ ؟ قال تعالىٰ : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [١٣ ـ ١٤] . فناسب كلُّ تعبيرٍ مكانه .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ يونسَ : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس : ٤٦] .

وقال في سورةِ غافر : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر : ٧٧] .

وقال في سورة الرعد : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] .

سؤال

لماذا رُسمت ﴿ وَإِمَّا ﴾ في آيتي يونسَ وغافرٍ متصلةً ، ورُسمت في آية الرَّعدِ : ﴿ وَإِن مَّا ﴾ منفصلةً مع أنها كلها في هٰذه الآياتِ إنما هي (إنْ) الشرطيةُ مع (ما) الزائدةِ المؤكدةِ ؟

الجواب

إن هٰذا من أمورِ رسمِ المصحفِ ، ورسم المصحفِ لا يُقاس عليه ، ولٰكن مع ذٰلك قد يبدو أن لهٰذا الاختلافِ تعليلاً ، ولا ندري إن كان مقصوداً أم لا .

فنقول : إن السياقَ في آيتي يونسَ وغافرٍ إنما هو في الكلامِ علىٰ الآخرةِ ، والآيتان تذكران الرُّجوعَ إلىٰ ٱلله ، فقد قال في آيةِ يونسَ : ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ وقال في آيةِ غافرَ : ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ ، وهـٰذا الرجوعُ في الآيتين إنما هو في الآخرةِ .

قال تعالىٰ في يونسَ : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [٤٥ ـ ٤٧] .

فقوله : ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ يعني في يومِ القيامةِ ، وهو متصلٌ بما ذكره من أمورِ الآخرةِ ، وواقعٌ فيه .

وقال في غافر : ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [٧٠ ـ ٧٧] .

فالكلامُ كما ترىٰ في سياقِ عذابِ الآخرةِ ، وقد وقعت الآية في هـٰذا السياقِ ، فإن قوله : ﴿ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يعني في الآخرةِ ، وهو متصلٌ بما ذكره من أمورِ الآخرةِ .

وأما السياقُ في الرعدِ فهو في الدنيا ، فقد جاء قبل الآيةِ قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ . . . ﴾ الآية [٣٧ ـ ٤٠] .

وجاء بعدها قولُه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [٤١] .

فقوله : ﴿ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ إنما هو في الآخرةِ ، فهو يذكر أمراً سيقع في الآخرةِ ، والكلامُ إنما هو علىٰ الدنيا بخلافِ آيتي يونسَ وغافرٍ ، فإنهما في سياقِ الآخرةِ .

ففُصِلت (ما) عن (إن) في الرعدِ إشارةً إلىٰ الفصلِ بين الأحداثِ ، فالكلامُ علىٰ الدنيا ، والحسابُ إنما هو في الآخرةِ .

ووصلت (ما) بـ : (إن) في آيتي يونسَ وغافرَ ، إشارةً إلىٰ أن الأحداثَ متصلةٌ ببعضها ، واللهُ أعلمُ .

* * *





قال في سورةِ يونسَ: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١] .

وقال في سورة القمر : ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ [القمر : ٥] .

سؤالٌ

لماذا رُسم الفعل (تغني) في آية يونس بالياءِ ، ورُسم في آيةِ القمرِ من دون ياءٍ أي : (تغن) ؟

الجوابُ

إن رسم المصحف لا يُقاس عليه كما هو معلومٌ ، ومع ذٰلك فإنه يبدو أن هٰذا الاختلاف في الرسمِ له دلالته .

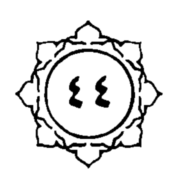
فلقد زاد في آيةِ يونسَ علىٰ ما في القمرِ ، فقد قال في القمرِ : ﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ ، وقال في يونسَ : ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ ﴾ فزاد الآياتِ علىٰ النذرِ فزاد في الرسمِ تبعاً لذٰلك .

ثم إنه عندما تزيد دواعي الإغناءِ ينبغي أن يزيد الإغناءُ ، فلما زادتِ

الدواعي في يونسَ انبغىٰ أن يزيد الإغناءُ .

ولما نقصتِ الدواعي في القمرِ نقص شيءٌ من الحدثِ تبعاً لذٰلك ، فنقص من الرسمِ في القمرِ مناسبةً لنقصِ الدواعي ، واللهُ أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ هودٍ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [هود : ٢٠] .

وقال في سورةِ الشورىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورىٰ : ٣١] .

سؤال

لماذا قال في هودٍ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ فجاء بالفعلِ الماضي ، وقال في سورة الشورىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ ﴾ بأسلوبِ الخطابِ للحاضرِ ؟

الجواب

إن الكلامَ في هودٍ إنما هو في الآخرةِ ، وهو يدور علىٰ أحداثٍ ماضيةٍ كانت في الدنيا ، فقد قال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [١٨] ،

فاقتضىٰ ذكرُ الفعلِ الماضي ، وأما الخطابُ في الشورىٰ فهو في الدُّنيا ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [٣٠] . فاقتضىٰ كل منهما ما ذكر في موضعِهِ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ هودٍ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ [هود : ٤٠] .

السؤالُ الأولُ

ما المقصودُ بـ : (أهلك) أَهُمُ الأهلُ ، أم هو فعلٌ ماضٍ من الإهلاكِ ؟

الجوابُ

إن المقصودَ بـ : (أهلك) هم الأهلُ ، وليس فعلاً ماضياً ، ويدلُّ علىٰ ذٰلك أمورٌ منها :

١ ـ أن الإهلاكَ لم يحصل بعدُ ، وأن المؤمنين لم يركبوا بعد في السفينةِ ، فإنه قال بعدَ هـٰذهِ الآيةِ : ﴿ ۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ ﴾ [٤١] .

٢ ـ لو كان (أهلك) فعلاً ماضياً لكان الاستثناء مفرَّغاً ، أي : إن المستثنىٰ منه غيرُ مذكورٍ ، والاستثناءُ المفرَّغُ إنما يكون في النفي

وشبهه ، ولا يقع في الإثباتِ إلا نادراً ، والفعلُ في الآيةِ مثبتٌ فلا يترجح أنه فعل .

٣ ـ ومما يدلُّ علىٰ أن المقصودَ بـ : (أهلك) هم الأهل ، قوله تعالىٰ في سورة (المؤمنون) : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ [٢٧] فإن الضميرَ في (منهم) يعودُ علىٰ الأهلِ .

٤ ـ لو كان المقصودُ بـ : (أهلك) الفعلَ لكان الناجون جماعتين :

أ ـ مَن سبق عليه القولُ .

ب ـ ومَن آمن .

وهـٰذا يقتضي أن مَن سبقَ عليه القولُ ليسوا ممن آمن ، ومع ذٰلك فقد نجا ، وهـٰذا لا يصحُّ .

٥ ـ المجيء بـ : (علىٰ) مع الفعل (سبق) يدلُّ علىٰ أن المقصود بمن سبق عليه القول أنه معذبٌ ، كقوله تعالىٰ : ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ و : ﴿ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ ﴾ ونحو ذٰلك .

بخلافِ استعماله مع اللامِ فإنه بشرىٰ بالحسنىٰ ، كقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾ [الصافات : ١٧١ ـ ١٧٢] .

السؤال الثاني

قال في هـٰذه الآيةِ ـ آيةِ هودٍ ـ : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ ، وقال في آيةِ (المؤمنون) : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ فذكر في آية (المؤمنون) (منهم) ولم يذكر ذٰلك في آيةِ هودٍ ، فما سبب ذٰلك ؟

الجواب

إن القصة في سورة هود مبنيةٌ علىٰ العمومِ في أكثرِ من جانبٍ من جوانبها ، أما القصةُ في سورةِ (المؤمنون) فمبنية علىٰ الخصوصِ ، ومما يوضح ذٰلك :

١ ـ قوله في هودٍ : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ ، وقوله في (المؤمنون) : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ وما في هودٍ أعمُّ مما في (المؤمنون) فإنه لم يقل (منهم) .

٢ ـ أنه قال في هودٍ : ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ فزاد علىٰ الأهلِ : ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ ولم يذكر ذٰلك في (المؤمنون) .

ولا شكَّ أن ما في هودٍ أعمُّ فإنه زاد علىٰ الأهلِ من آمن .

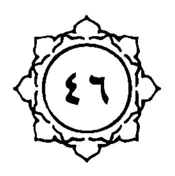
٣ ـ أنه قال في هودٍ : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [٤٣] ، وهـٰذا يفيدُ العمومِ فإنه استغرق نفي العاصمِ إلا مَن رحمَ ٱلله ، وذٰلك أنه نفىٰ بـ : (لا) النافيةِ للجنسِ ، ولم يقلْ مثل ذٰلك في (المؤمنون) .

٤ ـ قال في هودٍ : ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [٤٨] . وقال في (المؤمنون) : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [٢٩] .

فإنه في هودٍ زاد السلام علىٰ البركاتِ ، ولم يذكر ذٰلك في (المؤمنون) ، وقال في هودٍ : ﴿ وَبَرَكَٰتٍ ﴾ وهو جمعُ بركةٍ ، في حين قال في (المؤمنون) : ﴿ مُنزَلًا مُّبَارَكًا ﴾ بالإفراد .

وقال في هودٍ : ﴿ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ ، ولم يقلْ مثل ذلك في (المؤمنون) ، وإنما دعا لنفسه : ﴿ أَنزِلْنِى ﴾ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ هودٍ في قصةِ عادٍ: ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [هود : ٦٠] .

وقال في سورةِ هودٍ أيضاً في قومِ فرعونَ : ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود : ٩٩] .

سؤالٌ

لماذا قال في عادٍ : ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ فذكر (الدنيا) ، وقال في قومِ فرعونَ : ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً ﴾ ولم يذكرِ الدنيا ، مع أن المقصود بالإشارةِ هي الدُّنيا ؟

الجوابُ

١ ـ إن قصةَ عادٍ في السورةِ أطول من قصة موسىٰ وفرعون ، فقصة عاد إحدىٰ عشرة آيةٍ ، تبدأ من الآية الخمسين إلىٰ الآيةِ الستين ، وأما قصة موسىٰ فهي أربعُ آياتٍ من الآيةِ السادسةِ والتسعين إلىٰ الآيةِ التاسعةِ والتسعين .

فناسب ذكرُ (الدنيا) مقامَ الإطالةِ والتبسطِ في قصةِ عادٍ ، وناسب

عدمُ ذكرها والاكتفاء بالإشارةِ إليها في مقامِ الإيجازِ .

٢ ـ ذكرَ في قصة عادٍ أموراً تتعلَّق بالدنيا ، منها أنه قال فيها : ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [٥٢] ، فقد ذكر في هٰذه الآيةِ أمرين مهمَّينِ من أمورِ الدنيا :

أحدَهما : سعةُ الرزقِ ، وبه تقومُ الحياةُ ، وهو قوله : ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ .

والآخرَ : زيادةُ القوةِ ، وبه استمرارُ الحياةِ الكريمةِ ، وهو قوله : ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ ولم يذكرْ أمراً يتعلق بالدنيا في قصةِ موسىٰ .

فناسب ذكر الدنيا والإشارةُ إليها في قصةِ عادٍ ، وعدمُ ذكرِها والاكتفاءُ بالإشارةِ إليها في قصةِ موسىٰ من هٰذه الجهةِ أيضاً .

٣ ـ أشار إلىٰ العذابِ الذي أحاط بعادٍ ، ونجاةِ هودٍ ومَن آمن معه في الدنيا ، فقال : ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [٥٨] .

ولم يُشر إلىٰ عذابٍ أو عقوبةٍ أحاطت بفرعونَ وملئه في الدنيا ، فناسب من جهةٍ أخرىٰ ذكر (الدنيا) ، والإشارة إليها في قصةِ عادٍ ، والاكتفاءُ بالإشارةِ إليها في قصةِ موسىٰ .

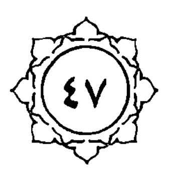
٤ ـ ذكرَ العذابَ الذي سيصيبُ فرعونَ وقومه يوم القيامةِ ، فقال : ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ [٩٨] ، ولم يذكرْ شيئاً عن عذابِ سيصيب عاداً يومَ القيامةِ .

فناسبَ من جهةٍ أخرىٰ ذكرَ الدنيا في قصةِ عادٍ ، وعدمَ ذكرها والاكتفاءَ بالإشارةِ إليها في قصةِ فرعونَ .

ويحسنُ أن نذكر من جهةٍ أخرىٰ أنه اختلف التعقيبُ بعد كلِّ قصةٍ بما يناسبُ المقامَ ، فقد قال تعقيباً علىٰ قصةِ عادٍ : ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ، وقال تعقيباً علىٰ قصةِ فرعونَ : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [٩٨ ـ ٩٩] ، فلم يزدْ علىٰ قوله : ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ في قصةِ عادٍ ؛ لأنه لم يذكر فيها أمراً يتعلَّق بيومِ القيامةِ .

وقال في قصةِ فرعونَ بعد ذكرِ العذابِ : ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ ثم قال بعد قوله : ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ : ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ ، فكان كلُّ تعبيرٍ أنسب بالموضع الذي ورد فيه .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ هودٍ في قومِ صالحٍ: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود : ٦٧] .

وقال في السورةِ نفسها في مدينَ قومِ شعيبٍ : ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود : ٩٤] .

سؤالٌ

لماذا قال في قومِ صالحٍ : ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ بتذكير الفعل (أخذ) ، وقال في قومِ شعيبٍ : ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ بالتأنيث مع أن الفاعل واحدٌ ، والفصل بين الفعلِ والفاعلِ واحدٌ ؟

الجوابُ

من المعلوم أنه يجوز في نحو هـٰذا تذكيرُ الفعلِ وتأنيثه ؛ لأن الفاعلَ غيرُ حقيقيِّ التأنيثِ ، وأما اختيار التذكيرِ والتأنيثِ في كلِّ موضعٍ فله أكثرُ من سببٍ منها :

١ ـ أنه قيل : إنه أخبر عن قومِ شعيبٍ بثلاثةِ أنواع من العذابِ كلها مؤنثةُ الألفاظِ ، وهي : الرجفةُ ، والصيحةُ ، والظلة ، فناسب ذٰلك

التأنيثَ في أهل مدين ، جاء في (درة التنزيل) : « هل لتخصيصِ قصةِ شعيبٍ بـ : (أخذت) فائدةٌ ليست لها في قصةِ صالحٍ عليه السلام ؟

الجوابُ عن هٰذا الموضعِ هو أن يقال : إن ٱلله أخبر عن العذابِ الذي أهلك به قوم شعيبٍ عليه السلام بثلاثةِ ألفاظٍ منها : (الرجفة) في سورةِ الأعرافِ في قوله : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ﴾ [٩٠ ـ ٩٢] .

وذكر ذٰلك قبله في مكانٍ آخرَ .

ومنها (الصيحة) في سورةِ هودٍ في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ [٩٤ ـ ٩٥] .

ومنها : (الظلة) في سورةِ الشعراءِ في قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [١٨٩] .

فلما اجتمعت ثلاثةُ أشياء مؤنثةُ الألفاظِ في العبارةِ عن العذابِ الذي أُهلكوا به غلب التأنيثُ في هٰذا المكان علىٰ المكان الذي لم تتوالَ فيه هٰذه المؤنثات ، فلذٰلك جاء في قصَّةِ شعيبٍ : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ »[1] .

وهٰذا الكلامُ فيه نظرٌ .

---

(١) درة التنزيل (٢٢٤ ـ ٢٢٥) .

والصوابُ : أن مدين ذكر سبحانه عنهم أنهم أخذتهم الصَّيحةُ ، وأنهم أخذتهم الرجفةُ ، وأما عذاب يوم الظلةِ ، فإنه لم يُصبْ مدينَ ، وإنما أصاب أصحاب الأيكة ، قال تعالىٰ فيهم : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [الشعراء : ١٨٩] . وكلاهما أُرسل إليهما شعيبٌ ، هٰذا من ناحيةٍ .

ومن ناحيةٍ أخرىٰ أن (الرجفة) أخذت قوم صالحٍ أيضاً ، قال تعالىٰ فيهم : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ [الأعراف : ٧٨] ، فهٰذا التعليلُ فيه نظرٌ .

٢ ـ إنه عبَّر عن عذابِ قومِ صالحٍ بالخزي ، فقال : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ [هود : ٦٦] .

والخزيُ مذكرٌ ، فناسب التذكيرُ في قومِ صالحٍ[1] .

قد تقول : إنه قال في قصةِ مدينَ : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ [٩٣] ، والعذاب مذكر .

فنقول : إنه ذكر العذابَ أيضاً في قصةِ ثمودَ ، فقال : ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [٦٤] ، وذكر الخزيَ علاوةً علىٰ ذٰلك فناسبَ التذكيرَ في قومِ صالحٍ .

٣ ـ إن التعقيبَ علىٰ قومِ صالحٍ وعقابهم أشد مما ذكره في قومِ شعيبٍ ، فقد قال في قوم صالح : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ

---

(١) انظر : كتابنا (معاني النحو) (٢ / ٤٨٥ ـ ٤٨٨) (باب الفاعل) .

ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ [٦٦ ـ ٦٨] .

وقال في قوم شعيبٍ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ [٩٤ ـ ٩٥] . ومن النظر في النصين يتبين لنا ما يأتي :

أ ـ أنه قال في قوم صالحٍ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ .

وقال في مدينَ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ .

والفاء تفيد التعقيبَ ؛ ذٰلك أنه قال علىٰ لسان نبيِّها صالحٍ : ﴿ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ [٦٤] .

فناسب التوعدُ بالعذابِ القريبِ ذكر الفاء التي تفيدُ الترتيبَ والتعقيبَ ، ثم إن نبيهم توعَّدهم بعد عقرِ الناقةِ بالعذاب بعد ثلاثةِ أيامٍ ، فلما انقضت الأيامُ الثلاثةُ حلَّ بهم العذابُ ، فناسب ذٰلك أيضاً ذكر الفاءِ التي تفيدُ الترتيبَ والتعقيبَ ، وليس الأمرُ كذٰلك في مدينَ ، فناسب فيها ذكر الواو .

ب ـ إنه ذكر الخزيَ في عقوبةِ قومِ صالحٍ ، فقال : ﴿ وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾ ولم يذكر ذٰلك في قوم شعيب .

ج ـ وذكر قوةَ اللهِ وعزتَه تعقيباً علىٰ هلاكِ قومِ صالحٍ ، فقال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ ، ولم يذكر مثل ذٰلك في قومِ شعيبٍ .

د - وقال في قومِ صالحٍ : ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ ﴾ ، ولم يقلْ مثل ذٰلك في قومِ شعيبٍ .

فاتضح أن التعقيبَ علىٰ قومِ صالحٍ كان أشد ، فجاء في عقوبتهم بلفظ التذكيرِ ، فقال : ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ ؛ لأن المذكرَ أقوىٰ من المؤنثِ .

وقد ذكرنا في تذكيرِ وتأنيثِ لفظِ الملائكةِ أنه إذا كان ثمة أمرٌ أشد من آخر ؛ كأن يكونا موقفي عذابٍ أحدهما أشد من الآخر ، جيء بما هو أشدُّ بالتذكيرِ للدلالةِ علىٰ قوةِ الأمرِ وشدته ، فناسب التذكيرُ قومَ صالحٍ ، والتأنيثُ قومَ شعيبٍ .

٤ - وعلاوةً علىٰ كل ذٰلك ؛ فإن قصة قومِ شعيبٍ في هٰذه السورة أطول من قصة قومِ صالحٍ ، فإن قصة قومِ صالحٍ ثماني آياتٍ ، من الآية الحادية والستين إلىٰ الآيةِ الثامنةِ والستين .

وإن قصة مدينَ اثنتا عشرة آية من الآية الرابعة والثمانين إلىٰ الآية الخامسة والتسعين ، وإن كلمة (أخذت) أطول من (أخذ) فناسبت الكلمةُ الطويلةُ طول القصةِ من جهةٍ أخرىٰ .

٥ - وردت كلمة (العذاب) في قومِ صالحٍ في القرآنِ الكريمِ أكثر مما وردت في مدين ، فإنها وردت في قومِ صالحٍ سبع مراتٍ وهي :

قوله تعالىٰ : ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

وقوله : ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود : ٦٤] .

وقوله : ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٥٦] .

وقوله : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ [الشعراء : ١٥٨] .

وقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ ﴾ [فصلت : ١٧] .

وقوله : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر : ٣٠] .

وقوله في عادٍ وثمودَ وفرعونَ : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ [الفجر : ١٣] .

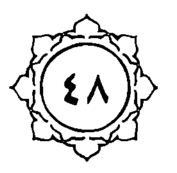
ووردت في أهلِ مدينَ مرةً واحدةً ، وذلك قوله تعالىٰ : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ [هود : ٩٣] .

وإن من معاني (الصيحة) في اللغةِ (العذاب)[1] ، فذكَّر الصيحةَ في قومِ صالحٍ ، إشارةً إلىٰ معنىٰ العذابِ ، ومناسبة لذكره الذي تكرر فيهم ، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلىٰ قومِ شعيبٍ أهل مدين ، فجاء بالفعل علىٰ لفظِ الصيحةِ وهو التأنيثُ .

٦ ـ وأما قوله تعالىٰ تعقيباً علىٰ قومِ شعيبٍ : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ فذلك لأن طبيعة العـذابِ واحدةٌ في القومين ، فكلاهما أهلك بالصيحةِ ، فشبّه هلاك مدين بهلاكِ ثمودَ ، والله أعلمُ .

* * *

(١) انظر : لسان العرب (صيح) (٣ / ٣٥٣) .



قال تعالىٰ في سورةِ يوسفَ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ٢] .

وقال في سورةِ الزخرفِ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف : ٣] .

سؤالٌ

لماذا ذكر الإنزال في آية يوسف والجعل في الزخرف ؟

الجوابُ

لقد ذكر الإنزال في آية يوسف ؛ لأنه ذكر ما يتعلق بالإنزال ، وهو قوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ . . . لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [٣ ـ ٧] .

فقد ذكر أن ربه يقصُّ عليه أحسن القصص ، وأنه أوحىٰ إليه هٰذا القرآن ، وأن هٰذه القصةَ جوابٌ للسائلين عنها ، ومعنىٰ ذٰلك أنه أنزله إليه .

وسورةُ يوسفَ هي في عمومها سردٌ لقصةِ يوسفَ ؛ التي سُئل عنها رسولُ ٱلله ﷺ ، فقد ذكر في أسبابِ نزولها أن جماعةً من اليهودِ سألوا رسول ٱلله ﷺ أن يحدِّثهم بأمرِ يعقوبَ وولده ، وشأنِ يوسفَ وما انتهىٰ إليه .

وقيل : إن جماعة من اليهود وجهوا إلىٰ رسول ٱلله ﷺ من أهل المدينة مَن يسأله عن رجلٍ من الأنبياءِ كان بالشامِ ، أخرج ابنه إلىٰ مصر ، فبكىٰ عليه حتىٰ عمي . ولم يكن بمكةَ أحدٌ من أهلِ الكتابِ ، ولا من يعرف خبرَ الأنبياءِ فأنزل ٱلله سورةَ يوسفَ جملةً واحدةً كما في التوراةِ[1] .

وقد قال سبحانه في آخرِ القصةِ : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [١٠٢] .

فقد ذكر سبحانه أن هٰذا من أنباءِ الغيبِ ، فدل ذٰلك علىٰ أن هٰذا الكتابَ إنما هو إنزالٌ من عندِ ٱلله ؛ لأن قومه لا يعلمون عن هٰذه القصةِ شيئاً ، فناسب ذٰلك ذكرُ الإنزالِ .

أما في آيةِ الزخرفِ فلم يذكر الإنزال ، وإنما ذكر الجعل ؛ لأنه لم يذكر ما يتعلق بالإنزال ، فقد قال بعدها : ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [٤] ، ففي قوله : ﴿ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ و﴿ لَدَيْنَا ﴾ و﴿ لَعَلِىٌّ ﴾

(١) انظر : روح المعاني (١٢ / ١٧٠) ، فتح القدير (٣ / ٦) .

دلالةٌ علىٰ أن الكلام ليس علىٰ الإنزالِ ، وإنما علىٰ ما هو في الأعلىٰ ، فلم يذكرِ الإنزالَ .

ثم إنه تردد لفظُ الجعلِ في السورةِ عدة مراتٍ ، من نحو قوله : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [١٠] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ [١٥] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ ﴾ [١٩] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ [٦٠] ، وغيره ، فناسب ذكرُ الجعلِ فيها .

هـٰذا من جهةٍ ، ومن جهةٍ أخرىٰ أن لفظ (الجعل) ورد في الزخرفِ أكثر مما في سورةِ يوسفَ ، فقد ورد في الزخرفِ (١١) إحدىٰ عشرة مرة ، وورد في سورة يوسف (٤) أربع مراتٍ .

وإن الإنزال ومشتقاته ورد في يوسف (٣) ثلاث مراتٍ ، وورد في الزخرف مرةً واحدةً ، فناسب ذكر الجعلِ في الزخرفِ والإنزالِ في يوسفَ من جهةٍ أخرىٰ .

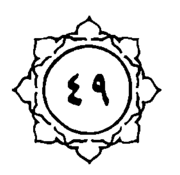
جاء في (ملاك التأويل) في سببِ الاختلافِ بين هاتين الآيتين : « أن آية سورةِ يوسفَ لما كانت توطئة لذكر قصصه عليه الصلاة والسلام . . . ومستوفياً ما كان أهلُ الكتابِ يظنون أنهم انفردوا بعلمه ، فأنزل ٱلله هـٰذه السورة موفيةً من ذٰلك أتمه ومعرِّفة من قصصه العجيب ، ومؤديةً أكمله وأعمه ، ولا أنسب عبارة من قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ ليعلمَ العربُ وأهلُ الكتابِ أن ذٰلك منزلٌ من عند ٱلله تعالىٰ . . .

وليقطعَ العربُ والجميعُ أن محمداً ﷺ لم يتلقَّ ذٰلك القصص من أحدٍ من العربِ إذ لم يكن عندهم من نبأ ، ولا رحل في تعرُّفه إلىٰ أحدٍ ، فكان قصصاً وآيةً مُعْلِماً بصحةِ رسالته ﷺ وعظيمِ تلك العنايةِ ، فالتعبيرُ بالإنزالِ هنا بيِّنٌ .

وأما آيةُ الزخرفِ ، فلم تُبْنَ علىٰ إخبارٍ ، بل أعقبت بآي الاعتبارِ واللطفِ والتنبيهِ والتذكارِ »[١] .

* * *

(١) ملاك التأويل (٢ / ٥٣٦ ـ ٥٣٧) .



يقول ٱلله سبحانه في سورة الرعد : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴾ [الرعد : ١٥] .

ويقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ ﴾ [الحج : ١٨] .

بإسنادِ الفعلِ (يسجد) إلىٰ : (مَن) التي هي للعاقلِ في الآيتين .

وقال في آيةٍ أخرىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل : ٤٨ ـ ٤٩] ، بإسناد الفعل (يسجد) إلىٰ (ما) فما السببُ ؟

الجوابُ

قال تعالىٰ في آيةِ الرعدِ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ ، والطَّوع والكرهُ من صفاتِ العقلاءِ ؛ إذ العاقلُ هو الذي يختار

الفعلَ طوعاً أو يُستكره عليه ، فناسب إسنادُ السجودِ إلىٰ (مَن) التي هي للعاقلِ .

وأما آيةُ الحجِّ فإنها في سياقِ العقلاءِ ، فقد قال قبلها : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآية .

فناسبَ إسنادُ السجودِ إلىٰ (مَن) أيضاً .

وأمـا آيةُ النحلِ فإنها ذُكرت في سياقِ العمومِ ، فقد جاء قبلَ الآيةِ قوله سـبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ الآية ، فقد قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ وكلمةُ (شيء) تدلُّ علىٰ العمومِ من عاقلٍ وغيره ، هـٰذا من جهةٍ .

ومن جهةٍ أخرىٰ أنه قال في الآيةِ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ ﴾ فبين الساجدين بقوله : (مِن دابة) ، وكلمةُ (دابة) عامةٌ ، واستعمالها في غيرِ العاقلِ هو الغالبُ ، فناسب إسنادُ الفعلِ إلىٰ (ما) من جهتين :

الأولىٰ : العمومُ في (شيءٍ) .

والأخرىٰ : العموم وغلبة غير العاقل في (دابةٍ) .

و(ما) كما هو معلومٌ أعمُّ من (مَن) ، وما تدلُّ عليه أكثر مما تدل عليه (مَن) .

فإن (مَن) خاصةٌ بذواتِ العقلاءِ ، وأما (ما) فهي تدل علىٰ ذواتِ ما لا يعقل وعلىٰ صفاتِ العقلاءِ .

فالأول نحو قولك : (آكلُ ما تأكلُ وأركبُ ما تركبُ) ، قال تعالىٰ : ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣٣] .

والثاني : نحو قولك (ما زيد ؟) فتقول : تاجرٌ أو كاتبٌ ، ونحو قوله تعالىٰ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّنٰهَا ﴾ [الشمس : ٧] ، والذي سوّاها هو ٱلله ، وقوله : ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء : ٣] ، فاتضح أن ما تدل عليه (ما) أعمُّ وأكثر مما تدل عليه (من) ، فذوات غيرِ العاقلِ أكثر من ذواتِ العقلاءِ ، فكيف إذا أُضيف إليهم صفاتُ العقلاءِ ؟

فناسب العمومُ كلمة (ما) في آيةِ النحلِ إضافةً إلىٰ ما بيَّن به (ما) من غير العاقل ، أو ما غلب فيه ذٰلك ، وهو قوله : (من دابةٍ) فناسب ذٰلك : (ما) أيضاً .

ومن اللطيفِ أن نذكر ههنا أن ٱلله سبحانه إذا أسندَ السجودَ إلىٰ (مَن) أتبعه بذكرِ غير العاقلِ ، وإذا أسنده إلىٰ (ما) أتبعه بذكرِ العاقلِ .

فقد قال في آيةِ الرعدِ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ثم عطف عليه بقوله : ﴿ وَظِلَٰلُهُم ﴾ والظلالُ غير عاقلةٍ .

وقال في آيةِ الحجِّ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ، وعطف عليه الشمسَ والقمرَ والنجومَ ونحوها .

وقال في آيةِ النحلِ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ وعطف عليه

الملائكة ، حتىٰ إنه فعل ذٰلك مع فعلِ التسبيح في قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾ [النور : ٤١] ، فعطف (الطير) علىٰ : ﴿ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ .

وقد تقولُ : ولِمَ قال في آيةِ الحجِّ : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ بعد قوله : ﴿ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وهم داخلون فيمن قبلهم ؟

والجوابُ من أكثرِ من وجهٍ :

فقد يكونُ ذٰلك من بابِ عطفِ الخاصِّ علىٰ العامِّ ، فإن قوله : ﴿ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ لا يخصُّ الناسَ وحدهم ، بل قد يكونون من الناسِ أو من غيرهم من الجنِّ أو عباد ٱلله الآخرين الذين لا نعلمهم .

وعطفُ الخاصِّ علىٰ العامِّ غير عزيزٍ في اللغةِ ، قال تعالىٰ : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] .

والصلاةُ الوسطىٰ من الصَّلواتِ ، وقال : ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمٰن : ٦٨] ، والنخلُ والرمانُ فاكهةٌ .

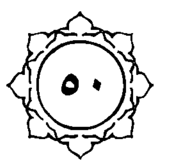
أو إن السُّجودَ الأول بمعنىٰ السجودِ العامِّ ، وهو التَّسخيرُ والانقيادُ لله والخضوع له ، وهٰذا لا يخصُّ الإنسان ، بل يعمُّ الجميعَ من عاقلٍ أو غيره ، وهو ليس عبادةً بالنسبة إلىٰ المكلفين ، وإن السجودَ الثاني سجودُ طاعةٍ واختيارٍ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ .

وقد يقوِّي هٰذا الاحتمال أنه ذكر قبل الآية أصنافاً من الناس ، مَن يسجد لله سجودَ طاعةٍ وكثيراً حقَّ عليه العذابُ ، وذٰلك قوله تعالىٰ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ ، فالمجوسُ والذين أشركوا وقسمٌ من الصابئين لا يسجدون لله سجودَ طاعةٍ واختيارٍ ، فقد يكون من بين هٰؤلاء مَن يعبد النارَ ، أو يعبد النجومَ ، أو غير ذٰلك من المعبوداتِ .

فناسبَ أن يقول : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة الحجر: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر : ٢] .

سؤالٌ

لِمَ قُرئت (رُبَما) بتخفيفِ الباءِ ؟

الجوابُ

إن (ربما) قرئت بالتخفيفِ والتشديدِ ، وكلتا القراءتين سبعيةٌ متواترةٌ .

أما الإجابةُ عن التخفيفِ والتشديدِ فإن التخفيف قد يكون لتخفيفِ معنىٰ الحرفِ ، وإن التشديدَ آكدُ في معنىٰ الحرفِ ، وذٰلك نظيرُ نونِ التوكيدِ الثقيلةِ والخفيفة ، فإن الثقيلة آكد من الخفيفة ، ونظير (إنّ) الثقيلة والمخففة فإن الثقيلة آكد من المخففةِ ، و(ربّ) المثقلة آكد في معنىٰ الحرفِ من المخففةِ ، فإن تكرار الباءِ لزيادةِ المعنىٰ .

و(ربّ) تكونُ للتكثيرِ كقوله ﷺ : « ألا رُبّ كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة » ، وتكونُ للتقليلِ ، كقول الشاعر :

ألا ربَّ مـولـودٍ وليـس لـه أبٌ   وذي ولـــدٍ لـــم يلـــده أبـــوان

إن الرغبة في الدخولِ في الإسلامِ التي ذكرتها الآية تختلف بحسب المواطن والأشخاص ، فقد تقوىٰ في مواطنٍ وتخفُّ في مواطنٍ ، وقد تقوىٰ عند أشخاصٍ وتخف عند آخرين ، فقد قيل : إن ذٰلك في الدنيا عندما رأوا الغلبة للمسلمين في بدر[1] أو غيرها .

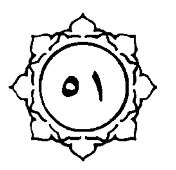
وفي مثل هـٰذا الموطن يتمنىٰ قسمٌ من الناسِ أن لو كانوا مسلمين ؛ ليحصلوا علىٰ غنائمَ ، وتختلف هـٰذه الرغبةُ باختلافِ الأشخاصِ ، فقد تكون قويةً عند أشخاصٍ ، وقد تكون خفيفةً عند آخرين .

وقيل : إن ذٰلك يكون في القيامةِ ، ولا شكَّ أن تلك الرغبة ستكون قويةً جدًّا ، وأنهم كانوا يتمنون أن لو كانوا مسلمين .

فالتمني في أن لو كانوا مسلمين يختلف قوةً وشدةً بحسب المواطن ، وبحسبِ الأشخاصِ ، فقد يكون قويًّا جدًّا في موطنٍ ما ، فذٰلك المعنىٰ يحققه التشديدُ ، وقد يكون أخفَّ في موطنٍ آخر فذٰلك ما يحققه التخفيفُ ، فاقتضىٰ ذٰلك القراءتين كلتيهما .

* * *

(١) انظر : روح المعاني (١٤ / ٤) .



قال تعالىٰ في سورةِ الحجرِ : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر : ٤٦] ، وقال في سورة (قٓ) : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ [قٓ : ٣٤] .

سؤالٌ

لماذا ذكر الأمن في آيةِ الحجرِ ، فقال : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ ولم يقل مثل ذٰلك في آية (قٓ) ؟

الجوابُ

هناك ما حسَّن ذكر الأمن في آيةِ الحجرِ ، ذٰلك أن الآية وردت في سياقِ قصةِ آدمَ وإبليسَ ، وانتهت بإخراجِ آدمَ من الجنةِ ، فكان من المناسب أن يؤمِّنهم ربنا من ذٰلك ، ومن كلِّ ما يُخشىٰ منه ، وأنه لا يصيبهم ما أصاب أباهم حين كان في الجنة ثم أُخرج منها .

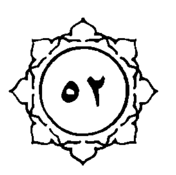
وقوّىٰ هٰذا المعنىٰ بقوله : ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [٤٨] تمكيناً لهٰذا المعنىٰ في نفوسهم ، وإرغاماً لإبليس وزيادةً في إغاظته ، وهو من لطيفِ المناسباتِ .

وليس السياقُ في (قٓ) في مثل ذٰلك ، وإنما ذُكر مجيءُ الموتِ ،

وفرارُ الإنسانِ منه ، فقال : ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [١٩] .

فناسب ذكرُ الخلودِ الذي لا موت فيه ، والذي هو مطمعُ الإنسانِ وغايةُ رغبتِه ، فقال : ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ فكان كلُّ تعبيرٍ في مكانه أنسب .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ النحلِ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل : ٦١] .

وقال في سورةِ الحجرِ : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ [الحجر : ٤ ـ ٥] .

سؤالٌ

لماذا ذكر تأخيرُ الأجلِ في النحلِ ، فقال : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

وقدَّم سبقَ الأجلِ في الحجرِ ، فقال : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ ؟

الجوابُ

قدَّم تأخيرَ الأجلِ في النحلِ لأكثر من مناسبةٍ :

فقد قال في الآيةِ : ﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فناسبَ التأخيرُ التأخيرَ ؛ ولأن الناسَ يريدون تأخيرَ الأجلِ ، فقدَّم ما يريده الناس وما

يسعون إليه ؛ ولأنه قال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾ فقد يكون من أسبابِ الظلمِ الرغبةُ في البقاءِ ومدِّ الأجلِ ، فناسب ذٰلك تأخيرَ الأجلِ .

وأما تقديمُ الأجلِ في الحجرِ ، فله سببه أيضاً ؛ ذٰلك أنه قال بعدها : ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [٦ ـ ٨] .

فقد طلبوا إنزالَ الملائكةِ ، ولو أنزلها إليهم لم يُمهلهم ولم يؤخِّرهم ، كما قال تعالىٰ : ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ فكأنهم أرادوا استعجالَ أجلِهم بطلبهم هٰذا ، فقال ربُّنا : ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ ، فناسبَ كلُّ تعبيرٍ موضعَه الذي ورد فيه .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ النحلِ : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : ٦٤] ، فذكر الهدىٰ والرحمةَ .

وقال فيها أيضاً : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ١٠٢] ، فذكر الهدىٰ والبشرىٰ .

وقال في السورةِ نفسِها : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] .

فذكر الهدىٰ والرَّحمةَ والبشرىٰ ، فجمع الأوصافَ كلَّها ، فلِمَ ذاك؟ ولِمَ خَصَّ كلَّ موطنٍ بما ذكر فيه من الهدىٰ والرَّحمةِ أو الهدىٰ والبُشرىٰ ؟

الجوابُ

إن ما ذكره في الآيةِ الرابعةِ والستين من قوله : ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ إنما هو غرضٌ واحدٌ من أغراضِ إنزالِ الكتابِ ، فأغراضُ إنزالِ الكتابِ كثيرةٌ ، أهمها وأولها عبادةُ ربهم غير أنه ذكر غرضاً واحداً وهو تبيين الذي اختلفوا فيه ، فذكر الهدىٰ والرحمةَ .

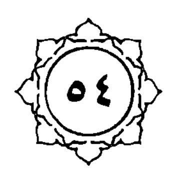
وكذٰلك ما ذكره في الآيةِ الثانيةِ بعد المئة ، وهو قوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ، فهو غرضٌ من أغراضِ إنزالِ الكتابِ ولم يذكرِ الأغراضَ كلها ، فذكر الهدىٰ والبُشرىٰ .

وأما الآية التاسعة والثمانون فقد ذكر فيها أن التنزيل تبيانٌ لكل شيءٍ، فلم يترك شيئاً إلا شمله فجمع الأوصافَ كلها ، فقال : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ ﴾ وهو المناسب لقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ .

أما الجوابُ عن السؤالِ الآخرِ ، وهو أنه لماذا خصَّ كلَّ موطنٍ بما ذكره من الهدىٰ والرحمة أو الهدىٰ والبشرىٰ ، فهو أنه ذكر بعد الآيةِ الرابعةِ والستين ـ وهي قوله : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ ـ أموراً من مظاهرِ الرحمةِ ، وذٰلك من نحو قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ . . . وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا . . . وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [٦٥ ـ ٦٧] فناسبَ ذكر الرحمةِ .

وإنه ذكر قبل الآيةِ الثانيةِ بعد المئة شيئاً من البشرىٰ ، وذٰلك من نحو قولِهِ تعالىٰ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [٩٦ ـ ٩٧] . فناسب ذكر البشرىٰ ، فناسب كلٌّ تعبيرٍ مكانَه .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ النحلِ : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : ٦٦ ـ ٦٧] .

سؤالٌ

لماذا عدّ السَّكَرَ وهو الخمرُ من جملةِ النعمِ ؟

ولماذا ختمَ الآيـةَ بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ مع أن الخمرَ تذهبُ بالعقلِ ؟

الجوابُ

١ ـ إن الآية نزلت قبل تحريمِ الخمرِ ، ومع ذٰلك فهي ليست كما ظنَّ السائلُ .

٢ ـ قيل : إن من معاني السَّكَر (الخَلّ) ولـٰكن المعنىٰ المشهور للسكر هو الخمرُ ، ونحن سننظر في النصِّ بحسبِ المعنىٰ المشهورِ .

٣ ـ إنه قسَّم ما يتخذه الإنسانُ من ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ علىٰ قسمين :

السَّكَر ولم يصفه بأنه حسنٌ .

والرزقُ الحسنُ ، فأخرج السَّكَر من الرزق الحسن ، مع أن الآية نزلت قبل تحريمِ الخمرِ ، وفي هٰذا لفت للنظرِ إلىٰ أن الخمر ليست ممدوحةً .

٤ ـ إن الآية ليست خطاباً للمؤمنين ، وإنما هي لعمومِ الناسِ فيما يتخذونه من هٰذه الثمراتِ ، وهٰذا أمرٌ واقعٌ ، فإن الناس يتخذون من هٰذه الثمراتِ ما ذكر .

٥ ـ لم تكن الآيةُ في تعدادِ النعمِ ، وإنما هي في ذكرِ ما هو حاصلٌ في واقعِ الأمرِ .

٦ ـ لم يقل في خاتمةِ الآيةِ (لعلكم تشكرون) لسببين :

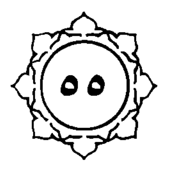
السببُ الأولُ : أنها ليست في سياقِ ذكرِ النِّعمِ .

والآخر : لئلا يشمل الشكرَ السكَرَ .

٧ ـ ختم الآية بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

وكأن في هٰذا إهابةً لترك السكرِ ؛ لأن السكَر يخامرُ العقلَ ويغطيه ، أما الآية فإنها لمن يعقل لا لمن يُذهب عقلَه السكرُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ النحلِ: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [النحل : ٧٠] .

وقال في سورةِ الحجِّ : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ ﴾ [الحج : ٥] .

سؤالٌ

لقد فصلت (لا) عن (كي) في الرسمِ في آيةِ النحلِ ، فكتبت (لكي لا) ، ووصلت بها في آية الحجِّ فكتبت (لكيلا) ، فما السبب ؟

الجوابُ

إن هـٰذا من شؤونِ رسمِ المصحفِ الذي لا يُقاس عليه مع أنه يجوز وصل (لا) بـ : (كي) ، ويجوز فصلها عنها في الرسمِ ، ومع ذٰلك فإنه ـ كما يبدو ـ أن وصل (لا) بكي وفصلها عنها في رسمِ المصحفِ له ارتباطٌ بالناحيةِ البيانيةِ ، وٱلله أعلمُ .

ذٰلك أن (من) في قوله : ﴿مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ﴾ ونحوها تفيد ابتداءَ الغايةِ ، فقوله : ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ﴾ يفيد أن عدمَ العلمِ موصولٌ

بالعلمِ بلا فاصلٍ ، أي إن ذٰلك يكون بعد العلمِ مباشرةً .

وأما قوله : ﴿ بَعۡدِ عِلۡمٍ ﴾ فإن ذٰلك يحتمل أن يكون عدمُ العلمِ متَّصلاً بالعلمِ كالأولِ ، ويحتمل أن يكون بعده بمدَّةٍ .

ونظيره قولك : (فوقه) و(من فوقه) ، فإن قولك : (فوقه) يحتمل القربَ والبعدَ ، وأما (من فوقه) فيفيد الاتصالَ بما هو تحته ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا ﴾ [فصلت : ١٠] ، فقال : (من فوقها) أي بلا فاصلٍ .

وقال : ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا ﴾ [قٓ : ٦] ، فلم يأتِ بـ : (من) لأن الفوقيةَ بعيدةٌ .

ونحوه قوله : ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ ﴾ [الملك : ١٩] ، فإنه لم يأت بـ : (من) لأنها كذٰلك ؛ أي إن الفوقيةَ غيرُ متصلةٍ[١] .

فلما كان عدمُ العلمِ متَّصلاً بالعلمِ في آية الحجِّ ؛ أي حصل بعده مباشرةً بلا فاصلٍ وصلت (لا) بـ : (كي) فرُسمت موصولةً بها (لكيلا) .

ولما لم يكن كذٰلك في آيةِ النحلِ فصلت (لا) عن (كي) فرُسمتا مفصولتين (لكي لا) .

وهٰذا الأمر لا يقتصر علىٰ هاتين الآيتين ، بل حيث وردت (كي) مع (لا) في المصحف رُسمتا ، بحسبِ هٰذا الأمرِ .

---

(١) انظر : معاني النحو (٢ / ٦٢٠) وما بعدها .

قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

ففصلت (لا) عن (كي) في الرسمِ ، وذٰلك أن الزواج بأزواجِ الأدعياءِ إنما يكون بعد الانفصالِ عن أزواجهن ، وبعد انقضاءِ العدَّةِ ففصلت في الخطِّ (لا) عن (كي) مجانسةً لذٰلك .

في حين رُسمت (لا) موصولةً بـ : (كي) في قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ ﴾ [الأحزاب : ٥٠] ؛ وذٰلك لأن الاتصالَ قائمٌ بأزواجه ، وبما ملكت يمينه .

ونحوه قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

إذ وصلت (كي) بـ : (لا) وذٰلك أن قوله : ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ ﴾ معناه أنه جازاكم غمًّا موصولاً بغمٍّ ، غمِّ الهزيمةِ وفواتِ

الغنيمةِ ، أو جازاكم غمًّا موصولاً بغمٍّ فعلتموه لرسول ٱلله ﷺ لمَّا عصيتم أمره[١] .

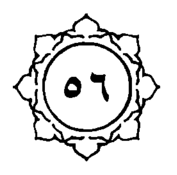
فلما كان الغمُّ الثاني موصولاً بالغمِّ الأول ، وصلت (كي) بـ : (لا) مجانسةً لوصلِ الغمَّين .

في حين رُسمت (كي) مفصولةً عن (لا) في قوله تعالىٰ : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر : ٧] .

وذٰلك أنه لا يريدُ أن تبقىٰ الأموال دُولة بين الأغنياءِ لا تخرج عنهم ، وإنما أراد أن يشاركهم فيها الآخرون ، ففصلت (لا) عن (كي) ؛ مجانسةً لإرادة ألا تبقىٰ الأموالُ محصورةً في فئةٍ معينةٍ . وهٰذا من لطيفِ الرَّسمِ .

* * *

(١) انظر : تفسير أبي السعود (٢ / ١٠٠) .



قال تعالىٰ في سورةِ النحلِ: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : ٧٩] .

وقال في سورةِ المُلكِ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ [الملك : ١٩] .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ النحلِ : ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ ﴾ بإسنادِ الإمساكِ إلىٰ ٱلله ، وقال في آيةِ الملكِ : ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ ﴾ بإسنادِ الإمساكِ إلىٰ الرَّحمـٰنِ ؟

الجوابُ

من أوجهٍ :

١ ـ إن كلمة (الرَّحمـٰنِ) لم ترد في سورةِ النَّحلِ علىٰ طولها ، وهي (١٢٨) آية ، ووردت في سورة الملك أربعَ مراتٍ ، وهي ثلاثون آيةً .

٢ ـ ووردت كلمة (ٱلله) في سورةِ النَّحلِ (٨٤) أربعاً وثمانين

مرةً ، ووردت في سورةِ الملكِ ثلاثَ مراتٍ .

٣ ـ لم يرد إسنادُ الفعلِ (سخر) إلىٰ الرَّحمنِ في القرآنِ الكريمِ ، وقد أسند إلىٰ ٱلله في مواضعَ عدةٍ ، وذٰلك نحو قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [لقمان : ٢٠] ، ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ . . . ﴾ [الجاثية : ١٢] .

فمن حيث السِّمةُ التَّعبيريةُ للسُّورةِ والاستعمال القرآني للفعلِ (سخر) ناسب كلٌّ تعبيرٍ موضعَه .

٤ ـ وإن السِّياقَ في سورةِ الملكِ في ذكرِ مظاهرِ الرحمةِ ، وذٰلك نحو قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [١٥] .

وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [٢٣] .

حتىٰ إنه إذا حذرهم فإنه يحذرهم بزوالِ النعمِ ، من نحو قوله تعالىٰ : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [٢١] ، وقوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴾ [٣٠] .

ومن مظاهرِ ذٰلك أنه حين ذكَّرهم بالمكذبين ممن قبلهم ، قال : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [١٨] ، ولم يقلْ : (فكيف كان عقاب) فذكر الإنكارَ عليهم ولم يذكرِ العقوبة ، كما قال في الرعدِ مثلاً (الآية : ٣٢) ، والإنكار أخف من العقوبة .

أما السِّياقُ في سورةِ النَّحلِ ففي التَّوحيدِ والنَّعيِ علىٰ الشِّركِ ،

وذلك نحو قوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ . . . وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ . . . ﴾ [٧٣ ـ ٧٦] .

حتىٰ إنه ختم الآية بقولِهِ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قد تقول : ولٰكن قال أيضاً في سياقِ آيةِ النَّحلِ قبل هٰذهِ الآيةِ : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [٧٨] .

فأقول : نعم ، ولٰكنها وردت في سياقِ التوحيدِ والنَّعي علىٰ الشِّركِ ، ثم إنه قال في آيةِ النَّحلِ : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ فأسند ذٰلك إلىٰ ٱلله .

وقال في الملكِ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ ﴾ فأسندَ ذٰلك إلىٰ الضَّمير (هو) الذي يعود علىٰ الرَّحمنِ قبله في قوله : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ ﴾ [٢٠] ، فأعادَ الضميرَ علىٰ الرَّحمنِ ، فناسب ذكر (الرَّحمن) في آية الملك ، وذكر (ٱلله) في آية النحل .

٥ ـ ذكر في آيةِ النحلِ أن الطير مسخَّراتٌ ، وهو من بابِ القهرِ والتَّذليلِ ، وليس من بابِ الاختيار ، فأسند ذٰلك إلىٰ ٱلله ، أما في آيةِ الملكِ ، فقد قال : إنهن ﴿ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ ﴾ [الملك : ١٩] بإسنادِ ذٰلك إلىٰ الطيرِ ، فهو من بابِ التمكينِ للطَّيرِ ، وهو أنسبُ بالرَّحمةِ .

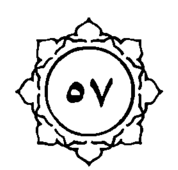
٦ ـ ذكر في سورةِ الملكِ شيئاً من الراحةِ للطيرِ ، وهو قوله :

﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ وهو سكون الحركةِ ، فناسب ذٰلك ذكرُ الرحمةِ ، جاء في (ملاكِ التأويلِ) : « إن سورةَ الملكِ لما انطوت علىٰ ذكرِ حالين للطائر ، من صفِّهِ جناحيهِ وقبضهما ، وهما حالتان يستريح إليهما الطائرُ ، فتارة يصفُّ جناحيه كأن لا حركةَ به ، وتارة يقبضهما إلىٰ جنبيه حتىٰ يلزقهما بهما ، ثم يبسطهما ويقبضهما موالاة بسرعة كما يفعل السَّابح ، فناسب هـٰذا الإنعام منه تعالىٰ ورود اسمه الرَّحمـٰن .

أما آية النحلِ فلم يرد فيها ذكرُ هـٰذه الاستراحةِ فقيل هنا : ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ وتناسب ذٰلك وامتنع عكس الواردِ بما تبيَّن ، وٱلله أعلمُ »[١] .

* * *

(١) ملاك التأويل (٢ / ٦١٨) .



قال تعالىٰ في سورة النَّحل: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل : ٨١] .

سؤال

لماذا قال : ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ ولم يقلْ : (والبردَ) ؟

الجواب

قال بعضهم : استدلَّ بذكر الحرِّ علىٰ البردِ ، فحذف ما يدلُّ عليه ، أي : والبرد[1] . وقد يكون اكتفىٰ بقوله سبحانه في أولِ السورةِ : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ [النحل : ٥][2] .

وهناك أمرٌ آخر حسَّن عدمَ ذكرِ وقاية البردِ هٰهنا ؛ ذٰلك أن المقام في ذكرِ الحرِّ لا البردِ ، فإن الإنسان يذهب إلىٰ الظلالِ ليقي نفسه الحرَّ ،

---

(١) انظر : شرح الأشموني (٣ / ١١٦) .

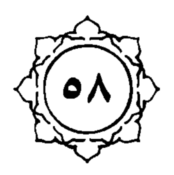
(٢) انظر : المغني (٢ / ٥٩١) .

ويذهب إلىٰ الجبالِ في الصيف ليحتمي من الحرِّ ، فكان المناسب ذكرَ الوقايةِ من الحرِّ .

وأما الوقاية من البردِ فقد ذكرها في أولِ السورةِ كما أشرنا ، وقال بعضهم : إن ذكرَ الحرِّ يُغني عن ذكرِ البردِ ، فإن القياس يكون بذكرِ درجاتِ الحرارةِ فإنها قد تتدنَّىٰ وقد ترتفعُ .

ولو كان الأمر كما ذكر هـٰؤلاء لما كان داعٍ لذكرِ البردِ أصلاً .

* * *



قال تعالىٰ في موضعين من سورةِ الإسراءِ : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء : ٤٩] ، ﴿ . . . وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء : ٩٨] .

وقال في سورةِ (المؤمنون) : ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٢] .

وقال في سورةِ الصَّافاتِ : ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ [الصافات : ٥٣] .

سؤالٌ

قال في آيتي الإسراءِ : ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا ﴾ ، وقال في آيةِ (المؤمنون) وآياتٍ أخرىٰ : ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ فما الفرقُ ؟

الجوابُ

إن الترابَ والعظامَ أدلُّ علىٰ البلىٰ من العظام والرفات ؛ ذٰلك أن (الرفات) هو الفتاتُ والحُطامُ من كلِّ شيءٍ ، يقال : (رفت الشيء :

كسره ودقه)[١] . فإذا بلىٰ الرفاتُ أصبح تراباً .

فبعث الترابِ والعظامِ أبعد في عقولِ المنكرين ، وأغرب من بعثِ العظامِ والرفاتِ ، وهو أدعىٰ للعجبِ والإنكارِ ، وهـٰذا يتضح من السياقِ الذي يرد فيه كلٌّ من التعبيرين .

ففي سياق آيتي الإسراءِ : ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ لم يذكر من قولهم غير هاتين الآيتين في الإنكارِ ، فلم يقولوا بعدهما ولا قبلهما شيئاً يتعلق بإنكارِ البعثِ أو العجبِ منه .

وأما إذا ذكر الترابُ والعظامُ ، فإنه يذكر من إنكارهم واستبعادهم للبعث ما لم يذكره في العظامِ والرفاتِ .

من ذٰلك مثلاً ما جاء في سورة (المؤمنون) ، وهو قوله : ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [٣٥ ـ ٣٨] .

فأنت ترىٰ من العجبِ والاستبعادِ ما هو ظاهرٌ ، مما لم يذكر نحوه في آيتي الإسراءِ ، ونحو ذٰلك قولُه في السورةِ نفسِها : ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [٨٢ ـ ٨٣] .

ونحوه ما جاء في سورةِ الصَّافاتِ : ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي

(١) انظر : لسان العرب (رفت) .

قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [٥١ ـ ٥٣] .

ونحوه ما جاء في سورةِ الواقعةِ : ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَيِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [٤٧ ـ ٤٨] .

فيضيفون إلىٰ عجبِهم وإنكارِهم أن يُبعثوا مع آبائِهم الأولين .

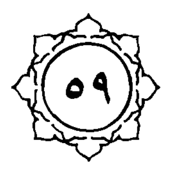
فكيف يبعث آباؤهم الأولون معهم وقد أصابهم من البلىٰ ما أصابهم ؟ وهـٰذا شأنُ كلِّ ما ذكر فيه الترابُ والعظامُ .

ويدلُّك علىٰ هـٰذا أيضاً أنه حيث ذكر التُّراب والعظام ، أضافوا إلىٰ ذٰلك ذكر الموتِ فيقولون : ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا﴾ وذٰلك للزِّيادةِ في العجبِ والاستبعادِ . فالميتُ لا يحيا وإن كان حديثَ الموتِ ، فكيف إذا أصبح تراباً وعظاماً ؟ !

ولم يذكر مثل ذٰلك مع العظامِ والرُّفاتِ ، فذكرُ الموتِ مع التُّرابِ والعظامِ فيه جانبان :

جانبُ الزيادةِ في العجبِ والاستبعادِ ، وجانب الإفاضةِ والتَّوسُّعِ في دواعي الاستبعادِ والإنكارِ ، مما يدعو إلىٰ الإفاضةِ في ذكرِ الإنكارِ والعجبِ ، بخلافِ ذكرِ العظامِ والرفاتِ ، وعدمِ ذكرِ الموتِ ، فإنه أوجزُ في الكلامِ ، وأوجز في ذكرِ العجبِ والاستبعادِ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ مريمَ : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ [مريم : ٤٥] .

سؤالٌ

لماذا قال : ﴿ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ وكان الأنسبُ فيما يبدو أن يقال : عذابٌ من الجبارِ أو المنتقمِ ونحو ذٰلك ؟

الجواب

١ ـ لقد قال قبل هـٰذه الآيةِ : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ [٤٤] فذكر اسمَ الرَّحمنِ .

٢ ـ إن اسم الرَّحمنِ تكرر في هـٰذه السورةِ (١٦) ستَّ عشرةَ مرةً ، وهي أكثر سورة في القرآن تردد فيها هـٰذا الاسم .

٣ ـ إن جو السورةِ يشيعُ فيه الرحمةُ من أولها إلىٰ آخرها ، فهي تبدأ بالرحمةِ : ﴿ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [٢] .

وتنتهي بالرحمةِ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [٩٦] .

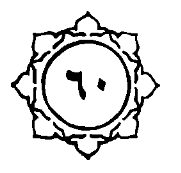
ويفيضُ جوُّها بالرحمةِ : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ [٢١] .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [٥٠] .

٤ ـ ثم إن إبراهيمَ قال بعد ذٰلك لأبيه : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ [٤٧] .

فلا يحسنُ أن يقول : أستغفر لك الجبار أو المنتقم ونحو ذٰلك ؛ لأن المغفرة تُطلبُ من الرحمنِ ، فناسب ذكر (الرحمـٰن) من كل وجهٍ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ مريمَ : ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ [مريم : ٦١ ـ ٦٣] .

سؤالٌ

في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴾ .

١ ـ لماذا جاء بهٰذا التعبيرِ ، ولم يقل مثلاً : (إن وعدَ الرحمنِ كان مأتيًا) أو : (إن الرحمـٰن كان وعده مأتيًا) ؟

٢ ـ لماذا قال : (مأتياً) ولم يقل : (آتياً) ؟

الجوابُ

١ ـ الجوابُ عن السؤال الأول من أوجهٍ :

أ ـ إن الهاء في (إنه) يحتمل أن تعود علىٰ الرحمنِ ، ويحتمل أن تكون ضميرَ الشأنِ ، وهو ـ أي ضميرُ الشأنِ ـ يفيد تفخيمَ الوعدِ وتعظيمه .

ب ـ لو قال : (إن الرحمـٰن كان وعده مأتيًا) لفات تفخيمُ الوعدِ

وتعظيمه مع أن الوعدَ له شأنٌ كبيرٌ وظاهرٌ في السياقِ .

ج ـ ولو قال : (إن الرحمـٰن كان وعده مأتيًا) لفات التفخيمُ ؛ أي تفخيم الوعدِ من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرىٰ يكون الإخبار عن الوعدِ لا عن الرَّحمـٰنِ ، مع أن الكلامَ علىٰ الرَّحمن أيضاً كما هو علىٰ الوعدِ ، فقد ذكر أن الرَّحمـٰن وعد عبادَه ، وأن وعده مأتيٌّ ، وأنه يورث الجنة لعبادِهِ الأتقياءِ ، فقال : ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم : ٦٣] .

وعلىٰ هـٰذا فقد ذكر الرَّحمن ، وأعاد عليه الضَّميرَ أربع مراتٍ في الأقل .

الضَّميرُ في ﴿عِبَادَهُۥ﴾ ، والضَّمير في ﴿وَعْدُهُۥ﴾ ، والضَّمير المستتر في ﴿نُورِثُ﴾ ، والضَّمير في ﴿عِبَادِنَا﴾ ، مما يدل علىٰ أهميته في السِّياقِ .

د ـ في التَّعبيرِ الذي جاء في الآية تفخيمٌ وتعظيمٌ للرحمـٰن وللوعد كليهما ، وكل منهما له أهميته في السياقِ كما هو ظاهر ، ولو قال أي تعبيرٍ آخر لم يجمع المعنيين معاً .

٢ ـ أما بالنِّسبةِ إلىٰ السُّؤالِ الثاني فإن قوله : ﴿مَأْتِيًّا﴾ هو المناسبُ من أكثر من وجهٍ .

فإن المقصودَ بالوعدِ في الآية إنما هو الجنةُ ، قال تعالىٰ : ﴿ جَنَّـٰتِ

عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ وهم يأتونها[١] . قال تعالىٰ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ [الزمر : ٧٣] ، فهي مأتيةٌ .

هٰذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرىٰ أن هٰذا التعبيرَ يُفيد قوةَ الوعدِ ، وأنه ناجزٌ لا محالة ، فنحن نأتيه وهو يأتينا ، كما قال تعالىٰ : ﴿ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ [آل عمران : ١٥٤] ، أي : يمضون إلىٰ قدرِ ٱلله الذي قدَّره عليهم .

وقـال : ﴿ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ ﴾ [النساء : ٧٨] أي : يأتيهم ، فالقدرُ يأتي ويؤتىٰ ، كما قال الشاعر :

فهـنَّ المنـايـا أيّ وادٍ سلكتـه عليهـا طـريقـي أو علـيَّ طـريقهـا

وذٰلك أدلُّ علىٰ إنجازِ الوعدِ ؛ لأنه آتٍ ومأتيٌّ .

هٰذا مع أنه قيل أيضاً : إن (مأتي) هنا بمعنىٰ اسم الفاعلِ ، أي آتٍ[٢] ؛ كمـا قيـل فـي جملـةٍ مـن أسمـاءِ المفعـولِ نحـو : (حجـابـاً مستوراً) .

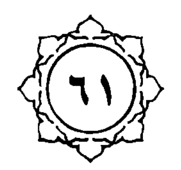
والأولىٰ عدم إخراج الصِّيغةِ عن الدَّلالةِ المشهورةِ لها ، ما دام يمكن حملها عليها .

* * *

---

(١) انظر : البحر المحيط (٧ / ٢٧٩) .

(٢) انظر : البحر المحيط (٧ / ٢٧٩) ، وانظر : شرح الرضي علىٰ الكافية (٣ / ٤١٥) .



قال تعالىٰ في سورةِ طه : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ﴾ [طه : ٣٨ ـ ٤٠] .

وقال في سورةِ القصصِ : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [القصص : ٧ ـ ١٣] .

سؤال

لماذا قال في سورةِ طه : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ﴾ ، وقال في سورةِ القصصِ : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ ﴾ ؟

الجواب

١ ـ الكلامُ في القصصِ مبنيٌّ علىٰ الجمعِ ، وفي طه علىٰ الإفرادِ .

فقد قال في القصصِ : ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ ، وقال في طه : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ ، فقوله في القصصِ : ﴿ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ ، وقوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا ﴾ جمعٌ بخلاف ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ ، فكان قوله : ﴿ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ ﴾ أنسب بالجمع ، وقوله : ﴿ مَن يَكْفُلُهُۥ ﴾ أنسب بالمفرد .

٢ ـ قال في القصصِ : ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ﴾ ، وامرأة الرجل أهله في اللغة[1] والقرآن . قال تعالىٰ في امرأةِ سيدنا إبراهيمَ بعد أن قالت : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [هود : ٧٢ ـ ٧٣] .

وقالت امرأةُ العزيزِ تكلِّم زوجها بخصوصِ سيدنا يوسفَ : ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ [يوسف : ٢٥] .

---

(١) انظر : لسان العرب (أهل) .

وامرأةُ فرعونَ أهلُ بيته ، فناسب أن تدلَّ أختُه أهلَ بيتِ فرعونَ علىٰ أهلِ بيتٍ يكفلونه ، وليس في طه مثل ذٰلك .

٣ ـ قال تعالىٰ في القصصِ : ﴿ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ ﴾ والراجحُ عند علماءِ اللغةِ أن أصلَ كلمةِ (آل) هو (أهل) أبدلت الهاء همزةً ثم ألفاً ؛ لاجتماع همزتين الأولىٰ مفتوحةٌ والثانية ساكنةٌ ، فإذا صغرت (آل) قيل : (أهيل)[1] .

فناسب ذكر الآل ذكر (أهل بيت) في القصصِ .

فآل فرعونَ هم أهله وخاصته ، فكان المناسب القول : ﴿ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٍ ﴾ ، وليس في طه مثلُ ذٰلك .

٤ ـ إن هـٰذا الجانب من القصةِ في سورةِ القصصِ أطول مما في طه ، كما هو واضح ، فهي في طه ثلاثُ آياتٍ ، وفي القصصِ سبعُ آياتٍ ، وقوله : ﴿ أَهۡلِ بَيۡتٍ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ أطول من قوله : ﴿ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ ﴾ ، فناسب الإيجازُ الإيجازَ ، والتبسطُ التبسطَ .

٥ ـ هـٰذا ومن جهةٍ أخرىٰ أن كلمةَ (أهل) وردت في القصصِ أكثر مما في طـٰه .

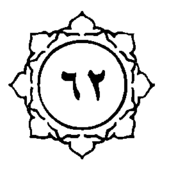
وأن كلمة (من) وردت في طه أكثر مما في القصص .

فقد وردت كلمة (أهل) في القصص سبعَ مراتٍ ، وفي طه أربعَ

(١) انظر : لسان العرب (أهل) .

مراتٍ ، وأن كلمة (من) وردت في طٰه (٢٤) أربعاً وعشرين مرةً ، ووردت في القصص (٢٠) عشرين مرةً ، فناسبَ كلَّ تعبيرٍ موضعه من أكثر من وجهٍ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ طـٰه : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٧٧] .

وقال في الشُّعراءِ : ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء : ٥٢] .

وقال في سورةِ الدُّخانِ : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان : ٢٣ ـ ٢٤] .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ الدُّخانِ : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾ فذكر اللَّيلَ ، ولم يقل مثل ذٰلك في آيتي الشُّعراءِ وطـٰه ؟

الجوابُ

إن الإسراءَ لا يكون إلا في اللَّيلِ سواء ذكر الليلَ أم لم يذكره ، فاللَّيلُ هنا هو ظرفٌ مؤكدٌ ، ولما أمر ربُّنا موسىٰ بالإسراءِ في آيتي الشُّعراءِ وطه ، علم أن ذٰلك إنما هو في اللَّيلِ .

وأما ذكرُ اللَّيل في الدُّخانِ وعدمُ ذكرِه في الآيتين الأخريينِ ، فلأكثر من سببٍ :

منها : أنه ذكر في الدخانِ من هـٰذا الأمرِ ما لم يذكره في الآيتين الأخريين ، وبيَّن فيها ما لم يُبينه في الموطنين الآخرين ، فقد ذكرَ في الدخانِ :

١ - أنهم متبعون .

٢ - وأن جندَ فرعونَ مغرقون .

ولم يذكر هـٰذين الأمرينِ في الموضعينِ الآخرين ، وإنما ذكر أحدهما في كلِّ موضعٍ ، فقد ذكر في الشعراءِ أنهم متبعون ، ولم يقلْ له : إنهم جندٌ مغرقون ، وإنما ذكر أنه لما تراءىٰ الجمعان قال أصحاب موسىٰ : إنّا لمدركون ، فنفىٰ موسىٰ ذٰلك بقوله : ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء : ٦٢] .

ولم يقلْ له في طه : إنهم متبعون ، وإنما ذكر له النجاة ، فقد قال له : ﴿ فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ [طه : ٧٧] ثم إنه ذكر بعد ذٰلك ما حصل .

ففصَّل وبيَّن في الدخانِ في تبليغه لموسىٰ ، ما لم يُفصله ويُبينه في الموطنين الآخرين .

ومنها : أن قوله : ﴿ لَيۡلًا﴾ ليس لمطلقِ التوكيدِ ، وإنما هو يدل علىٰ ليلةٍ بعينها ، فقولك : (جئت ليلاً) تريد فيه ليل ليلتك ، أو ليلةً بعينها[1] .

---

(١) انظر : سيبويه (١ / ١١٥) ، الأصول (١ / ٢٢٠) ، الأمالي الشجرية (٢ / ٢٥١) ، وانظر : معاني النحو (٢ / ٦١٢ ـ ٦١٣) .

ولو قلت : (جئت في ليلٍ) لم يتعيَّن ذاك .

فقوله : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾ يريد فيه تعيين الليلةِ التي أمر بالإسراءِ فيها .

وأما قوله : ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ فإنه أمر بالإسراء من دون تعيين الوقتِ ، فكان في الدخانِ : تعيين وقت الإسراءِ ، وبيان أنهم متبعون ، وأن جندَ فرعونَ جندٌ مغرقون ، فناسب تبيينُ الوقتِ ما ذكره من التبيينِ في التبليغِ .

وناسبَ عدمُ التبيينِ للوقت تحديداً عدم التبيينِ لشيءٍ مما سيقع في الموضعين الآخرين .

ومما زاد ذٰلك حُسناً في الدخانِ إضافةً إلىٰ ما ذكرنا أنه قال في أول السورة : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [٣ ـ ٦] .

فذكر الليلةَ التي يُفرق فيها كلُّ أمرٍ حكيمٍ ، فناسب ذٰلك ذكر الليل الذي فرّق فيها بين جندِ فرعونَ ، وأصحابِ موسىٰ فأغرق فرعونَ وجندَه ، ونجّىٰ موسىٰ ومَن معه .

وهو من لطيفِ التناسبِ يراعيه القرآنُ فيما تحسن فيه المراعاة .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ طه: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٣٠ ـ ١٣١] .

وقال في سورةِ قٓ : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ [قٓ : ٣٩ ـ ٤٠] .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ (طٰه) : ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ ﴾ ، وقال في آيةِ (قٓ) : ﴿ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ ؟

٢ ـ ولماذا قال في طه : ﴿ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ ﴾ ، بإطلاقِ التَّسبيحِ ، وقال في قٓ : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ بتخصيصِ التسبيحِ لله وذٰلك بذكرِ ضميرِه ؟

الجوابُ

١ ـ بالنِّسبة إلىٰ السؤالِ الأول ، فإن قوله في آيةِ طه : ﴿ وَقَبْلَ

﴿غُرُوبِهَا﴾ تنصيصٌ علىٰ غروبِ الشَّمسِ ، وذٰلك بذكرِ الضَّميرِ الذي يعود عليها .

وأما قوله في قٓ : ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ فإنه يدلُّ علىٰ غروبِ الشَّمسِ بدلالةِ السِّياقِ ، قيل : علىٰ تقديرِ ضميرٍ ، أو علىٰ قولِ مَن يرىٰ أن (أل) عوضٌ عن الضميرِ ، وذكروا منه قوله تعالىٰ : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات : ٤١] أي : مأواه أو المأوىٰ له[١] .

فكأنه أخرج (الغروب) في (قٓ) مخرجَ العمومِ ، وإن أريد به الخصوصُ . وكلٌّ تعبيرٍ مناسبٌ للسياقِ الذي ورد فيه .

فإن السِّياقَ في (طٰه) أُخرج مخرجَ الخصوصِ ، كما أنه ألصقَ بالشَّمسِ ، أما السِّياق في (قٓ) فقد أُخرج مخرجَ العمومِ وهو أبعدُ عن الشمسِ .

أما من حيث العمومِ في (قٓ) فمن ذٰلك ما ذكرناه في قوله : ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ من أنه أخرج مخرج العمومِ ، وإن كان الكلامُ علىٰ الخصوصِ تقديراً .

ومنه أنه قال في طه : ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ﴾ وقال في قٓ : ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ .

وآناءُ الليلِ ساعاته ، ولاشكَّ أن (الليل) أعمُّ من ساعاتِ الليلِ ،

---

(١) انظر : الأشموني (١ / ١٩٥ ـ ١٩٦) .

فكان الكلام في (قٓ) أُخرج مخرجَ العمومِ .

وأما من حيث إن السياقَ في طه ألصقُ بالشمسِ ، فإنه قال فيها : ﴿ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾ له علاقةٌ بالشَّمسِ ، شروقها وزوالها عند الظَّهيرةِ وغروبها ، ويكفي ذكرُ (النهار) الذي آيته الشَّمسُ .

وأما في (قٓ) فلم يذكر أمراً يتعلق بالشَّمسِ ولا بالنَّهارِ ، فقد قال : ﴿ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ وهٰذا ليس له علاقةٌ بالشَّمسِ ولا بالنهارِ .

فكان ذكرُ ضميرِ الشَّمسِ في (طه) أنسب مع السِّياقِ من ناحيتين :

ناحيةِ الخصوصِ ، وناحيةِ ماله علاقة بالشَّمسِ وهو أطرافُ النهارِ .

هٰذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرىٰ أن السياقَ في طٰه بعد ذٰلك عن الدُّنيا والحياةِ الدنيا والرزقِ ، فقد قال بعد الآيةِ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [١٣١] .

وأما السِّياقُ في (قٓ) بعد الآيةِ ففي الآخرةِ ، فقد قال بعد الآيةِ : ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [٤١ ـ ٤٤] .

فناسب فيها ذكر الغروبِ علىٰ العمومِ ، وهو غروبُ الشمسِ وذهابها وزوالها ، وغروبُ كلِّ شيءٍ مما يتعلق بأمرِ الدنيا من الكواكبِ والنجومِ والشَّمسِ والقمرِ ، فإخراجه مخرجَ العمومِ أنسبُ في (قٓ) .

هٰذا وإن ذكر الآخرةِ بعد قوله : ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ من لطيفِ المناسباتِ ، ذٰلك أن الآخرةَ ستكونُ أدبارَ السجودِ حيثُ لا يكون في الدنيا رجلٌ يقول : (لا إلـٰه إلا ٱلله) وليس فيها رجلٌ ساجدٌ .

فكان كلُّ تعبيرٍ في مكانهِ هو المناسبُ من كلِّ ناحيةٍ ، إضافةً إلىٰ فاصلةِ الآيةِ .

٢ ـ وأما الجوابُ عن السؤالِ الثاني ، فإنه أمَره في (قٓ) بنوعين من التسبيح :

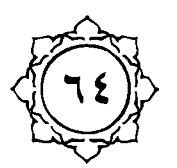
١ ـ التسبيحُ بحمدِ ربِّه .

٢ ـ تسبيحُ ٱلله نفسَه ، وذٰلك أنه قال : ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ أي : فسبِّح ٱلله ، أو فسبِّح ربَّك ، كما قال : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب : ٤١ ـ ٤٢] ، ذٰلك أنه قال فيها : ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ ومعلومٌ أنه بعد السجودِ يُسَنُّ للمصلي أن يُسبح ٱلله ، فيقول : (سبحان ٱلله) ثلاثاً وثلاثين مرة .

فناسب تسبيحُ ٱلله أدبارَ السجودِ .

ولما لم يرد في (طـٰه) نحو ذٰلك أطلق التسبيحَ فقال : ﴿فَسَبِّحْ﴾ وحذف المتعلق ليشمل عمومَ التسبيحِ ، وٱلله أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الحجِّ : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] .

سؤال

١ ـ لماذا قال : ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ فذكر وصفَ الضمور ؟

٢ ـ ولماذا وصف الفجَّ بالعمقِ ، ولم يصفه بالبعدِ مع أن معنىٰ (عميق) هنا (بعيد) ؟

الجواب

١ ـ أما بالنسبةِ إلىٰ السؤال الأول فإن معنىٰ الضَّامر هو المهزولُ الضَّعيفُ المنهوك من السَّفرِ ، وذكرُ هـٰذا الوصف هنا مناسبٌ من أكثر من جهةٍ .

منها : أنها تأتي من كل فجٍّ عميقٍ ؛ أي بعيدٍ ، والبعدُ هو الذي يُضمر الإبل والمطايا ، ولم يقل : (من كل فجٍّ) فحسب ؛ لأن ذٰلك يشمل البعيدَ والقريبَ فلا يناسب ذكر الضمورِ .

ومنها : أنه قال : ﴿ مِن كُلِّ فَجٍّ ﴾ ، وكلمة (فج) في الأصل هو

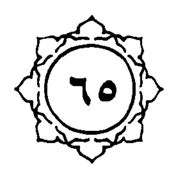
الطريق في الجبلِ ، وهو أنسب بالضُّمور من كلمةِ الطريقِ أو السَّبيلِ أو نحوه ؛ لأن السير في الجبلِ أدعىٰ إلىٰ التَّعب والمَشقة والضُّمور .

٢ ـ وأما اختيار كلمةِ (عميقٍ) علىٰ (بعيدٍ) فهو أنسب هنا من أكثر من جهةٍ أيضاً .

منها : أن اختيار كلمةِ (عميقٍ) علىٰ (بعيدٍ) أنسب مع ذكر الضُّمور ، ذٰلك أن العمق نقيض العلو والارتفاع ، وأن الصعود في السير أشق وأصعب من السير في الطريق المستوي ، فهو يضمر المطايا وينهكها .

ومنها : أن الحجَّ رفعةٌ وعلوٌّ في المنزلةِ عند ٱلله ؛ لأنه مدعاةٌ إلىٰ مغفرةِ الذنوبِ ، فالسالك في طريقِ الحجِّ آخذٌ بالارتفاعِ ، وسالك سبيلَ الصُّعودِ فناسبَ الوصفُ بالعمقِ من أكثر من جهةٍ ، وٱلله أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة النُّور: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥] .

سؤالٌ

لماذا أخبر ٱلله عن نفسه بأنه نورٌ ، ولم يُخبر بأنه ضياءٌ ، مع أن الضياء أقوىٰ من النورِ ، بدليلِ قولِه تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس : ٥] ؟

الجواب

ليس صحيحاً ما ذُكر من أنَّ الضياءَ أقوىٰ من النورِ ؛ لأن الضِّياء هو نورٌ ، غير أن النور أعمُّ من الضِّياءِ ، فكلُّ ضياءٍ هو نورٌ كما هو مُقررٌ في اللغة ، إن الضياء حالةٌ من حالاتِ النورِ وهو أخصُّ منه ، وذٰلك أن النورَ درجاتٌ بعضها أقوىٰ من بعضٍ ، فإذا كان في حالةٍ قويةٍ فهو ضياءٌ[١] ، فالضياء نور وليس غيره .

---

(١) انظر : تفسير الرازي (٦ / ٢٠٨ ـ ٢٠٩) .

وقيل : هما مترادفان ، جاء في (لسان العرب) : « النور : الضياء ، والنور : ضد الظلمة »[١] . وجاء في (تاج العروس) : « النُّور بالضمِّ الضوء أيًّا كان أو شعاعه وسطوعه . . .

وقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ وتخصيصُ الشمسِ بالضوءِ والقمرِ بالنورِ ، من حيث إن الضوء أخصُّ من النور »[٢] .

وجاء في (المفردات) للراغبِ الأصفهانيِّ : « النور : الضوء المنتشر الذي يُعين علىٰ الإبصار »[٣] .

وبهٰذا يتضح أن النور أعمُّ من الضياءِ ، وأن الضِّياءَ قسمٌ منه أو حالةٌ من حالاته .

وقد قابل ربنا الظلماتِ بالنورِ ، قال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام : ١] .

وقال : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

وسمىٰ الهدىٰ نوراً والضلالَ ظلماتٍ ، قال تعالىٰ : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم : ١] .

---

(١) لسان العرب (نور) ، وانظر : المصباح المنير (النور) .
(٢) تاج العروس (نور) .
(٣) المفردات (النور) .

وقال : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

وسمىٰ القرآن نوراً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ١٧٤] .

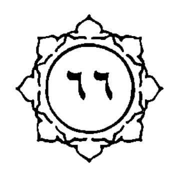
وقال : ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن : ٨] .

فسمّىٰ ٱلله نفسه نوراً لا ضياءً ؛ لأن الضياء حالةٌ من حالاتِ النور ، وهناك حالاتٌ من حالاتِ النور لا نعلمها ، ٱلله يعلمها هي أعلىٰ من الضياءِ ، وحالات من النورِ غير الضِّياء ، فلا يصح قصر المطلق علىٰ جزئية .

فٱلله هو النور المطلق ، « والنور المطلق هو ٱلله سبحانه »[1] . وٱلله أعلمُ .

* * *

(١) تفسير الرازي (٨ / ٣٨٣) .



قال تعالىٰ في سورةِ الأنبياءِ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء : ٤٨ ـ ٤٩] .

وقال في سورةِ المائدةِ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقال في سورةِ الأنعامِ : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ [الأنعام : ٩١] .

سؤالٌ

لماذا وصف التَّوراة بأنها (ضياء) في آية الأنبياء ، ووصفها بأنها (نورٌ) في آيتي المائدةِ والأنعامِ ؟

الجوابُ

إن النور أعمُّ من الضياءِ ، والضياء حالةٌ من حالاتِ النورِ وهو أخصُّ منه كما ذكرنا في النقطة السابقة .

وقد ذكر في آيةِ الأنبياءِ أنه : ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ ، وهم أخصُّ ممن ذُكر في الآيتين الأخريين .

فقد قال في آيةِ المائدةِ : ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي : لليهود ، والمتقون أخص من اليهودِ وهم جزءٌ منهم .

وقال في آيةِ الأنعامِ : ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [الأنعام : ٩١] . فجعله للناسِ ، وهم أعمُّ من المتقين المذكورين في آيةِ الأنبياءِ ، والمتقون جزءٌ منهم .

فجعل النورَ الذي هو أعمُّ من الضياءِ للذين هم أعمُّ ؛ وهم اليهود والناس ، وجعل الضياءَ الذي هو أخصُّ للذين هم أخصُّ ؛ وهم المتقون الذين يخشون ربهم ، وهم من الساعةِ مشفقون .

فناسب العمومُ العمومَ ، والخصوصُ الخصوصَ .

ومن ناحيةٍ أخرىٰ أن الضياء إنما هو الساطعُ من النورِ ، أو هو التامُّ منه[1] .

وإن المتقين إنما هم جماعةٌ ساطعةٌ من بين عمومِ المؤمنين أو الناسِ ، وحالهم أتمُّ وأكملُ ، فناسب بين سطوع المتقين وسطوع النور وهو الضياء ، فالمتقون من بين عمومِ المؤمنين كالضياءِ من النورِ .

جاء في (الكشاف) في قولِه تعالىٰ : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ

(١) انظر : تفسير الرازي (٦ / ٢٠٩) .

نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة : ١٧] .

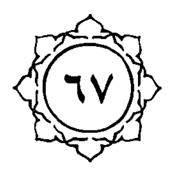
« النار : جوهرٌ لطيفٌ مضيءٌ حارٌّ محرقٌ ، والنورُ ضوءُها ، وضوء كلِّ نيّرٍ ، وهو نقيضُ الظلمةِ . . . والإضاءة فرطُ الإنارةِ ، ومصداقُ ذٰلك قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ . . .

فإن قلت : هلا قيل : (ذهب ٱلله بضوئهم) لقوله : ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ ﴾ ؟

قلت : ذكر النور أبلغ ؛ لأن الضَّوء فيه دَلالةٌ علىٰ الزيادةِ فلو قيل : (ذهب ٱلله بضوئهم) لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمىٰ نوراً ، والغرضُ إزالةُ النورِ عنهم رأساً وطمسُه أصلاً . ألا ترىٰ كيف ذكر عقيبه : ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ ﴾ ، والظُّلمةُ عبارةٌ عن عدمِ النورِ وانطماسه ، وكيف جمعها ، وكيف نكَّرها ، وكيف أتبعها ، ما يدل علىٰ أنها ظلمةٌ مبهمةٌ لا يتراءىٰ فيها شبحان ، وهو قوله : ﴿ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ »[١] .

* * *

(١) الكشاف (١ / ١٥١ ـ ١٥٤) .



قال تعالىٰ في سورةِ العنكبوتِ في سيدنا نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٥] .

وفي آيات أخرىٰ سماها الفلك ، فقال : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ [الأعراف : ٦٤] .

وقال : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [الشعراء : ١١٩] ، فما السبب ؟

الجوابُ

السَّفينة هي الفلك ، غير أن العرب استعملتِ السَّفينة خاصةً بالمفردةِ المؤنثةِ .

أما الفلك فقد استعملتها عامةً ، فقد استعملتها للواحدِ والاثنينِ والجمعِ ، واستعملتها مذكرةً ومؤنثةً ، فتقول للواحد : (فُلك) تؤنثه وتذكِّره ، وتقول للجمع أيضاً : (فُلك) ، وكذا استعمله القرآن .

قال تعالىٰ : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [المؤمنون : ٢٧] ،

فجعلها مفردةً مؤنثةً ، فقد قال : ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ .

وقال : ﴿ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ . . ﴾ وقال : ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود : ٤٢] ، وهي في ذٰلك كله مؤنثةٌ .

وقال : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء : ١١٩] .

وقال : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [الصافات : ١٣٩ ـ ١٤٠] .

فقال : ﴿ ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ فجعلها مفردةً مُذكرةً .

وقال : ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر : ١٢] ، فقال : ﴿ مَوَاخِرَ﴾ فجعلها جمعاً .

وقال : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس : ٢٢] ، فقال : ﴿وَجَرَيْنَ﴾ فجمع وأنَّث[١] .

وقد تقول : ولِمَ استعملها القرآن مُذكرةً أحياناً ، ومُؤنثةً أحياناً أخرىٰ ؟

فنقول : إنه استعملها مذكرةً في حالةِ ملئِها بالحمل ، ولم يستعملها في غير ذٰلك ؛ ذٰلك لأن التذكير أقوىٰ من التأنيث ، وأن المذكر أقوىٰ من المؤنث ، قال تعالىٰ : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [الشعراء : ١١٩] .

---

(١) انظر : لسان العرب (فلك) .

وقال : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [يس : ٤١] ، و : (المشحون) معناه : المملوء ، « والشحن ملؤك السفينة وإتمامُك جهازها كله ، شحن السفينة يشحنها شحناً : ملأها »[1] ، فشحنُ السفينةِ ملؤها كلها .

ولذا عندما ذكر سيدنا يونس ، فقال : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الصافات : ١٣٩ ـ ١٤٢] .

أفاد أنه أُلقي في البحرِ ؛ لأن السَّفينة كانت ملأىٰ ولابد أن يخفَّف من حملها ، فوقعتِ القرعةُ عليه فالتقمه الحوت ، فلما ذكر أثقل حالاتها حملاً ذكرها مذكَّرةً .

قد تقول : ولٰكنه ذكر حالاتٍ أخرىٰ تدلُّ علىٰ الملء ، ولم يستعملها مذكّرةً ، وذٰلك قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود : ٤٠] ، وقوله : ﴿ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢٧] .

فنقول : إن الآيتين لا تدلان علىٰ الملء ، فهو لم يقل إنها مملوءة ، فقد أمره في آيةِ هودٍ أن يحمل من كل زوجين اثنين ، وأهله

---

(١) لسان العرب (شحن) .

ومَن آمن ، وقد ذكر أنهم قلّة ، فقال : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

ومما يدلُّ علىٰ أن في السفينةِ متسعاً ، أنه نادىٰ ابنه فقال : ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا ﴾ [هود : ٤٢] .

وأما آية (المؤمنون) فقد ذكر أنه أمره أن يسلك فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهله ، ولم يذكر مَن آمن ، فلم يصرِّح بالملء بخلافِ التَّصريحِ بالشَّحنِ ، وقيل : إن تأنيثها وتذكيرها كأنه « يذهب بها إذا كانت واحدةً إلىٰ المركبِ فيذكّر ، وإلىٰ السَّفينة فيؤنث »[١] .

ثم نأتي إلىٰ السَّفينةِ والفلكِ في السؤالِ فنقول :

إن السَّفينة من السَّفْن وهو القَشْر ، ومعنىٰ (سفن الشيء) قشره ، وسميت السَّفينة ؛ لأنها تسفن وجه الماء أي : تقشره[٢] .

وأما الفُلك فكأنها سُميت بذٰلك ؛ لأنها تركب الفَلَك ، ومن معاني (الفَلَك) بفتحِ الفاءِ واللام : موجَ البحرِ إذا ماجَ واضطربَ ، ومن معانيه : الماء الذي حركته الريحُ ، وفَلَك البحرِ : موجه المستديرُ المترددُ[٣] ، فكأنها سُميت بذٰلك لما كانت تركب الموج ، وما ذكرناه في معنىٰ الفلكِ .

وقد بيّنا أن (الفُلك) أعمُّ من السفينةِ في الاستعمالِ اللغوي ؛ لأنه

(١) لسان العرب (فلك) .
(٢) انظر : لسان العرب (سفن) .
(٣) انظر : لسان العرب (فلك) .

يذكّر ويؤنث ، ويكون للواحد وغيره بخلافِ السفينةِ ، فإنها مفردةٌ مؤنثةٌ ، فهي مختصةٌ .

وقد استعمل القرآن السَّفينةَ في مقامِ التَّخصيصِ فقط مناسبةً لمعناها اللُّغوي ، وبخلاف الفلك فقد استعملها عامةً وخاصةً .

١ ـ فقد استعمل السَّفينة في المملوكةِ دون غيرِها ، فقد قال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ [الكهف : ٧١] ، وهـٰذه السَّفينة كانت لمساكينَ يعملون في البحر ، كما جاء في السورة [الكهف : ٧١] .

ثم قال : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف : ٧٩] ، أي : يأخذها غصباً من مالكِها .

فالسفينة في القرآنِ لم تُستعمل إلا في سفينةِ نوحٍ ، وهي المذكورة في آيةِ العنكبوتِ ، وفي هـٰذه السفن المذكورة في سورةِ الكهفِ ، وهي مملوكة لمساكين أو لآخرين في ذٰلك العهدِ .

وهي علىٰ أيةِ حالٍ خاصةٌ بمالك أو خاصةٌ بعهد معين هو عهد الملك المغتصب ، أو هي فلك نوح .

وأما الفلك فهي قد تكون خاصةً كما في فلكِ نوحٍ ، وقد تكون مطلقةً تصلح لجميعِ الأزمنةِ ، وذٰلك نحو قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان : ٣١] .

وقوله : ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الجاثية : ١٢] .

وقوله : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم : ٤٦] .

٢ ـ ومِن استعمالها مختصة أنه ذكر معها الأصحابَ في قصةِ نوحٍ ، فقال : ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ وكلمةُ الأصحابِ قد تأتي بمعنىٰ المالكين ، وإن لم تكن كذٰلك في قصةِ نوحٍ ، وإنما هي علىٰ تقدير (في) أي : وأصحابه في السَّفينة ، مثل : ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ﴾ أو تكون الإضافة لأدنىٰ ملابسةٍ ، فناسب ذكرُ الأصحابِ استعمالها مملوكةً في السِّياقاتِ الأخرىٰ ، فكانت في كل استعمالاتها مملوكةً أو كالمملوكةِ .

٣ ـ ومن لطيفِ الاستعمالِ أنه مع ذكرِ السَّفينةِ التي هي خاصةٌ ، ذكر المدة التي لبثها سيدنا نوح وخصصها ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٤] ، فذكره وخصصه مع ذكرِ السفينةِ التي هي أخصُّ من الفلكِ .

٤ ـ ثم إنه قال في السفينةِ المذكورةِ في آيةِ العنكبوتِ ، وهي سفينةُ نوحٍ : ﴿ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي : جعل السفينة هٰذه آية ، ولو ذكر مكانها الفلك لم يدل نصًّا علىٰ أن المقصود به الفلك الذي صنعه نوحٌ ، بل يحتمل أن المقصود به عمومُ الفلكِ الذي يركبه الناس ، وقد ذكره ربنا ، وذكر أنه آيةٌ من آياته في أكثر من موضعٍ ، فقال : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ

دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

وقال : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم : ٤٦] فذكر أنه من آياته .

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [لقمان : ٣١] .

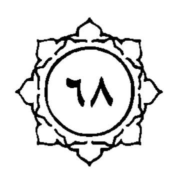
وقال : ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٢ ـ ١٣] .

فلو ذكر الفلكَ أيضاً في آيةِ العنكبوتِ لاحتمل أن المقصود نحو ما ذكره في آياتٍ أخرىٰ في الفلكِ ، ولم ينصَّ علىٰ أنه سفينةُ نوحٍ .

فاستعمل السَّفينة التي هي ـ خاصةٌ في اللُّغةِ ـ خاصَّةٌ بسفينةِ نوحٍ أو خاصَّةٌ بمالكين أو خاصَّةٌ بعهد معين ، وخصَّص معها مدة لبثِ نوحٍ ، وخصصها بأنها آيةٌ للعالمين .

فما أَجَلَّ هـٰذا التَّناسب وألطفه !

* * *



قال تعالىٰ في سورة العنكبوت : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

وقال : ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ﴾ [الملك : ١٥] .

سؤالٌ

لماذا قال في آيةِ العنكبوتِ : ﴿ سِيرُوا۟ ﴾ ، وقال في سورةِ الملكِ : ﴿ فَٱمْشُوا۟ ﴾ ، وما الفرق بين السيرِ والمشي ؟

الجوابُ

يقال : (سار القومُ) « إذا امتد بهم السيرُ في جهةٍ ما توجهوا إليها »[1] ، أما المشي فلانتقال الخطىٰ وإن كانت قليلةً .

والسير قد يكون للسفرِ وللتجارةِ والضربِ في الأرض ، وللاعتبار والاتعاظ ، ولغير ذٰلك علىٰ أن يكون ممتدًّا .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ

---

(١) لسان العرب (سير) .

﴿ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص : ٢٩] ، وهو سير ممتدٌ للعودةِ إلىٰ مصرَ .

وقال : ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ : ١٨] ، وهو سيرٌ متطاولٌ ممتدٌ يستغرقُ ليالي وأياماً ، كما ذكر ربنا .

وقال : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج : ٤٦] ، وهو سيرٌ للعبرةِ .

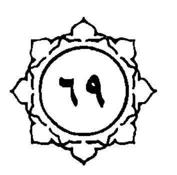
ونحوه قوله : ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

أما المشي فيكون علىٰ الأرجلِ وإن كان قليلاً ، قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان : ١٨] .

وقال : ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص : ٢٥] .

وقال : ﴿إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان : ٢٠] .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ العنكبوتِ : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [العنكبوت : ٢٢] .

وقال في سورةِ الشورىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورىٰ : ٣١] .

سؤالٌ

لماذا قال في سورةِ العنكبوتِ : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ فذكر السماءَ إضافةً إلىٰ الأرضِ .

وقال في سورة الشورىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فذكر الأرضَ ، ولم يذكرِ السماءَ ؟

الجوابُ

إن التهديدَ والتوعدَ في العنكبوت أشدُّ وأعمُّ ، وذٰلك أن السياق في العنكبوت يختلف عمّا في الشورىٰ من أكثر من جهةٍ منها :

١ ـ أن الكلام في العنكبوتِ إنما هو علىٰ الكفارِ وتهديدهم ، وتوعدهم ، وذٰلك من مثل قوله : ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا

وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ [١٧] .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [٢٣] .

وأما الكلام في الشُّورىٰ فأكثره في المؤمنين أو هو عامٌّ ، وذٰلك من مثلِ قولِهِ : ﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [٢٣] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ [٢٥] .

وقوله : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ [٢٧] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ [٢٨] فناسب أن يكون التهديدُ في العنكبوتِ أشدَّ .

٢ ـ إن جوَّ سورةِ العنكبوتِ إنما هو في ذكرِ الأممِ الكافرةِ ، وموقفهم من رسلهم وعقوباتهم ، فقد ذكر قومَ نوحٍ ، وقومَ إبراهيمَ ، وقومَ لوطٍ ، وذكر مدينَ وعاداً وثمودَ ، وقارونَ وفرعونَ وهامانَ ، فناسب ذٰلك شدةَ التَّهديدِ والتَّحذيرِ فيها ، ولم يذكر شيئاً من ذٰلك في الشُّورىٰ .

٣ ـ قال تعالىٰ قبل آيةِ العنكبوتِ هٰذه : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٢٠] .

وقال في الشُّورىٰ : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا

﴿مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ [٢٩] .

فقال في آيةِ العنكبوتِ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ، وقال في الشورىٰ : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ .

فذكر قدرته في العنكبوتِ بما هو أعمُّ وأشملُ ، فقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ، وذكر شيئاً من مظاهرِ قدرته في الشورىٰ ، فقال : ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ فذكر جمع مَن في السمواتِ والأرضِ .

وهـٰذا ولا شكَّ جزءٌ من قدرته ، فهو يدخل في قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ .

فذكر في العنكبوتِ ما هو أعمُّ مما في الشورىٰ ، وهو السَّماء والأرض ، وذكر جزءاً من ذٰلك في الشُّورىٰ ، وهو الأرض ، فناسب العمومُ العمومَ ، والتَّخصيصُ التَّخصيصَ .

٤ ـ ذكر في الشُّورىٰ من مظاهرِ مغفرتِهِ وعفوِهِ ولطفِهِ ما لم يذكره في العنكبوت ، فقد قال في الشُّورىٰ : ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [٥] ، وهـٰذا من رحمةِ ٱلله بمن في الأرضِ ، فقد جعلَ الملائكةَ يستغفرون لهم .

وقال : ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [٥] .

وقال : ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [١٩] ، وقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ [٢٣] ، وقال : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [٢٥] ، وقال : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [٢٨] ، وقال : ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [٣٠] ، وقال أيضاً :

﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ [٣٤] ، ولم يرد في العنكبوتِ ذكرٌ للمغفرةِ أو العفوِ ، وإنما ذُكرَ التهديدُ والتوعدُ من مثل قوله : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [٢] ، وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [٤] ، وقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٥٣] ، وقوله : ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [٦٦] .

فناسب التوعدُ الشديدُ والتهديدُ ما في العنكبوت .

جاء في (ملاك التأويل) : « للسائل أن يسأل عن زيادةِ الواردِ في سورةِ العنكبوتِ ، من قوله : ﴿ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ ﴾ ولم يرد ذٰلك في سورةِ الشورىٰ .

والجواب عنه ـ وٱلله أعلمُ ـ أنه لما تقدَّم قبلها قوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ ﴾ وهـٰذا من أشدِّ الوعيدِ ، إذ حاصله أنه لا يفوته سبحانه أحد ، وأنه لا مهرب منه إلا إليه ، ناسب هـٰذا قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ ﴾ كما قال : ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ ﴾ [البقرة : ١٤٨] ، إلىٰ ما ورد من هـٰذا وذٰلك تناسبٌ بيِّنٌ .

ولما لم يرد في سورةِ الشورىٰ من أولها إلىٰ الآية مثل هـٰذا الوعيدِ الشديدِ ، ولا كان فيها ما يستدعي هـٰذا التعميمَ والاستيفاءَ الوعيدي ، وردت الآية مناسبةً لذٰلك ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۖ ﴾

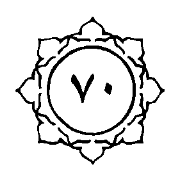
ولـم يكـنِ التعميمُ هنا ليناسب ، فورد كل علىٰ ما يجب وٱلله سبحانه أعلم »[١] .

٥ ـ إن كلمـة (الأرض) وردت فـي الشـورىٰ أكثـر ممـا فـي العنكبـوت ، فقـد وردت فـي العنكبـوت خمسَ مـراتٍ ، ووردت فـي الشورىٰ عشرَ مراتٍ ، فناسب الاقتصارُ علىٰ ذكرِ الأرضِ في الشورىٰ من هـٰذه الجهةِ .

٦ ـ إن كلمة السماءِ وردت في العنكبوتِ ثلاثَ مراتٍ ، ولم ترد في الشورىٰ ، فناسب ذكر السماء إضافةً إلىٰ الأرضِ في العنكبوت من جهةٍ أخرىٰ ، فناسب كلُّ تعبيرٍ موضعه الذي ورد فيه من كلِّ جهةٍ ، وٱلله أعلمُ .

* * *

(١) ملاك التأويل (٢ / ٧٦٧) .



قال تعالىٰ في سورةِ العنكبوتِ: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ ﴾ [العنكبوت : ٣٨ ـ ٤٠] .

وقال في سورةِ غافر : ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : ٢٤] .

سؤالٌ

لماذا قدَّم (قارون) علىٰ فرعون وهامان في العنكبوتِ ، وأخَّره عنهما في غافر ؟

الجوابُ

إنه قال عن قوم ثمودَ : إنهم كانوا مستبصرين ، وكذلك قارون كان مُستبصراً أيضاً ؛ لأنه كان من قومِ موسىٰ ، فبغىٰ عليهم ، كما قال ربُّنا

عنه [القصص : ٧٦] فناسب ذكره بعد ثمودَ ، وأما فرعون وهامان فلم يذكر ذلك عنهما .

ثم إن تقديم (قارون) في سورةِ العنكبوتِ مناسبٌ لما ورد في السورةِ من بسط الرزقِ ، فقد قال : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [٦٢] .

وقارون بُسط له في رزقِهِ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ [القصص : ٧٦] .

وقد ذكر العقوبات في سورةِ العنكبوتِ مُرتبة بحسبِ المذكورين ، فقد قال : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ ﴾ .

فقوله : ﴿ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ يعني عاداً ، وقوله : ﴿ مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ يعني ثمودَ ، وقوله : ﴿ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ يعني قارونَ ، وقوله : ﴿ مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ ﴾ يعني فرعونَ .

وأما في سورة غافر ، فقد قال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ والإرسالُ كان إلىٰ فرعونَ أولاً .

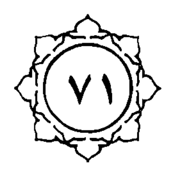
ثم إن السياقَ في الكلام علىٰ فرعونَ أولاً ، فقد قال : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ . . . وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ . . . قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [٢٦ وما بعدها] . وغير ذلك ، فناسب تقديمُ فرعونَ في غافر .

ومن ناحيةٍ أخرىٰ أن المذكور آخراً في هـٰذين الموضعين ، لم يرد بشأنه شيءٌ في السورةِ .

فآخر مَن ذُكر في العنكبوت (هامان) ولم يرد بشأنه شيءٌ في السورةِ ، وأما مَن قبله فقد ذكر عقوبته .

وآخر مَن ذُكر في غافر : (قارون) ولم يرد بشأنه شيءٌ في السورةِ ، وأما (هامان) فقد ورد له ذكرٌ في غافر ، فقد قال فيه : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴾ [٣٦] .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الأحزابِ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢٦ ـ ٢٧] .

سؤالٌ

لماذا قدَّم الفريق في قوله : ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ وأخَّره في قوله : ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ ؟

الجوابُ

أما تقديم الفريق علىٰ ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ فإنه هو المناسبُ ، ذٰلك أن هٰذه من أندرِ حالاتِ القتلِ وأغربِها ، وأنها تستدعي التقديمَ للاهتمامِ ، ذٰلك أن المرء يقاتل إما دفاعاً عن نفسِه ، أو عن أهلِه وذريته ، أو عن مالِه ، أو عن دارِه ، أو عن أرضِه .

إذ إن كلَّ واحدٍ من هٰذه الأمورِ يستوجب الدفاعَ عنه والقتالَ دونه ، فكيف إذا اجتمعت كلها ؟

وهـٰؤلاء لم يقاتلوا مع موجب أحوالِ الدِّفاعِ كلها ، مع أنهم بأيديهم سلاحهم ، وقد كانوا في حصونِهم ، بل نزلوا مستسلمين للقتلِ ملقين سلاحهم ، ولم يدافعوا عن شيءٍ من كلِّ ذٰلك ، وقد كانوا ستمئة مقاتلٍ .

وهـٰذا يُبين مقدار الرعبِ الذي قُذف في قلوبهم .

فتخيل أن رجلاً يُنادي علىٰ رجلٍ في حصنه معه سلاحه ، فيقول له : انزل إليّ ، وألق سلاحك ، فأنا سأقتلك ، وأسبي أهلك وذريتك ، وآخذ دارك ومالك وأرضك ، أفترىٰ أنه فاعلٌ ذٰلك وهو مقتولٌ لا محالةَ ؟

فهـٰذا هو حال هـٰؤلاءِ من بني قريظة .

فاقتضىٰ ذٰلك تقديم هـٰذا الفريق ؛ لغرابة حالِه .

أما الفريقُ المأسورُ فلا يستدعي تقديمه وهي حالةٌ غير مُستغربةٍ ، ولا تستدعي الاهتمامَ ، فإنهم أطفالٌ ونساءٌ وليس فيهم مقاتلٌ .

فلا شكَّ أن أسرهم سهلٌ وميسورٌ فلا يقتضي التقديم .

* * *



قال تعالىٰ في سورة الأحزاب : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

سؤالٌ

لماذا ذكر الجبال بعدَ الأرضِ وهي جزءٌ منها ؟

الجوابُ

إن هـٰذا من بابِ عطفِ الخاصِّ علىٰ العامِّ ، وذٰلك لعظم خلقها ، فهي أعظم ما في الأرض .

وهـٰذا النوع من العطفِ غير عزيزٍ في اللغة ، فإنه يعطف الخاصَّ علىٰ العامِّ لأهمية المعطوفِ ، وذٰلك نحو قوله تعالىٰ : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] ، فعطف الصلاة الوسطىٰ علىٰ الصلواتِ ؛ وذٰلك لأهميةِ الحفاظِ علىٰ هـٰذهِ الصلاةِ .

ونحو قوله تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٩٨] ، فعطف جبريل

وميكالَ ، وهما من الملائكة ؛ وذلك لتعظيمِ منزلتِهما عند ٱلله .

ثم إن الجبال ليست خاصةً بالأرضِ ، فهي موجودة في قسمٍ من الأجرامِ السماويةِ ، وعلىٰ هـٰذا فإن ذكرها أفاد ما لم يُفده ذكر الأرضِ ، فربما عرض ٱلله الأمانة علىٰ السمواتِ والأرضِ وعلىٰ الجبالِ ، أينما كانت سواء كانت في الأرض أم في غيرها .

ثم إن ذكرها بعد ذكرِ الأرضِ فيه إشارةٌ إلىٰ أمرٍ آخرَ لطيفٍ ، ذلك أن الجبال إنما هي رواسٍ للأرض ؛ لئلا تميد بنا ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ [الأنبياء : ٣١] ، ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل : ١٥] .

وهـٰذه الأمانةُ كالجبالِ رواسٍ للإنسانِ تثبته ؛ لئلا تميد به الأهواءُ وتعصف به الشهواتُ ، بل هي تُثبته في الدنيا والآخرةِ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] ، وهي أدومُ من الأرضِ والجبالِ ؛ بل هي أدوم من السمـٰوات ، فإن الأرض ستزولُ والجبالُ ستُنسف ، والسمـٰوات ستُبدل ، أما هـٰذه الأمانة فإنها باقيةٌ تثبته في الحياةِ الدنيا ، وتُثبته في الآخرةِ ، وتُثبته علىٰ الصراطِ ؛ لئلا يسقط في جهنم .

فذكر الجبال ههنا بعد ذكرِ الأرضِ من لطيفِ المناسباتِ .

* * *



قال تعالىٰ في الآيةِ السادسةِ والثلاثين من سورةِ سبأ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ : ٣٦] .

وقال في الآيةِ التاسعةِ والثلاثين من السُّورة نفسِها : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ : ٣٩] .

سؤالٌ

١ ـ لماذا قال في الآيةِ السادسةِ والثلاثين : ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ولم يقل : (له) ، وقال في الآيةِ التاسعةِ والثلاثين : ﴿ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ ؟

٢ ـ ولماذا قال في الآيةِ التاسعةِ والثلاثين : ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ولم يقل مثل ذٰلك في الآية السادسة والثلاثين ؟

الجوابُ

١ ـ بالنسبةِ إلىٰ السؤال الأول ، فقد ذكر ربُّنا في السُّورةِ قسمين من العباد :

قسماً بسط ٱلله لهم الرِّزقَ ، ولم يقدره لهم .

وقسماً بسط ٱلله لهم الرِّزق ، ثم قدره لهم ؛ أي ضيَّقه .

فذكرَ كلَّ آيةٍ لمناسبةِ كلِّ قسمٍ ، وإليك إيضاحُ ذٰلك :

لقد ذكر من الذين بسط لهم الرزقُ ، ولم يضيِّق عليهم نبي ٱلله داود ، ونبيه سليمان ، فقد ذكر أن ٱلله آتاهما فضلاً ، ولم يُضيق عليهما ، فهما ملكان عظيمانِ في بني إسرائيلَ ، إلىٰ أن توفاهما ٱلله .

ومن الذين بسط لهم رزقهمْ ، ولم يقدره لهم المذكورون في قوله : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [٣٤ ـ ٣٥] .

وهـٰؤلاء ممن بسط لهم الرِّزقَ ، فقد ذكر أنهم مُترفون ، والمُترفُ مبسوطٌ له في رزقِه ، وذكر أنهم قالوا : ﴿ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا ﴾ ، فهـٰؤلاء ممن بسط لهم في رزقهم ، ولم يذكرْ أنه ضيَّقه عليهم ، وقد قال بعدَ هـٰذه الآيةِ :

﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ فذكر أن ربَّك يبسط الرزقَ ويقدر ، ولـٰكن لم يذكر أنه يقدر لمن بسطَ له ، فقد يقدر له أو لغيره .

وقد ذكر في السُّورةِ أيضاً قوماً بسطَ لهم في رزقِهم ، ثم ضيَّقه عليهم ، وهو ما ذكره عن سبأ ، فقال : ﴿ لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ﴾ [١٥] ، وهـٰذا زمنُ البسطِ .

ثم قال : ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [١٦ ـ ١٧] ، فضيَّق عليهم بعدَ البسطِ .

فالأولون بسطَ لهم في رزقِهم ، ولم يقدره لهم .

والآخرون بسط لهم في رزقهم ، ثم قدره لهم .

فناسبت كلُّ آيةٍ قسماً من المذكورين في السُّورةِ .

٢ ـ وأما ذكر ﴿ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ في الآيةِ الثانيةِ دون الأولىٰ ، فقد قيل : إن الآيةَ الأولىٰ في الكافرين ، وإن الآيةَ الثانيةَ في المؤمنين ، وقوله : ﴿ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ مُشعرٌ بذٰلك .

جاء في (البرهان في متشابه القرآن) أنه : « لم يذكر مع الأول : (من عباده) لأن المرادَ بهم الكفارُ ، وذكر مع الثاني ؛ لأنهم المؤمنون »[١] .

وجاء في (البحر المحيط) : « ومعنىٰ ﴿ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ أي : يأتي بالخُلف والعوضِ منه ، وكانت لفظة ﴿ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ مشعرةً بالمؤمنين ، وكذٰلك الخطاب في : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم ﴾ يقصد هنا رزقُ المؤمنين »[٢] .

هٰذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرىٰ أن خاتمة كلِّ آيةٍ من الآيتين تبين مناسبةَ كلِّ تعبيرٍ لما ورد فيه .

---

(١) البرهان (٢٧٩) .

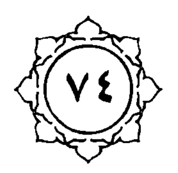
(٢) البحر المحيط (٧ / ٢٨٦) .

فإنه ختم الآيةَ الأولىٰ بالكلام علىٰ الناسِ ، فقال : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ والناس عموم .

وختم الآيةَ الثانية بالمؤمنين المنفقين ، فقال : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ وهم أخصُّ من الأولين فإنهم جزءٌ من الناس .

فأطلق في الآيةِ الأولىٰ مناسبةً للعمومِ ، فلم يقل : (من عباده) ، وخصصَ في الآيةِ الثانيةِ مناسبةً للخصوصِ ، فقال : ﴿ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ﴾ ، فناسب العمومُ العمومَ والخصوصُ الخصوصَ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة فاطر : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر : ٢٩] .

سؤالٌ

لماذا جاء بالفعلِ ﴿ يَتْلُونَ ﴾ مُضارعاً ، وبالفعلين : ﴿ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ و ﴿ أَنفَقُوا۟ ﴾ ماضيين ؟ وما سرُّ هـٰذا الترتيبِ ؟

الجوابُ

جاء بالفعل ﴿ يَتْلُونَ ﴾ مضارعاً للدلالةِ علىٰ الاستمرارِ والتجددِ ؛ لأنه أكثر مما بعده ، فإن الذين يُقيمون الصلاةَ لابد أن يتلوا فيها كتابَ ٱلله ، ولا تكون صلاةٌ من غيرِ تلاوةٍ .

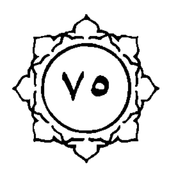
والتلاوةُ قد تكون في غيرِ الصلاةِ ، ولا يُشترط فيها ما يُشترط في الصلاةِ من وضوءٍ أو استقبالِ قبلةٍ أو أوقاتٍ معينةٍ ، فهي أكثرُ من الصلاةِ ، وهي لاشكَّ أكثرُ من الإنفاقِ .

فجاء بالفعل فيها مضارعاً للدَّلالةِ علىٰ الاستمرارِ والتَّجددِ .

وأما سرُّ الترتيبِ في الآيةِ فهو واضحٌ ، فإنه تدرجٌ من الكثرةِ إلىٰ القلَّةِ ، فالتلاوةُ أكثرُ من الصلاةِ كما ذكرنا ، والصلاةُ أكثرُ من الإنفاقِ ، فإن الصَّلاةَ المكتوبةَ فقط خمسةُ أوقاتٍ في اليومِ والليلةِ عدا السننِ ، والإنفاقُ لا يكون بهـٰذه الكثرةِ .

هـٰذا إضافةً إلىٰ أن الصَّلاةَ فرضٌ علىٰ الجميعِ بخلاف الإنفاق ، فإن كثيراً من المصلين لا يجب عليهم إنفاقٌ ، وإنما قد تُصرف إليهم بعضُ وجوهِ الإنفاقِ كما هو معلومٌ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ يـسٓ : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يـس : ٥١] .

سؤالٌ

لماذا قال : ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ ولم يقل : (من القبور) ؟

الجوابُ

الأجداثُ هي القبورُ إلا أنه ـ واللهُ أعلمُ ـ كان لاختيارِ الأجداثِ هـٰهنا وفي موطنين آخرين سبب ، ذٰلك أن الأجداثَ جمع جَدَثٍ وهو القبرُ ، ولفظة (الجدَث) قريبةٌ في اللفظِ والاشتقاقِ من لفظ (جَدَثة) وليس بينهما إلا زيادةُ الهاءِ في الآخرِ .

والجَدَثةُ صوتُ الحافرِ والخفِّ ومضغ اللحمِ[1] .

وصوت خروجِ الموتىٰ من الأجداثِ مُسرعين شبيهٌ بصوت الحافرِ

---

(١) انظر : القاموس المحيط (الجدث) .

والخفِّ عند السيرِ والعَدْوِ ، وقد خصَّ استعمالُ الأجداثِ بحالةِ الخروجِ من القبورِ مُسرعين إلىٰ المحشرِ .

قال تعالىٰ : ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر : ٧] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : ٤٣] ، ولم يستعملها في حالةِ السُّكونِ بخلافِ لفظةِ : (القبور) فإنه استعملها في حالِ السكونِ والهمودِ ، كقوله تعالىٰ : ﴿ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ [الممتحنة : ١٣] ، وقوله : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر : ٢٢] .

واستعملها في حالِ بعثرتِها وبعثرةِ ما فيها ، فقال : ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار : ٤] ، وقال : ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [العاديات : ٩] .

ومع ذٰلك فإن هناك فرقاً بين الحالتين ، فقولُه : ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ لا يدلُّ إلا علىٰ بعثرةِ القبورِ ، كما تقول : (بُعثرت الصناديقُ) ، و(بعثرت الحاجاتُ) ، ولا يدل علىٰ السيرِ والحركةِ ، وإن كان المقصود من بعثرةِ القبورِ ذٰلك .

وكذٰلك قوله : ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ فإنه يدل علىٰ بعثرةِ ما فيها كما تُبعثر الأشياءُ من مكانِها ، ولا يدلُّ ذٰلك من حيث اللفظ إلا علىٰ البعثرةِ ، ولا يدلُّ علىٰ السَّيْر والحركةِ ، بخلافِ ما ورد في استعمالِ الأجداثِ ؛ فإنها كلها تدل علىٰ حركةِ الخارجين منها والإسراعِ في

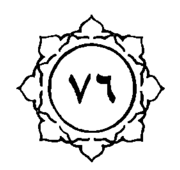
السيرِ ، فقوله : ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ معناه : يُسرعون .

وكذلك قوله : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : ٧ ـ ٨] ، أي : مُسرعين .

فإنها كلها تدل علىٰ الإسراعِ في السَّيرِ ، وذٰلك نظيرُ صوتِ الحافرِ والخفِّ عند السيرِ .

وفيها دَلالةٌ جماليةٌ أخرىٰ : ذٰلك أن من معنىٰ (الجدثة) ـ كما ذكرنا ـ مضغَ اللحمِ ، فكأن المعنىٰ : إنما يخرجون بعدما أكلتهم الأرض ومضغت لحومهم ، وليس في لفظِ القبورِ مثل ذٰلك المعنىٰ ، وٱلله أعلمُ .

* * *



لماذا وصف الله سيدنا إسماعيلَ بأنه غلامٌ حليمٌ

فقال فيه : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠١] .

ووصف سيدنا إسحاق بأنه غلامٌ عليمٌ ، فقال فيه : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : ٢٨] ؟

الجوابُ

الحِلمُ : هو أن يملك الشخصُ نفسه عند الغضبِ ، وهو يظهر عند التعاملِ مع الآخرين والعلاقةِ بهم .

وقد ذكر الله علاقةَ إسماعيل بأبيه وبالآخرين في أكثرِ من موطنٍ في القرآن الكريم ، فقد ذكر بعد قوله : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ ، قوله : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

وذكر بناءه البيتَ مع إبراهيمَ أبيه ، فقال : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

وقد ذكر ٱلله عنه أنه رسولٌ نبيٌّ ، وأنه كان صادقَ الوعدِ ، والرِّسالة إنما تقتضي حسنَ التعاملِ مع الآخرين .

وصدقُ الوعدِ إنما يكون إذا وعد جهةً ما بأمرٍ معينٍ فوفاها إياه ، ووصفه بالصيغةِ الاسميةِ يدل علىٰ ثبوتِ هـٰذه الصفةِ فيه .

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم : ٥٤ ـ ٥٥] .

وهـٰذه الأمور تقتضي علائقَ اجتماعيةً وفيها يظهر الحلمُ أو غيره ، فوصفه بالحلمِ لذاك .

وأما إسحاقُ فلم يذكر له علاقة بالآخرين ، وقد وصفه ٱلله بالعلمِ ، والعلم لا يقتضي مثل تلك العلائقِ .

ثم إنه قد ذكر ٱلله عنه أنه نبيٌّ ولم يذكر أنه رسولٌ ، فقال : ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات : ١١٢] .

وقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٤٩] ، والنبوةُ لا تقتضي علائقَ كالرسالةِ ، فوصفه بالعلمِ ولم يصفه بالحلمِ .

ويَحسنُ أن نذكرَ أنه حين يصفُ ٱلله نبيًّا بصفةِ كمالٍ ، لا يعني أن الأنبياء الآخرين ليسوا متصفين بمثل هـٰذه الصِّفةِ ، أو أن هـٰذا النبيَّ لم يتصف بصفة كمالٍ غيرها ، فإذا وصف نوحاً مثلاً بأنه كان عبداً شكوراً ، لا يعني ذاك أن الأنبياء الآخرين ليسوا كذٰلك ، وإذا وصف إبراهيمَ بأنه

أواهٌ مُنيبٌ لا يعني أن إخوانه من الأنبياء ليسوا كذٰلك ، بل كلهم عبادٌ شاكرون لأنعمه سبحانه منيبون إليه ، وإنما هو يذكر أمراً أو وصفاً يقتضيه السياقُ ، أو يكون مشتهراً به أكثر من غيره من الصِّفات ، فوصف كلاًّ منهما بما يقتضيه سياقه الذي ورد فيه ، أو الأمر الذي أُوكِلَ إليه .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ (صٓ) : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [صٓ : ١٤] .

وقال في سورةِ (قٓ) : ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [قٓ : ١٤] .

سؤالٌ

لماذا قال في آية (صٓ) : ﴿ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ وقال في آية (قٓ) : ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ ؟

الجوابُ

إن العقابَ أشدُّ من الوعيدِ ، والصفاتُ المذكورةُ للكافرين في (صٓ) أشدُّ مما في (قٓ) ، وهم في (صٓ) أشدُّ وأعتىٰ علىٰ المسلمينَ مما في (قٓ) ، وذكر من عقوباتِ الأممِ السابقةِ في (صٓ) ما لم يذكره في (قٓ) ، وذكر من تهديدِ الكافرين وتوعدِهم في (صٓ) ما لم يذكره في (قٓ) ، فناسبَ ذٰلك أن يذكر في (صٓ) أشد مما ذكره في (قٓ) .

قال تعالىٰ في (صٓ) : ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ

مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [١ ـ ١٧] .

وقال في (قٓ) : ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [١ ـ ١٤] .

ومن النظرِ في النَّصين يتَّضحُ ما يأتي :

١ ـ أنه وصفَ الكافرين في (صٓ) أنهم في عزةٍ وشقاقٍ ، فقال :

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ ، ولم يقلْ مثل ذٰلك في (قٓ) .

٢ ـ وذكر أنه أهلك من القرونِ المُكذبةِ السَّابقةِ الكثير فاستغاثوا وصرخوا فلم ينفعهم ذٰلك ، فقال : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [٣] ، ولم يذكر مثل ذٰلك في (قٓ) .

٣ ـ قال الكافرون في الرَّسولِ في (صٓ) ما لم يقولوه في (قٓ) ، فقد قالوا في (صٓ) : ﴿ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ ، ولم يقولوا مثله في (قٓ) .

قد تقول : ولٰكن ورد أيضاً في (قٓ) ذكر التَّكذيبِ ، فقال : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [٥] .

فنقول : إنه ورد في (صٓ) من التَّكذيبِ ما هو أشدُّ ، إضافةً إلىٰ ما ورد من وصف الرسول بالسحرِ والكذبِ ، فقالوا : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْأٓخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [٧ ـ ٨] ، كما سنذكر .

٤ ـ كان إنكارهم في (صٓ) أشدَّ مما في (قٓ) ، فقد قالوا : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ﴾ ولم يقولوا مثله في (قٓ) .

٥ ـ وكان عجبهم في (صٓ) أشدَّ مما في (قٓ) ، فقد قالوا في (قٓ) : ﴿ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ، وقالوا في (صٓ) : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ،

بالتوكيدِ بإن ، واللام ، والعدول عن صيغةِ عجيبٍ إلىٰ عجابٍ ، وهي أشدُّ عجباً من عجيبٍ[(١)] .

٦ ـ وذكر في (صٓ) أن الكافرين طلبوا السَّعي لنصرةِ آلهتِهم ، فقال : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ [٦] ، ولم يذكر ذٰلك عنهم في (قٓ) .

٧ ـ وكرروا إنكارَهم وتكذيبَهم في (صٓ) ، وأنهم لم يسمعوا بمثل هـٰذا ، فقالوا : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ .

٨ ـ وكرروا إنكارَهم أن يكون ٱلله اختار محمداً ﷺ لرسالته دونهم ، فقال علىٰ لسانهم : ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ ﴾ [٨] ، ولم يذكر مثل ذٰلك في (قٓ) .

٩ ـ توعدهم ربُّنا في (صٓ) وهدَّدهم بقوله : ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾ ، والنفي بـ : « لمَّا » يعني أنهم لم يذوقوا عذابه إلىٰ الآن ، وهو متوقعٌ أن يذوقوه ، وهو تهديدٌ لهم وتوعدٌ بارتقابِ العذابِ ، ولم يقل مثل ذٰلك في (قٓ) .

١٠ ـ وذكر في (صٓ) أن جندهم سيهزم ، فقال : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ [١١] .

« وهـٰذا وعدٌ من ٱلله سبحانه لنبيِّهِ ﷺ بالنصرِ عليهم والظَّفر بهم .

(١) انظر : كتابنا (معاني الأبنية في العربية) (٩٨ ـ ١٠٠) .

وقد وقع ذٰلك ولله الحمد في يومِ بدرٍ ، وفيما بعده من مواطنِ ٱلله »[١] .

١١ ـ ذكر في السورتين طرفاً من الأممِ السابقةِ المُكذبةِ ، غير أنه أكد التكذيبَ في (صٓ) أكثر مما أكده في (قٓ) .

فقد قال في (صٓ) : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [١٤] .

وقال في (قٓ) : ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [١٤] ، فزاد التكذيبُ توكيداً في (ص) بأسلوبِ القصرِ ، فقال : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ ، ولم يقل مثل ذٰلك في (قٓ) .

هٰذا إضافةً إلىٰ أنه وصفَ فرعونَ في (صٓ) بما لم يصفه في (قٓ) ، فقال : ﴿ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴾ ولم يصفه بذاك في (قٓ) .

ومما قيل في وصفِ ذي الأوتادِ أنه كانت له أوتادٌ يعذب بها الناس ، وذٰلك أنه إذا غضب علىٰ أحدٍ وتد يديه ورجليه ورأسه علىٰ الأرضِ ، وقيل غير ذٰلك[٢] .

١٢ ـ ثم توعَّدهم في (صٓ) بعذابٍ يأخذهم لا يمهلهم ، فقال : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ [١٥] ، أي : « ما لها من

---

(١) فتح القدير (٤ / ٤١٠) ، وانظر : تفسير ابن كثير (٤ / ٢٨) ، الكشاف (٣ / ٥) .

(٢) انظر : فتح القدير (٤ / ٤١١) ، ابن كثير (٤ / ٥٠٨) ، الكشاف (٣ / ٥) ، البحر المحيط (٧ / ٣٨٦) .

توقفٍ مقدار فواقٍ ، وهو ما بين حلبتي الحالبِ ورضعتي الراضعِ »[١] ، ولم يذكر مثل ذٰلك في (قٓ) .

١٣ ـ وذكر في (صٓ) أن هـٰؤلاءِ المشركين دعوا علىٰ أنفسهم بتعجيلِ العذابِ والعقوبةِ إمعاناً في التكذيبِ ، فقال : ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ [١٦] .

جاء في (تفسير ابن كثير) : « ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ هـٰذا إنكارٌ من ٱلله تعالىٰ علىٰ المشركين في دعائهم علىٰ أنفسهم تعجيل العذاب ، فإن القطَّ هو الكتابُ ، وقيل : هو الحظُّ والنصيبُ .

قال غير واحدٍ من المفسرين : سألوا تعجيلَ العذابِ . . . كما قالوا : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] »[٢] ، ولم يذكر مثل ذلكَ في (قٓ) .

١٤ ـ أمر رسوله ﷺ في (صٓ) بالصَّبرِ علىٰ ما يقولون ، فقال : ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [١٧] ، ولم يذكر مثل ذٰلك في (قٓ) في هـٰذا السياقِ .

فاتضح أن موقفَ الكافرين في (صٓ) أشدُّ وأعتىٰ ، فاستحقوا

---

(١) الكشاف (٣ / ٥) ، وانظر : البحر المحيط (٧ / ٣٨٧) .
(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٢٩) ، وانظر : الكشاف (٣ / ٦) .

الزِّيادة في التهديدِ ، فقال : ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ الذي هو أشدُّ من الوعيدِ ، فناسب كلُّ سياقٍ ما ورد فيه .

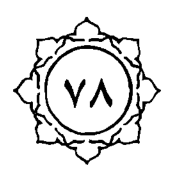
ثم إنه ناسب كلُّ تعبيرٍ مكانه من جهةٍ أخرىٰ :

فقد قال في (صٓ) : ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ فكان أسلوبُ التكذيبِ في (صٓ) أشد وآكد ؛ لأنه جاء بأسلوبِ القصرِ فاستحقوا من العقوبةِ ما هو أشدُّ مما هو في (قٓ) .

١٥ ـ وإضافةً إلىٰ ذٰلك أن كلمة ﴿وَعِيدِ﴾ وردت في (قٓ) أربعَ مراتٍ ولم ترد في (صٓ) ، بل هي أكثرُ سورةٍ في القرآن وردت فيها هٰذه اللفظة .

وأن كلمة (العقاب) لم ترد في (قٓ) ، فناسب كلُّ تعبيرٍ مكانَه من جهةٍ أخرىٰ ، واللهُ أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ (صٓ): ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ١٧] .

وقال في سورةِ الذارياتِ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧] .

سؤالٌ

لماذا رُسمت ﴿ ٱلْأَيْدِ ﴾ في سورة (صٓ) بياءٍ واحدةٍ ، ورُسمت في سورة الذاريات ﴿ بِأَيْي۟دٍ ﴾ بياءين مع أنهما كلمةٌ واحدةٌ ، ولفظٌ واحدٌ ؟

الجوابُ

من المعلومِ أن رسم المصحفِ لا يُقاسُ عليه ، ولٰكن مع ذٰلك كأن في هٰذا الرَّسمِ جانباً بيانيًّا .

إن معنىٰ (الأيد) : هو القوةُ في الآيتين ، لٰكن لما كانت قوةُ ٱلله زائدةً علىٰ قوةِ داودَ زِيد في الرَّسمِ .

ومما سوَّغ ذٰلك أيضاً أن ٱلله سبحانه عبَّر عن نفسِه بضمير الجمعِ للتعظيمِ ، فقال : ﴿ بَنَيْنَٰهَا ﴾ وقال : ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ بخلاف كلامه علىٰ

داود ، فناسب جمع ياءين في موطنِ الجمعِ ، والإفراد في موطنِ الإفرادِ ، علماً بأن هـٰذا النوع من الرَّسم كان جارياً في ذٰلك الوقتِ ؛ أعني زيادة حرفِ علةٍ في الرَّسم .

فناسب كلٌّ رسمٍ موضعَه ، وهو من لطيفِ الرَّسمِ ، وٱلله أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الزمرِ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر : ١٧ ـ ١٨] .

وقال في سورةِ الفجرِ : ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر : ٢٧ ـ ٣٠] .

سؤالٌ

لماذا قال في فاصلةِ آيةِ الزمر : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ فحذف ياءَ المتكلمِ في كلمةِ ﴿عِبَادِ﴾ ، وقال في فاصلةِ آيةِ الفجرِ : ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ فذكر ياءَ المتكلمِ فيها ؟

الجوابُ

إن هٰذا يدخل فيما ذكرناه في كتابنا (بلاغةِ الكلمةِ في التعبيرِ القرآني) من أن ما ذكرت فيه الياءُ أوسعُ وأشملُ مما حُذفت منه الياءُ[1] .

وذٰلك أن العبادَ في آيةِ الفجرِ أكثر منهم في آيةِ الزمرِ ، فقد خصَّصهم في

(١) انظر : بلاغة الكلمة في التعبير القرآني (٣١) وما بعدها ، وانظر : (ص : ٣٧)

آيةِ الزمرِ بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ ﴾ فهم لم يكتفوا بالحسنِ بل يتبعون الأحسنَ ، وأطلقهم في آيةِ الفجرِ في عمومِ عباده الذين يدخلون الجنةَ ولاشكَّ أن فيهم مَن لم يكن يتبع أحسنَ القولِ .

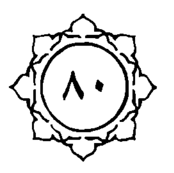
فلما كثر العبادُ في آيةِ الفجرِ زاد في البناء مناسبةً لزيادةِ العبادِ ، ولما كان العبادُ في آيةِ الزمرِ جزءاً ممن ذكر في آيةِ الفجرِ اقتطع من الكلمة ؛ لتناسب قلة البناءِ قلّةَ العبادِ .

ومما حسَّن ذٰلك أيضاً مناسبةُ كلِّ فاصلةٍ للفواصلِ التي وردت معها ، فإن فاصلةَ آيةِ الزمرِ تقع ضمن فواصل شبيهةٍ بهٰذه الفاصلةِ ، نحو : ﴿ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ و : ﴿ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ ونحوها[1] .

وإن فاصلةَ آيةِ الفجرِ مناسبةٌ لفاصلةِ الآيةِ بعدها ، وهي قوله : ﴿ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ بإضافةِ الجنةِ إلىٰ ياءِ المتكلمِ ، فناسب أن يظهر ضميرَ المتكلمِ مع العبادِ ، كما ظهر مع الجنةِ ، فالعبادُ عباده ، والجنةُ جنته ، وعباده يدخلون جنته .

* * *

(١) انظر : بلاغة الكلمة (ص٣٧) .



قال تعالىٰ في سورةِ غافر : ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر : ١٥ ـ ١٧] .

سؤالٌ

لماذا قال : ﴿ ٱلتَّلَاقِ ﴾ فحذفَ الياءَ ولم يقل : (التلاقي) ؟

الجوابُ

من الظَّواهرِ التَّعبيريةِ في القرآنِ الكريمِ أنه إذا كان الحدث دونَ الاكتمالِ اقتطع من حروفه ، وإذا كان حدثان بعضهما أطولُ من بعضٍ ، أو كان وقوعه أكثر ، اقتطع مما هو أقصرُ ، وقد ضربنا في كتابنا : (بلاغةُ الكلمةِ في التعبير القرآني) أمثلة لذٰلك ، كما في نحو : ﴿ ٱسْطَٰعُوٓاْ ﴾ و : ﴿ ٱسْتَطَٰعُواْ ﴾ ، و : ﴿ تَنَزَّلُ ﴾ و : ﴿ تَتَنَزَّلُ ﴾ ، و : ﴿ تَوَفَّىٰهُمُ ﴾ و : ﴿ تَتَوَفَّىٰهُمُ ﴾ وغيرها[1] .

وفي هٰذا اليوم ـ أي يوم القيامة ـ ليس التلاقي كما في الدنيا من

---

(١) انظر : (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) (ص : ١١) وما بعدها .

حيث الطول وتبادل الحديثِ ، فإن المتلاقين لا يُفيضون في الحديثِ وبثِّ الأشواقِ ، ولا يحدِّث بعضهم بعضاً عمّا جرىٰ لكلٍّ منهم في الفراقِ الطويلِ بينهما ، فإن هـٰذا اليوم إنما هو يوم الفرارِ الأكبرِ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٤ ـ ٣٧] ، ولا يسألُ أحدٌ صاحبه عمّا جرىٰ له كما أخبر ربُّنا بذٰلك ، فقال : ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ [المعارج : ١٠] ، أي : لا يسأل قريبٌ قريباً فكيف بالأباعدِ ؟

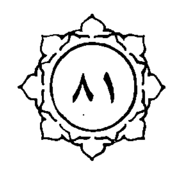
وكما قال أيضاً : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] .

ومن هـٰذا يتبين أن التلاقي يوم القيامةِ ليس كما في الدنيا ، من حيث بثُّ المشاعرِ ، وسماع الحديثِ ، وطُول المُكثِ بينهم ، وإنما هو فرارٌ من غيرِ مُساءلةٍ ، فإن لكلِّ امرئ شأناً يغنيه حتىٰ يقضي ٱلله بين عباده ، وتُجزىٰ كلُّ نفسٍ بما كسبت .

فاقتطع من الحدثِ ؛ ليدل علىٰ أنه ليس حدثاً مكتملاً ، يجري فيه ما يجري مع المتلاقين في الدنيا .

هـٰذا علاوةً علىٰ مناسبةِ الحذفِ لفواصلِ الآياتِ ، وٱلله أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الشُّورىٰ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورىٰ : ٣٠] .

وقال في السُّورةِ نفسِها في الآيةِ : [٤٨] : ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ .

سؤالٌ

لماذا قال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ ، وقال في الآيةِ الأخرىٰ : ﴿ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ فذكر الكسبَ في الآيةِ الأولىٰ ، وذكرَ التَّقديمَ في الآيةِ الأخرىٰ ؟

الجوابُ

لقد سبق الآيةَ الأولىٰ الكلامُ علىٰ الرِّزقِ ، فقال : ﴿ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ [٢٧] ، والرِّزقُ مما يُكسب ، فناسب ذكرَ الكسبِ .

وليس السِّياقُ كذلك في الآيةِ الأخرىٰ ، وإنما السِّياقُ في الكلامِ علىٰ اليومِ الآخرِ ، فقد قال : ﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ

مِن ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ [٤٧] .

فناسب ذكر ما قدموه من أعمالٍ ، فناسب كلٌّ تعبيرٍ مكانه الذي ورد فيه .

ونظير ذلك قوله تعالىٰ في سورةِ الروم : ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [٤١] .

فذكر الكسبَ لما تقدمها ذِكْرُ الرِّزقِ والأموالِ ، فقال : ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣٧ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٣٨ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ۝٣٩ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [٣٧ ـ ٤٠] .

في حين قال في السورةِ نفسِها : ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ [الروم : ٣٦] ، فقال : ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ فذكرَ التقديمَ لما لم يكن السياقُ في ذكرِ الرِّزقِ ، وإنما تقدمها ذكر الضُّرِّ والرَّحمةِ ، فقال : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [٣٣] ، فناسبَ كلٌّ تعبيرٍ مكانَه الذي ورد فيه في كلِّ موضعٍ .

* * *



قال سبحانه في سورةِ الشُّورىٰ: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورىٰ : ٤٩ ـ ٥٠] .

سؤالٌ

١ ـ لماذا قدَّم الإناثَ علىٰ الذكورِ ، ونكَّر الإناثَ ، وعرَّف الذكورَ في الآيةِ التاسعة والأربعين ؟

٢ ـ لماذا جمع الذَّكر علىٰ ذكورٍ في الآية الأولىٰ ، وعلىٰ (ذكران) في الآيةِ التي قبلها ؟

الجوابُ

١ ـ إن الجواب عن السُّؤالِ من أكثرِ من وجهٍ :

منها : أنه تردد في السورةِ في أكثرِ من موضعٍ ما لا يرغب فيه الإنسان ولا يشاؤه ، وذٰلك نحو قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [٣٠] ، وقوله : ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ ﴾ [٤٠] .

وقوله : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [٤٣] ، وواضحٌ أن الصَّبرَ ههنا علىٰ المكارهِ ومغفرةِ ما يسوؤه من الأمورِ .

وقوله : ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ [٤٨] .

وقوله : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ [٤٩] .

فقدَّم ما لا يرغبُ فيه أهلُ الجاهليةِ آنذاك ، وهو متَّسقٌ مع ما تردد في السورةِ كما ذكرنا .

ثم إن سياقَ الكلامِ في أن ٱللَّه فاعلٌ ما يشاء لا ما يشاؤه الإنسان ويهواه ، فقد قال : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الشورىٰ : ٤٩] ، أي : ما يشاؤه هو ، لا ما يشاؤه الإنسان ، وذٰلك لحكمةٍ أرادها سبحانه .

جاء في (روح المعاني) : « ولما ذكر سبحانه إذاقةَ الإنسانِ الرحمةَ ، وإصابته بضدها ، أتبع جلَّ وعلا ذٰلك أن له سبحانه الملك ، وأنه تعالىٰ يقسم النِّعمةَ والبلاءَ كما شاء بحكمته تعالىٰ البالغة ، لا كما شاء الإنسانُ بهواه »(١) .

ثم إن هٰذا التقديمَ ناسب ذكرَ البلاءِ في الآية التي سبقت هٰذه الآية ، وهو قوله : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ [٤٨] .

ومجيءُ الإناثِ مما يُسيء العرب آنذاك ، وهو ما يكرهونه

---

(١) روح المعاني (٢٥ / ٥٣) .

لأنفسهم ، كما أخبر عنهم سبحانه : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : ٥٨ ـ ٥٩] ، فجعلها في سياقِ ما يصيبهم مما يكرهون .

وقيل : قد يكون التقديمُ توصيةً برعايتهن لضعفهن ، وإن إحسانَ التربيةِ إليهن سترٌ من النارِ كما في الحديثِ[1] .

أما تعريفُ الذكورِ وتنكيرُ الإناثِ ، فقد قيل : إنه « جاء لفظُ الذكورِ معرّفاً ليشير ـ بما تُعطيه الألف واللام من العهدية ـ إلىٰ حالهم من الفضلِ ، ودرجة التقدمِ علىٰ الإناثِ ، فكأنه في قوةٍ أن لو قيل : الذين من شأنهم ، فتوازن تقديمُ الإناثِ وتعريفُ الذكورِ ، فقدَّم ذكرَ الإناثِ لإرغامِ العربِ ، وعرَّف الذكورَ لشرفِ المنزلةِ »[2] .

وقيل : « إن التعريف علىٰ أنه المعروف الحاضر في قلوبهم أول كل خاطر ، وإنه الذي عقدوا عليه مناهم »[3] .

ثم إن العربَ يُكنُّون عن النِّساءِ ، ولا يذكرون أسماءهن صوناً لهن ، بخلاف الذكور ، فالذكور معارفُ عندَ العربِ مشاهيرُ عندهم ، بخلافِ الإناثِ ، فإنهن مصوناتٌ مستوراتٌ لا يبرزن ولا يُعرفن ، فعرَّف ونكَّر بحسب ما جرتِ العادةُ عندهم من استحسانِ كلِّ جنسٍ ، واللهُ أعلمُ .

---

(١) انظر : روح المعاني (٢٥ / ٥٤) .
(٢) ملاك التأويل (٢ / ٨٤٧) .
(٣) روح المعاني (٢٥ / ٥٤) .

٢ ـ أما الجوابُ عن السؤالِ الثاني ، وهو أنه لماذا جمع الذَّكَر مرةً علىٰ الذكورِ ، ومرة علىٰ ذكرانِ ؟ فهٰذا له سببه ، فإن القرآنَ الكريمَ يستعمل (فُعلان) في الجمعِ للقلةِ النسبيةِ .

وعلىٰ هٰذا حيث ورد هٰذانِ الجمعانِ في القرآنِ كان الذُّكران أقل من الذكورِ ، وفي الآيةِ هٰذه قال تعالىٰ : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ ﴾ [الشورىٰ : ٤٩ ـ ٥٠] . « فاستعمل الذكورَ للكثرةِ ، والذكرانَ للقلةِ النسبيةِ ، فإن العادة أنه إذا أفرد شخص بالذكور كانوا أكثر من أن يقرنهم بالإناث ، فإن المرأة إذا ولدت ذكوراً فقط كان عددُ الذكورِ أكثرَ في العادةِ من أن تلد ذكراناً وإناثاً .

وقال تعالىٰ : ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء : ١٦٥] ، وقال : ﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا﴾ [الأنعام : ١٣٩] ، فاستعمل الذكرانَ للقلةِ النسبيةِ ، فإن الموصوفين بهٰذه الصفةِ لا يأتون جميع الذكورِ ، وإنما يأتون صنفاً خاصًّا منهم ، ألا ترىٰ أنهم لا يأتون الأطفالَ والشيوخَ ، وإنما يأتون مَن تستسيغه نفوسهم المنكوسة من الذكرانِ ، وهم أقل من مجموعِ الذكورِ بخلاف قوله تعالىٰ : ﴿خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا﴾ فإنه يشمَل جميعَ الذكورِ بلا استثناءٍ ، واللهُ أعلمُ »[١] .

* * *

(١) معاني الأبنية في العربية (١٥٨ ـ ١٥٩) .



قال تعالىٰ في سورةِ الزخرفِ : ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف : ٢٢] .

وقال في الآيةِ التي تليها : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] .

سؤالٌ

لماذا قال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ ، وقال في الآيةِ التي تليها : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ ؟

الجوابُ

إن الآية الأولىٰ في كفارِ العربِ المعاصرين للرَّسولِ ﷺ ، وقد ذكر عنهم أموراً تتعلَّق بمعتقداتهم في الملائكةِ والعباداتِ ، ومحاجَّتهم في ذٰلك .

فقد قال عنهم في سياقِ هٰذه الآياتِ : إنهم قالوا عن ٱلله سبحانه : إنه اتَّخذ مما يخلق بناتٍ ؛ يعنون الملائكةَ ، فقال لهم سبحانه : ﴿ أَمِ

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف : ١٦] .

وقال ذاكراً معتقدَهم في الملائكةِ : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [١٩] ، وحكىٰ عنهم ما كانوا يعتقدون في المشيئةِ ، فقال : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ﴾ [٢٠] .

وردَّ عليهم سبحانه بعدم العلمِ ، قائلاً : ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [٢٠] نافياً عنهم العلم بذٰلك .

وهٰذا مما يحتاج إلىٰ الهدىٰ ، ولا تُقال تخرصاً وظنًّا ، ثم قال سبحانه نافياً عنهم أسبابَ الهدىٰ والعلمِ : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ [٢١] ، ولما كانت هٰذه الأمورُ تحتاج إلىٰ الهدىٰ احتجوا بأنهم مهتدون بآثار آبائِهم ، فقالوا : إنهم وجدوا آباءَهم علىٰ ملةٍ أو دينٍ ، وهم مهتدون علىٰ آثارِهم .

وأما الآيةُ الأخرىٰ فهي في الأممِ السابقةِ ، فقد قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف : ٢٣] .

ولم يذكر عنهم معتقداً ولا احتجاجاً ، ولا سبباً من أسبابِ العلمِ والهدىٰ ، فلم يقتضِ ذكرَ الهدىٰ .

هٰذا من ناحيةٍ ، ومن ناحيةٍ أخرىٰ أنه ذكر قول مُترفيهم ، والمترفون لا تعنيهم أمورُ العباداتِ ولا يعنيهم الهدىٰ ، ولم يذكر القرآن الذين أُترفوا والمترفين بخير ، بل حيث ذكَرَهُم ذكَرَهُم مُعاندينَ مُعرضينَ

مُكذبيـنَ مُحاربينَ لله ورُسـله ، لا يعنيهـم شيءٌ من أمـورِ الهـدىٰ ، فلم يذكروا الهدىٰ ، وإنما ذكروا أنهم مُتبعون لآبائِهم مقتـدون بهـم علىٰ أيةِ حالٍ ، والاقتداءُ هو الاتباعُ علىٰ أيةِ حالٍ سواء كان القدوةُ ضالاً أم مهتدياً ، جاء في (المفردات في غريب القرآن) :

« الأسوةُ والإسوةُ كالقِدوة والقُدوة ، وهي الحالةُ التي يكون الإنسان عليها في اتباعِ غيره إن حسناً وإن قبيحاً ، وإن سارّاً وإن ضارّاً ، ولهـٰذا قـال تعـالـىٰ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] فوصفها بالحسنةِ »[١] .

جاء في (درة التنزيل) في سببِ الاختلافِ بين هاتين الفاصلتين في الآيتين المذكورتين من سورةِ الزخرفِ : « الجوابُ أن يقال : إن الأولىٰ حكاية قولِ الكفارِ الذين حاجُّوا النبيَّ ﷺ ، فقال مُخبراً عنهم : ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي : من قبلِ القرآنِ ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف : ٢١] أي كتاباً فيه حجةٌ بصحةِ دعواهم فهم متعلِّقون به . . .

وقال تعالىٰ : لا حجةَ لهم ، لـٰكنهم قالوا : وجدنا آباءنا علىٰ ملَّةٍ وطريقةٍ في الدينِ مقصودةٍ ، ونحن في اتباع آثارهم علىٰ هدايةٍ ، فادَّعَوا الاهتداء بسلوكهم سبيلَ آبائهم .

وأما الآيةُ الثانية فإنها خبرٌ عن الأممِ الكافرةِ بأنبيائها ، قال : ﴿ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ [الزخرف : ٢٣] إلا قال ذوو النعمِ والأموالِ

(١) المفردات في غريب القرآن (أسا) .

من أهلها قريباً من قولِ هٰؤلاءِ الذين في عصرك يا محمد ، فكان أقصىٰ ما احتجوا به أن قالوا : إنا وجدنا آباءنا علىٰ أمةٍ فاقتدينا بهم ، ولم يؤكدِ الخبر عنهم بدعواهم الاهتداء ، كما أكده عمَّن كان في عصره ممن يدعيه ؛ لبطلان قول الجميع »[1] .

وجاء في (ملاكِ التأويل) في هاتين الآيتين : « ووجهُ ذٰلك ـ واللهُ أعلمُ ـ أن ما تقدم الآية الأولىٰ حكاية قولِ كفارِ العربِ المعاصرين لرسول الله ﷺ ، والسامعين منه القرآن المسمَّىٰ هدىً في غيرِ موضعٍ ، كقوله تعالىٰ : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢] وقوله : ﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾ [الجاثية : ١١] ، وقوله : ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ [لقمان : ٣] فلما دعاهم ﷺ ليهتدوا بهديه قابلوا دعاءَه بقولِهم : إنهم مهتدون ، وإنهم وجدوا آباءهم علىٰ أمةٍ ، وأن ما وجدوهم عليه هدىً ، فقالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف : ٢٢] أي : علىٰ دينٍ وملةٍ ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ كهديهم ، فلما دعاهم إلىٰ الهدىٰ زعموا أنهم علىٰ هدىً . وهٰذا أبين تناسبٍ .

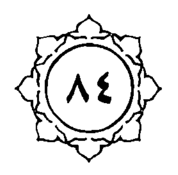
وأما الآية الثانية فحكايةُ أقوالِ قرونٍ مختلفةٍ ، وقد ذكر تعالىٰ من قول بعضهم : ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥٣] وفي موضعٍ : ﴿ كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : ٧٤] فهٰذا اتِّباعٌ مجرَّدٌ ممَّن ادّعىٰ كونه هدى أو غير هدى ، فهو اعترافٌ بتقليدٍ ، واتباع بتعظيمٍ لفعلِ آبائهم من غير ادِّعاءِ شبهةٍ ، فلم يكن ليطابق هٰذا ، إلا الوارد من قولِهِ تعالىٰ

(١) درة التنزيل (٤٣٤) .

عنهم : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] ، فجاء كلٌّ على ما يناسبُ ، وٱلله أعلمُ »[١] .

* * *

(١) ملاك التأويل (٨٥١ ـ ٨٥٢) .



قال تعالىٰ في سورة الزخرف : ﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ ﴾ [الزخرف : ٢٤] .

سؤالٌ

لماذا رُسمت (قال) في الآيةِ الرابعةِ والعشرين من سورة الزخرفِ ﴿ ۞ قَٰلَ ﴾ من دون رسمِ الألف ، وذٰلك في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ ﴾ . ورُسمت في الآيةِ السادسةِ والعشرين من السورةِ نفسِها بـ : ﴿ قَالَ ﴾ برسم الألفِ وذٰلك في قوله : ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ . . . ﴾ ؟

الجوابُ

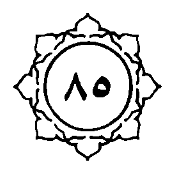
إن ذٰلك يتعلق برسمِ المصحفِ أولاً ، ورسم المصحف لا يُقاس عليه ، ثم إن ذٰلك لأمرٍ آخر ، وهو أن في ﴿ قَٰلَ ﴾ في الآيةِ الرابعةِ والعشرين قراءتين متواترتين : قراءةً بالفعل الماضي (قال) ، وهي قراءةُ

ابن عامر وحفص عن عاصم ، وقراءةً بفعلِ الأمر : (قل) وهي قراءةُ الباقين من العشرةِ[١] .

فكلتا القراءتين متواترةٌ فرُسمت بما تصحُّ فيه القراءتان ؛ إشارةً إلىٰ أن هاتين القراءتين وردتا عن رسول ٱلله ﷺ . ومعلومٌ أن من أركانِ القراءةِ الصَّحيحةِ موافقةُ الرسمِ العثمانيِّ .

* * *

(١) انظر : النشر في القراءات العشر (٢ / ٣٦٩) .



قال تعالىٰ في سورة الزخرف: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف : ٨٤] .

سؤالٌ

لماذا كرر كلمةَ ﴿ إِلَٰهٌ ﴾ ولم يقلْ مثلاً : (وهو الذي في السماءِ والأرض إلـٰه) أو : (وهو الذي في السماء وفي الأرض إلـٰه) ؟

الجوابُ

لو قال : (وهو الذي في السماء والأرض إلـٰه) لاحتمل المعنىٰ أنه هو الإلهُ المشتركُ فيهما ، وقد يكون فيهما آلهةٌ غيرُ مشتركةٍ ، فقد يكون المعنىٰ أن في السَّماء إلـٰهاً أو آلهةً خاصةً بها ، ليست لأهلِ الأرضِ ، وقد يكون في الأرضِ إلهٌ أو آلهةٌ خاصَّةٌ ليست لأهلِ السَّماءِ ، ولـٰكن الإلهَ المشتركَ فيهما هو ٱلله ، وهـٰذا المعنىٰ لا يصحُّ أن يُراد .

أما لو قلنا : (وهو الذي في السماء وفي الأرض إلـٰه) فإن ذٰلك لا ينصُّ علىٰ أنه إلهٌ في السَّماءِ ، بل علىٰ أنه إلهٌ في الأرضِ ؛ إذ إن المعنىٰ سيحتمل أن يكون : (وهو الذي في السماء) (وفي الأرض

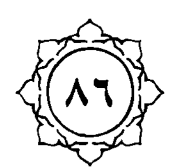
إلـٰه) فإن ذٰلك يدلُّ علىٰ أنه في السَّماءِ ، وهو في الأرضِ إلهٌ ، كما تقول : (هو في إدارةِ المعملِ ، وفي كليةِ الآدابِ عميدٌ) فإن ذٰلك لا يعني أنه عميدٌ في إدارةِ المعملِ .

أما قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ﴾ فهو نصٌّ في أنه إلهٌ في السَّماءِ لا إلـٰهَ غيره ، وفي الأرضِ هو إلـٰهٌ لا إلـٰهَ غيره ، وهو المعنىٰ المُراد .

وقيل أيضاً : إنه كرَّر ذٰلك ؛ لأن عبودية أهلِ السَّماءِ تختلف عن عبوديةِ أهلِ الأرضِ[١] .

* * *

(١) انظر : روح المعاني (٢٥ / ١٠٧) .



قال تعالىٰ في سورةِ الذاريات : ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات : ٣٨ ـ ٣٩] .

وقال في هـٰذه السُّورةِ أيضاً : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات : ٥٢] .

سؤالٌ

لماذا رُسمتْ كلمةُ (ساحرٌ) في الآية التاسعة والثلاثين ﴿ سَٰحِرٌ ﴾ بلا ألفٍ ، ورُسمتْ في الآية الثانية والخمسين ﴿ سَاحِرٌ ﴾ بالألفِ ؟

الجوابُ

إن كلمة (ساحر) رُسمت في المصحفِ بأكثرِ من صورةٍ ، فالمعرَّفة بـ : (أل) رُسمت بالألفِ حيث وقعت ، وذٰلك نحو قولِه تعالىٰ : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه : ٦٩] .

وهـٰذه الصُّورة لا تعنينا وهي صورةٌ لم يختلف بعضها عن بعضٍ ، فلا تكون مثارَ سؤالٍ ، وأما النَّكرة فرُسمت من دونِ ألفٍ حيث وقعت ؛

أي (سٰحر) ، إلا في قوله تعالىٰ في الذارياتِ : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ ، والسؤالُ إنما هو عن سببِ الاختلافِ في رسم هٰذه الكلمة هنا عن سائرِ الآياتِ ، ومنها آية الذارياتِ في قوله : ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ﴾ .

والجوابُ : إن كلمة (ساحر) الأولىٰ إنما قيلت في موسىٰ عليه السلام ، وهو شخصٌ واحدٌ .

أما الآية الثانية فهي في الأممِ السابقةِ ، وقد قالوا في كلٍّ واحدٍ من رسلهم : ﴿سَاحِرٌ﴾ ، فالآية الأولىٰ في رسولٍ واحدٍ ، أما الآيةُ الأخرىٰ فإنها في رُسلٍ كثيرين ، فلما كثر الرُّسلُ وزادوا زِيدَ في الرَّسم مناسبة للزيادةِ .

قد تقول : ولٰكنها رُسمت في قولِهِ تعالىٰ : ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ [يونس : ٧٩] ، وقوله : ﴿ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴾ [الأعراف : ١١٢] من دون ألفٍ مع أنهم أكثرُ من واحدٍ ، فما الفرق ؟

والجوابُ : إن هٰؤلاءِ في قومٍ مخصوصين وهم قومُ فرعونَ ، وأما قوله تعالىٰ : ﴿ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم . . . ﴾ فهو في جميعِ الأممِ السابقةِ ، ولا شك أن أولٰئك أكثر من سحرةِ فرعونَ ، فلما كثرتِ الأممُ وامتدت وتطاولت زِيدَ في الرسمِ .

وعلىٰ أيةِ حالٍ فهٰذا من خطِّ المصحفِ الذي لا يُقاس عليه ، كما

ذكرنا أكثر من مرةٍ ، وهـٰذا التَّعليل لا نقطع بصحَّتِهِ ، فقد يكون من بابِ الموافقاتِ .

وهـٰذا ينطبق علىٰ أكثرِ ما نذكره فيما يتعلق برسمِ المصحفِ .

وٱلله أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الطورِ: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور : ٧ ـ ٨] .

وقال في سورةِ المعارجِ : ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ [المعارج : ١ ـ ٢] .

سؤالٌ

لماذا قال في سورةِ الطورِ : ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ فنفىٰ بـ : (ما) ، وقال في سورةِ المعارجِ : ﴿ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ فنفىٰ بـ : (ليس) ؟

الجوابُ

إن الآيةَ في سورةِ الطورِ مسبوقةٌ بقسمٍ ، وهو قوله : ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [١ ـ ٨] .

وقد تلقىٰ القسم بالجملةِ الاسميةِ المؤكَّدةِ بـ : (إنّ) واللام ، فقال : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ ، ونفىٰ دفعه بالجملةِ الاسميةِ المؤكدةِ أيضاً

مناسبةً لجواب القسم المؤكد ، فقال : ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ ، فنفاها بـ : (ما) وجاء بـ : (من) الاستغراقيةِ المؤكدةِ .

أما في سورةِ المعارجِ فليس ثمةَ قسمٌ ، وإنما قال : ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ أي دعا لنفسه بالعذابِ وطلبه لها ، ونفىٰ دفعه بالجملةِ الفعليةِ ، فقال : ﴿ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴾ ، فقوله : ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ أنسب بالقسمِ ، وأنسب بالجملةِ التي قبله .

وقد أكد وقوعَ العذابِ في آيةِ الطورِ دون آيةِ المعارجِ ؛ لأن السِّياقَ في الطُّورِ يدلُّ علىٰ وقوعِهِ فعلاً ، وليس الأمر كذٰلك في المعارجِ ، فقد قال في المعارجِ : ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ [٥ ـ ٧] .

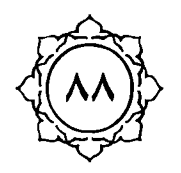
فأمره بالصبرِ الجميلِ ، ثم قال : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴾ ، وذٰلك يدل علىٰ أن في الزمنِ متسعاً بينهم وبينه ، ولم يقل مثل ذٰلك في الطورِ .

ثم إنه في المعارجِ ذكرَ موقفَ المجرمِ من العذابِ الذي سيلحقه يومئذٍ ، وهو من الوعيدِ الذي توعده به ربه ، وليس واقعاً بعدُ ، فقال : ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ [١١ ـ ١٨] .

وأما في الطُّورِ فالسِّياقُ يبيِّنُ أن الأمرَ حاصلٌ ، وأنهم يشاهدون النارَ موقوفين عليها ، مخاطبين بقولِهِ : ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا

تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [١٤ ـ ١٦] ، فوقوعُ العذابِ وعدمُ دفعِه في الطُّورِ آكدُ ، وهو أقربُ مما في المعارجِ ، فأكَّده دون آيةِ المعارجِ ، فناسبَ كلٌّ تعبيرٍ موضعَه .

* * *



قال تعالىٰ في سورة القمر : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر : ١٦] .

سؤالٌ

قوله تعالىٰ في سورة القمر : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٣٠] يأتي به مرةً بعد ذكرِ العذابِ كما في قصةِ نوحٍ ، ومرة يأتي به قبل ذكرِ العذابِ كما في ثمودَ ، ومرةً يأتي به مرتين : قبل ذكرِ العذابِ وبعد ذكرِ العذابِ كما في عادٍ ، فما السببُ ؟

الجوابُ

يأتي قوله تعالىٰ : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ في حالتين :

الحالةُ الأولىٰ : أن يذكر القومَ ومخالفتهم رسولهم ، فيقول : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أي : فكيف عاقبناهم ؟

فيكون السؤالُ بقصدِ بيانِ العذابِ ، ثم يذكر عذابهم .

والحالةُ الأخرىٰ : أن يذكر القوم ويذكر مخالفتهم رسولهم ، ثم

يـذكـر عقـابهـم ، فيقـول : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أليـس هـٰـذا ما يستحقونه ؟

فيكون القصدُ من ذٰلك هو التعجيبُ والتهويلُ من عقوبةِ ربِّنا لهم ، وسوءِ عاقبتِهم ، جاء في (روح المعاني) : « ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ : لتوجيه قلوبِ السامعين نحو الإصغاءِ إلىٰ ما لا يلقىٰ إليهم قبل ذكره ، لا لتهويله ، وتعظيمه ، وتعجيبهم من حالِهِ بعد بيانِهِ كما قبله ، كأنه قال : كذبت عادٌ فهل سمعتم أو فاسمعوا كيف كان عذابي وإنذاري لهم »[1] .

أما الجوابُ عن سببِ مجيئِهِ مرةً واحدةً في قومِ نوحٍ ، ومرةً واحدةً في ثمودَ ، ومرتين في عادٍ ، فذٰلك ـ والله أعلمُ ـ :

أن تكذيبَ عادٍ أعمُّ من تكذيبِ قومِ نوحٍ وثمودَ ، فقد قال في قومِ نوحٍ : ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ [٩] .

فذكر أنهم كذَّبوا عبدَ الله ؛ أي : رسولَه ، وهو نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وقال في ثمود : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ [٢٣ ـ ٢٤] وما بعدهما ، فذكر أنهم كذبوا بالنذر .

وأما عادٌ فلم يذكر بماذا كذبوا ، ولا مَن كذبوا ، وإنما قال : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ .

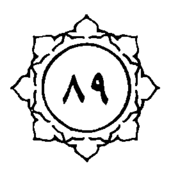
فكان تكذيبهم أعمَّ ، فذكر قوله : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾

---

(١) روح المعاني (٢٧ / ٨٤) .

مرتين ، مرةً قبلَ العذابِ ، ومرةً بعدَ العذابِ ليجمع حالتي البيانِ والتهويلِ ، فعمَّ ذٰلك الحالتين ، وهـٰذا أعمُّ من أن يذكر حالةً واحدةً فناسبَ العمومُ العمومَ ، وٱلله أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في الممتحنةِ : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وقال في الممتحنةِ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الممتحنة : ٦] .

وقال في سورةِ الأحزابِ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

سؤالٌ

١ ـ لماذا أنّث الفعلَ في الآيةِ الرابعةِ ، فقال : ﴿ كَانَتْ ﴾ ، وذكّره في الموطنين الآخرين مع أن اسمَ (كان) في المواطنِ كلِّها واحدٌ ، وهو (الأسوة) ؟

٢ ـ ولماذا قدَّم في الآيةِ الرابعةِ الأسوةَ علىٰ المؤتسىٰ به ، وأخَّرها عنه في الآيتين الأخريين ؟

الجوابُ

١ ـ إن الأسوةَ « تطلق علىٰ الخصْلةِ التي من حقِّها أن يؤتسىٰ

بها ، ويُقتدىٰ بها »[١] وتُطلق أيضاً علىٰ الشخص المؤتسىٰ به .

والراجح في الآيةِ الرابعةِ أنه أُريد بها الخصلة بدليلِ أنه ذكرها وبيَّنها ، فقال : ﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ . . . ﴾ و« لأن الاستثناءَ الآتي عليها أظهرُ »[٢] فقال : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ وهـٰذا ما يُرجح إرادة الخَصلة .

فلما كانت الأُسوةُ ههنا بمعنىٰ المؤنث أنَّثها .

أما في الآيتين الأخريين فيُراد بها الشخصُ المتأسَّىٰ به ، وهي بمعنىٰ المثَل ، بدليل أنه ذكر الأشخاص ، ولم يذكرِ الخصلة ، فلما كانت الأولىٰ بمعنىٰ المؤنث أنَّث الفعل .

ولما كانت في الآيتين الأخريينِ بمعنىٰ المذكرِ ذكَّر الفعلَ . هـٰذا من ناحيةٍ .

ومن ناحيةٍ أخرىٰ أنه مما حسَّن التذكيرَ أيضاً في الآيةِ السادسةِ ، وآية الأحزابِ كثرةُ الفواصلِ بين كان واسمها .

فقد فَصلَ في الآيةِ الرابعةِ بالجارِ والمجرورِ (لكم) .

وأما الموطنان الآخرانِ فقد فصَل فيهما ـ إضافةً إلىٰ الجار والمجرور (لكم) ـ بمجرورين آخرينِ وهما في الآيةِ السادسةِ (فيهم)، وفي آيةِ الأحزابِ بـ (في رسول ٱلله) ، فحسن التَّذكير من جهتين .

---

(١) روح المعاني (٢٨ / ٦٩) .

(٢) روح المعاني (٢٨ / ٧٠) .

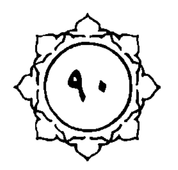
٢ ـ وأما الجوابُ عن السُّؤالِ الثاني ، فإنه في الآيةِ الرابعةِ قدَّم الأسوة ؛ لأن الكلامَ يدور عليها ، وقد بيَّنها بقوله : ﴿ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ . . . ﴾ فكانتِ الخصلةُ هي محطَّ الاهتمامِ .

وأما في الآيتينِ الأخريين فلم يذكرِ الخصلةَ ، وإنما ذكر المؤتسىٰ به فقط ، فقدَّمه علىٰ الأُسوةِ ؛ لأن المؤتسىٰ به هو محطُّ الاهتمامِ .

لقد أطلق التأسِّي في هاتين الآيتين ليشمَل كلَّ الأمورِ الحسنةِ ، ولذا أكَّد في هاتين الآيتين أكثرَ ما أكد في الآية الأولىٰ ، فقد قال في الأولىٰ : ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ ﴾ ، وأما في الآيتينِ الأخريينِ ، فقد قال : ﴿ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ ﴾ فجاء باللام الواقعة في جوابِ القسمِ إضافةً إلىٰ (قد) .

ثم أبدل في الآيةِ السادسةِ ، فقال : ﴿ لِمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ ﴾ وكذٰلك قال في آية الأحزاب ؛ للدلالة علىٰ أهمية التأسِّي بهـٰؤلاء المصطفين ، وٱلله أعلمُ .

* * *



قال تعالىٰ في سورةِ الممتحنةِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [الممتحنة : ١٠] .

سؤالٌ

لماذا قال : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ بالاسميةِ ، وقال : ﴿ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ بالفعلِ ولم يجعلهما علىٰ نمطٍ واحدٍ ، فيقول مثلاً : (لا هنَّ حلٌّ لهم ولا هم حِلٌّ لهن) ، أو : (لا هن يحللن لهم ولا هم يحلُّون لهن) ؟

الجوابُ

من المعلومِ أن الاسم يدل علىٰ الثبوتِ ، والفعل يدل علىٰ الحدوثِ والتغيرِ ، فعبر عن المؤمناتِ بالاسمِ ؛ لأن الحكمَ لا يتغير بالنسبة إليهن ، ولا يجوز منهن التغييرُ .

وعبَّر عن الكفارِ بالفعل ؛ لأنه يتغير الحكم بتغيرهم بأن يسلموا .

فالحكمُ في حقهن ثابتٌ أبداً ، ومن الممكن أن يتغير الحكم بالنسبة إليهم إذا غيروا دينهم إلىٰ الإسلامِ .

جاء في (روح المعاني) : « ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ الجملةُ **الأولىٰ** لبيان الفرقةِ الثابتةِ وتحقق زوالِ النكاحِ في الأولِ .

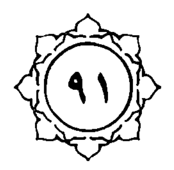
والثانية : لبيانِ امتناعِ ما يستأنف ويستقبل من النكاح ، ويُشعر بذٰلك التعبير بالاسمِ في الأولىٰ والفعلِ في الثانيةِ .

وقال الطَّيبي في وجه اختلافِ التعبيرين : إنه أسندت الصِّفة المشبَّهة إلىٰ ضمير المؤمنات في الجملة الأولىٰ ؛ إعلاماً بأن هـٰذا الحكمَ ثابتٌ فيهن ، لا يجوز فيه الإخلالُ والتغييرُ من جانبهن .

وأسندَ الفعلَ إلىٰ ضميرِ الكفارِ ؛ إيذاناً بأن ذٰلك الحكم مستمرُّ الامتناعِ في الأزمنةِ المستقبلةِ ، لـٰكنه قابلٌ للتغييرِ باستبدالِ الهدىٰ بالضلالِ »[١] .

* * *

(١) روح المعاني (٢٨ / ٧٦) .



قال تعالىٰ في سورة المرسلات : ﴿ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴾ [المرسلات : ٢٩ ـ ٣٠] .

سؤالٌ

في سورةِ المرسلاتِ ذكرَ ٱللهُ عقوبةَ الكافرين في الآخرةِ ، فقال : ﴿ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴾ [٢٩ ـ ٣٠] وما بعدها .

ثم ذكر جزاءَ المتقين ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [٤١ ـ ٤٢] وما بعدها .

ثم عاد إلىٰ جزاءِ الكافرين ، فقال : ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [٤٦ ـ ٤٧] وما بعدها .

فلِمَ ذاك ؟ ولِمَ لَم يذكر جزاء الكافرين في مكانٍ واحدٍ ؟

الجوابُ

ليس الأمرُ كما توهم السائلُ ، وإنما جرىٰ ذكر أحداثِ السورةِ ومشاهدها في نمطٍ معينٍ ومنهجٍ واضحٍ ، وذٰلك علىٰ النحو الآتي :

١ - إن المشهد الأول في السورةِ بعد القسمِ بالمرسلات ، وما بعدها إنما هو في أحداثِ يوم القيامةِ ، وهو قوله : ﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ . . . ﴾ .

ثم عاد إلىٰ تذكير الناسِ بإهلاك مَن تقدمهم ، وتذكيرهم بنعمِ ٱلله عليهم ليتَّعظوا ، فقال : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ . . . ﴾ .

٢ - ثم عاد إلىٰ ذكرِ الجزاءِ في الآخرةِ ، فذكر جزاءَ المكذبين ، ثم ذكر بعده جزاءَ المتقينَ ، وهو ما يقع بعد أحداثِ القيامةِ ، والفصل بين الخلائقِ ، فقال في جزاءِ المكذبينَ : ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ . . . ﴾ .

وقال في جزاءِ المتقينَ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ . . . ﴾ .

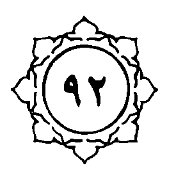
ثم عاد إلىٰ تذكيرِ الناسِ في الدنيا ليتعظوا ، فقال : ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فقوله : ﴿ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ ﴾ إنما هو تهديدٌ ووعيدٌ للكافرين في الدنيا ، فالتَّمتعُ القليلُ إنما هو في الدنيا ، وأما في الآخرةِ فليس لهم تمتعٌ ، لا قليلٌ ولا كثيرٌ .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ وهـٰذا إنما هو في الدنيا ، وليس في الآخرةِ ، وكذٰلك قوله : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فمنهج السورةِ واضحٌ بيِّنٌ ، وهو جارٍ علىٰ حسب جريان الأحداثِ مع التذكيرِ للاتِّعاظِ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة الحجر: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر : ٣٠] .

سؤالٌ

لماذا يخبر ربنا عن الملائكةِ بالتذكير أحياناً ، وبالتأنيث أحياناً أخرىٰ ، فمرَّةً يقول : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر : ٣٠] بالتذكير .

ومرةً أخرىٰ يقول : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾ [آل عمران : ٣٩] بالتأنيثِ ؟

والجوابُ

إن في القرآنِ خطوطاً تعبيريةً في تذكيرِ وتأنيثِ الملائكةِ ، من ذٰلك :

١ ـ أن كلَّ أمرٍ يصدر إلىٰ الملائكةِ يكون بصيغةِ المذكرِ ، وذٰلك نحو قوله : ﴿ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ﴾ [البقرة : ٣٤] ، وقوله : ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [البقرة : ٣١] ، فلم يأمرهم بصيغة المؤنث ، فلم يقل مثلاً :

(اسجدي) ونحوه ، وذٰلك للتنصيص علىٰ أن الملائكةَ ليسوا إناثاً ، كما كان يعتقد أهل الجاهلية الذين حكىٰ ٱلله عنهم ذٰلك بقوله : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ ﴾ [الزخرف : ١٩] .

وغير ذٰلك من الآيات ، فإن الضميرَ (الواو) خاصٌّ بالعقلاءِ الذكورِ ، بخلاف ما لو أمر بالتأنيثِ نحو : (اسجدي) فإنه يكون للأنثىٰ العاقلةِ وغيرها ، ولجماعةِ غير العاقلِ ذكوراً وإناثاً ، وذٰلك نحو : ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ ﴾ [سبأ : ١٠] ، وقوله : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ [النحل : ٦٨] وهو من بابِ تصحيحِ المعتقدِ الباطلِ .

٢ ـ كل فعل يقع بعدَ ذكرِ الملائكةِ يكونُ بصيغةِ المذكرِ ، وذٰلك نحو قوله : ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ ﴾ [النساء : ١٦٦] ، ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ [الرعد : ٢٣] ، ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [الشورىٰ : ٥] ، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ [الإسراء : ٩٥] .

فلم يقل : (والملائكة تشهد) ، ولا : (والملائكة تسبح بحمد ربها) ولا نحو ذٰلك .

٣ ـ كلُّ وصفٍ لهم بالاسمِ يكون بصورةِ المذكرِ ، وذٰلك نحو قوله : ﴿ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ ﴾ [النساء : ١٧٢] ، ﴿ فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر : ٢٩] ، ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، ﴿ بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٢٥] ، فلم يقل مرةً نحو : (الملائكة المقربة) ، أو (من الملائكة مسومة) .

٤ ـ كلُّ فعلِ عبادةٍ يكون بلفظِ التذكيرِ ؛ لأن ذٰلك أكملُ ، وذٰلك نحو : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر : ٣٠] ، ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ [التحريم : ٦] .

٥ ـ إذا كان ثمةَ أمرٌ أشد من آخر ، كأن يكون موقفا عذابٍ أحدهما أشدُّ من الآخرِ ، جيء بما هو أشدُّ بالتذكيرِ للدلالة علىٰ قوةِ الأمرِ وشدته ، وذٰلك نحو قوله : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال : ٥٠] .

وقوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٧] .

فجاء بآيةِ الأنفالِ بالتذكير ﴿ يَتَوَفَّى ﴾ ، وبآية محمدٍ ﷺ بالتأنيثِ ﴿ تَوَفَّتْهُمُ ﴾ وذٰلك أن آيةَ الأنفالِ في سياقِ وقعةِ بدرٍ .

ثم إنه قال : ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ ولم يقل مثل ذٰلك في آيةِ محمَّدٍ ﷺ كما أنها ليست في سياقِ حربٍ ، فجاء بما هو أشدُّ بصيغةِ المذكَّرِ .

٦ ـ في موقفِ البُشْرىٰ يأتي بصيغةِ المؤنثِ ، فلم تأتِ البشرىٰ بصيغةِ التذكير ، وذٰلك نحو : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ [٣٩] ، ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢] .

وانظر كيف جاء في موقفِ الشِّدةِ بالتَّذكيرِ في قوله : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ

ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان : ٢٥ ـ ٢٦] .

وفي موقفِ البُشرىٰ بالتَّأنيثِ ، في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فُصلت : ٣٠] .

فقال في الأولىٰ : ﴿ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ، وقال في آيةِ البشرىٰ : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ .

قد تقول : لكنَّ الملائكةَ بشرت سيدنا إبراهيم ، وكان الفعلُ الذي أُسند إليهم بصيغةِ التذكيرِ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : ٢٨] .

فنقول : إنه لم يرد ذكرٌ للملائكةِ في هٰذهِ القصةِ ، بل ورد ذكر الضَّيف ، قال تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [٢٤] . فأسندَ القولَ إلىٰ الضَّيفِ ، ولم يُسنده إلىٰ لفظِ الملائكةِ .

* * *



قال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة : ١٨٠] .

سؤالٌ

قال تعالىٰ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة : ١٨٠] . بالفعلِ ﴿حَضَرَ﴾ .

وقال في موطنٍ آخرَ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام : ٦١] . بالفعلِ ﴿جَآءَ﴾ ، فما الفرقُ بينهما ؟

الجوابُ

إن الحضور نقيضُ المغيبِ والغيبةِ ، وهو بمعنىٰ الشُّهودِ ، وهو يختلف عن المجيءِ ، وإيضاحُ ذٰلك أنك تقول : (كنت حاضراً إذ كلَّمه أبوك) فهٰذا ليس معناه أني كنت قادماً حين كلَّمه ، بل معناه : كنت موجوداً حين كلَّمه أبوك .

وتقول : (كنت حاضراً مجلسهم) أي : شاهداً مجلسهم ، لست غائباً ، وليس معناه : كنت قادماً إلىٰ مجلسهم .

ونقول : (ٱلله الحاضر في كلِّ مكانٍ) أي الموجودُ في كلِّ مكانٍ [بعلمه] ، وليس معناه : (ٱلله القادمُ في كلِّ مكانٍ) أو إلىٰ كلِّ مكانٍ .

ولذا لا يصحُّ أحياناً وضع إحدىٰ الكلمتينِ مكانَ الأخرىٰ .

ففي قوله تعالىٰ في السدِّ الذي صنعه ذو القرنين مثلاً : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ﴾ [الكهف : ٩٨] لا يصحُّ أن يقال للمعنىٰ نفسه : (فإذا حضر وعد ربي جعله دكّاء) فإن الوعدَ ـ وهو القيامةُ أو غيرها ـ ليس موجوداً في ذٰلك الوقتِ بل سيأتي .

وفي قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ [هود : ٤٠] لا يصحُّ أن يقال للمعنىٰ نفسه : (حتىٰ إذا حضر أمرنا) فكأنه كان موجوداً في مكان آخر ، ثم حضر ، بل هو سيأتي في حينه ، فإن الحضور يُقال لما هو موجودٌ .

وأما المجيء فيحتمل الأمرين : المجيءُ بعد أن لم يكن موجوداً أصلاً ، أو كان موجوداً في مكانٍ ، ثم قدم إلىٰ مكانٍ آخرَ .

قال تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [الإسراء : ١٠٤] .

ولا يصحُّ أن يقال للمعنىٰ نفسه : (فإذا حضر وعد الآخرة) .

ونحوه كثير ، وذٰلك نحو قوله : ﴿ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ﴾ [المؤمنون : ٤٤] ، وقوله : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ [المائدة : ١٩]، فذٰلك ونحوه لا يصحُّ إبدال : (حضر) فيه بـ : (جاء).

ونعود إلىٰ الاستعمالِ القرآني لهٰذين الفعلين في نحوِ : ﴿ حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ و : ﴿ جَآءَ أَحَدَكُمُ ﴾ .

فالقرآنُ يستعمل حضورَ الموتِ مع الوصايا والأحكامِ ، أما مجيءُ الموتِ فيستعمله لذكر ما يتعلقُ بالموتِ ، أو ما يتعلق بالناسِ وأحوالهم فيه ، أو فيه وفيما بعده .

وإيضاحُ ذٰلك أنه قال في حضورِ الموتِ : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] .

فلم يذكر شيئاً يتعلق بالموتِ ، وإنما هو ذكر لوصية يعقوبَ لبنيه عند حضورِ الوفاةِ .

وقال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ [البقرة : ١٨٠ ـ ١٨١] .

وقال : ﴿ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [المائدة : ١٠٦] .

وهٰذه كما ترىٰ في الوصايا ، وليست في ذكرِ ما يتعلق بالموتِ ، فكأن الموتَ يكون شاهداً مع مَن يشهدُ .

وقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ

مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ [النساء : ١٧ ـ ١٨] .

وهٰذا في حكمِ التوبةِ وأوانها ، وأنها ليست عند حضورِ الموتِ ، فليس في هٰذه الآياتِ شيءٌ يتعلق بالموتِ ، أو بحالةِ المتوفَّىٰ فيه .

وقال في مجيءِ الموتِ : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام : ٦١ ـ ٦٢] .

فذكر أمراً يتعلَّقُ بالموتِ وحالتِهِمْ فيه ، وأنهم يُردُّون إلىٰ ربِّهِمْ بعد ذلكَ .

وقال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ... ﴾ [المؤمنون : ٩٩ ـ ١٠١] . وما بعدها .

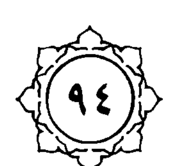
فذكر أنه إذا جاء أحدَهم الموتُ سأل ربه أن يُعيده لعلَّه يعمل صالحاً ، فقد ذكر شأنَ المتوفَّىٰ من هٰؤلاءِ ، ثم ذكر بعده أموراً تتعلَّقُ بالقيامةِ .

وقال : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق : ١٩ ـ ٢١] .

فقد ذكر أمراً يتعلَّق بالموتِ ، وهو أن الميتَ كان يهرب منه ، ثم ذكر ما بعد الموتِ من أحوالِ القيامةِ .

فاتَّضح أن مجيءَ الموتِ يستعمله القرآنُ لما يتعلَّق بالموتِ ، أو بحالِ الميتِ فيه ، أو فيه وفيما بعده .

* * *



قال تعالىٰ في سورة سبأ: قال تعالىٰ في سليمانَ عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤] .

سؤالٌ

يُقال : إن المنسأة هي العصا ، فلماذا استعمل هنا المنسأةَ دون العصا ، في حين استعمل العصا مع موسىٰ ، قال تعالىٰ علىٰ لسان موسىٰ : ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى ﴾ [طه : ١٨] ؟

الجوابُ

المنسأةُ هي العصا العظيمةُ ، التي تكون مع الراعي يزجر بها البعيرَ ؛ ليزداد سيراً ، واشتقاقها من النَّسْءِ ، وفعله : نسأ .

ومن معاني النسءِ : التأخيرُ في الوقتِ ، ومنه النسيئة وهو : البيعُ بالتأخيرِ . و : (نسأ ٱلله في أجله) أي أخَّره وزاد فيه .

والنسءُ أيضاً : زجرُ الناقةِ ليزداد سيرها ، ونسأها : دفعَها في السيرِ وساقها[١] .

واستعمالها مع سليمانَ هو المناسبُ ؛ لأنها كأنها نسأت في حكمه وأجله ، وكانت كأنها تزجرُ الجنَّ وتسوقهم إلىٰ العملِ ، فهي أنسب من العصا ، فقد أفادت معنيي النَّسْءِ : الزِّيادة في الأجلِ ، والزَّجرِ للسَّوقِ ، يدلُّ علىٰ ذلكَ قولُه تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ .

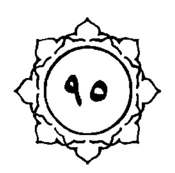
فالمنسأة هي التي كانت تسوقهم إلىٰ العمل ؛ لأنهم يظنون أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يزال حيًّا .

وأما استعمال العصا مع موسىٰ فهو الأنسب ، فإن الغنمَ لا تحتاج إلىٰ عصا عظيمة لسوقها .

كما أنه استعملها في مقامِ الرَّأفةِ بالحيوانِ والرحمةِ به ، فقد قال : ﴿ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ أي : يخبط بها أوراق الشَّجر ؛ لتأكله الماشيةُ فلا يناسب استعمال المنسأةِ ، فناسبَ كلُّ تعبيرٍ مكانَه .

* * *

(١) انظر : لسان العرب (نسأ) .



قال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٦] وقوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [البقرة : ١٩٨] .

سؤالٌ

ما الفرقُ بين قوله تعالىٰ : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٦] وقوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [البقرة : ١٩٨] ؟

الجوابُ : إن قوله : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ جملةٌ اسميةٌ ، وقوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ جملةٌ فعليةٌ .

والجملةُ الاسميةُ أقوىٰ وأثبتُ من الفعليةِ .

ثم إن (لا) تفيدُ توكيدَ النفي ، وذٰلك أنها متضمنةٌ معنىٰ : (من) الاستغراقيةِ ، يقول النحاةُ : وهي نظيرُ : (إنّ) في توكيدِ الإيجابِ[(١)] ، وهي آكد من (ليس) .

---

(١) انظر : ابن الناظم (٧٤) ، الهمع (١ / ١٤٤) ، التَّصريح (١ / ٢٢٥) ، جواهر الأدب (١٢٥) .

ومعنىٰ هـٰذا أن قولَه : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ آكدُ وأقوىٰ وأثبتُ من قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ .

ويوضِّح ذٰلك الاستعمالُ القرآنيُّ للعبارتين ، فإنه يستعمل : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ فيما هو أهمُّ من المواطنِ التي تستعمل فيها : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ فهو يستعملها في أمورِ العباداتِ ، وفي تنظيمِ شؤونِ الأسرةِ ، وفي الأمورِ المهمةِ علىٰ العمومِ .

وأما قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ فإنه يستعمله فيما هو دون ذٰلك من أمورِ الحياةِ ، وما هو أقلُّ أهميةً علىٰ العموم .

قال تعالىٰ : ﴿ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة : ١٥٨] ، وهـٰذا أمرٌ يتعلقُ بالعبادةِ .

وقال : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ، وهـٰذا يتعلَّقُ بتنظيمِ الأسرةِ ، وحقوقِ كلٍّ من الزوجين .

وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٣٤] .

وقال : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٦] ، وهي كما ترىٰ في شؤونِ تنظيمِ الأسرةِ ، وفي الحقوقِ والواجباتِ .

وأما قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ فيستعمله فيما هو أقلُّ شأناً من أمورِ الحياةِ كما ذكرت .

قال تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾ [المائدة : ٩٣] .

وقال : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾ [النور : ٢٩] .

وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ [النور : ٦١] .

وقال : ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

فأنت ترىٰ أنه استعملها فيما هو أقلُّ أهميةً مما قبلها .

قد تقول : ولٰكنه قال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة : ١٩٨] ، وهٰذا يتعلَّق بأمورِ العباداتِ .

فنقول : كلا ، وإنما هو يتعلَّقُ بالتجارةِ في موسمِ الحجِّ ، فإنه قال : إنه لا مانعَ من التِّجارةِ وابتغاءِ الرِّزقِ في الحجِّ .

ويوضِّح ذٰلك استعمالُ كلٍّ من التعبيرينِ في آيتينِ متتابعتينِ ، وهما قوله : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ [النساء : ١٠١] .

وقوله في الآيةِ بعدها : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ ﴾ [النساء : ١٠٢] .

فقال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ ، وقال بعدها : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

ذٰلك أن الآيةَ الأولىٰ في السَّيرِ في الأرضِ للتجارةِ أو غيرها ، فقال : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ .

أما الآيةُ الثانية ففي الجهادِ ، يدلُّ علىٰ ذٰلك قولُه : ﴿ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ ﴾ ، وقولُه : ﴿ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ ﴾ ، فقال : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ فدلَّ ذٰلك علىٰ ما ذكرناه ، وٱلله أعلمُ .

* * *



سؤالٌ :

ما الفرق بين الكَرهِ والكُرهِ ؟

الجوابُ

قيل : هما واحدٌ ، وقيل : الكُره بالضَّمِّ اسمُ مفعولٍ ؛ أي مكروهٍ كالخُبز بمعنىٰ المخبوز ، والكَره بالفتح المصدر[١] .

وقيل : « الكَره ـ بفتح الكافِ ـ المشقةُ التي تنال الإنسانَ من خارجٍ فيما يُحمل عليه بإكراه .

والكُره ـ بضم الكاف ـ ما يناله من ذاته وهو يعافه »[٢] .

وجاء في (البحرِ المحيطِ) : « وقيل : الكُره بالضمِّ ما كرهه الإنسانُ ، والكَره بالفتحِ ما أُكره عليه »[٣] .

وعلىٰ هـٰذا المعنىٰ جرىٰ استعمالُ القرآنِ .

---

(١) انظر : البحر المحيط (٢ / ٣٦٢ ـ ٣٧٩) .

(٢) المفردات في غريب القرآن (كره) .

(٣) البحر المحيط (٢ / ٣٦٢) .

فإنه يستعمل الكَره ـ بفتحِ الكافِ ـ لما ينال الإنسان من الخارجِ من مشقةٍ ، ولذا يقابله بالطَّوع .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

وقال : ﴿ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ ﴾ [التوبة : ٥٣] .

وقال : ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ [الرعد : ١٥] .

وقال : ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا ﴾ [فصلت : ١١] .

ولم يقابلِ الطَّوعَ بالكُرهِ بضمِّ الكافِ .

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا ﴾ [النساء : ١٩] ، أي : بالإكراهِ .

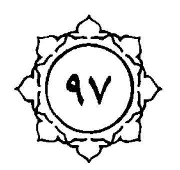
وكلُّ ذٰلك يدلُّ علىٰ ما يناله من المشاقِّ من الخارجِ ، وما يُكره عليه .

في حينِ قال : ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، أي : إن كرهَ القتالِ أمرٌ يعودُ إلىٰ الطبعِ ، فإن القتالَ مكروهٌ للإنسانِ .

وقال : ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

والحملُ والوضعُ مشقَّتان تنالان المرأةَ ، وهما مكروهان لها ؛ لما فيهما من آلامِ الحملِ والوضعِ والمشقةِ فيهما .

* * *



سؤالٌ

ما الفرق بين النبأ والخبر ؟

الجوابُ

النبأ : أهمُّ من الخبرِ وأعظمُ ، جاء في (المفرداتِ) للرَّاغبِ : « النبأ : خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ ، يحصلُ به علمٌ ، أو غلبةُ ظنٍّ »(١) .

وكذٰلك استعملها القرآن ، قال تعالىٰ : ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ : ١ ـ ٢] .

وقال : ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [صٓ : ٦٧ ـ ٦٨] .

ولم يستعمل (الخبر) بصورةِ الإفرادِ إلا في قصةِ موسىٰ في قوله : ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [النمل : ٧] ، وقوله : ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص : ٢٩] .

ولا شكَّ أن الخبرَ الذي بغاه موسىٰ لا يرقىٰ إلىٰ أهميةِ النبأِ العظيمِ .

---

(١) المفردات (نبأ) .

ومن الملاحظِ أن القرآنَ لم يستعملْ لأخبارِ الماضينَ من الرُّسل ، أو غيرهم إلا الأنباءَ .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

وقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [إبراهيم : ٩] .

وقال : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ [صٓ : ٨٨] .

وقال : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : ١٢٠] .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ [القمر : ٤] .

قد تقول : ولـٰكنه استعمل الأخبارَ في أمر يدلُّ علىٰ عظيمِ أهميتِها ، فقد قال ربنا : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] .

فنقول : إن هـٰذا يدلُّ علىٰ عظيمِ البلاءِ ، فإنه إذا بلا الأخبارَ مع أنها أيسرُ من الأنباءِ فهو سيبلو الأنباءَ من بابِ أولىٰ ، فإنه إذا بلا اليسيرَ فإنه سيبلو العظيمَ من بابِ أولىٰ ، ولو قال : (ونبلو أنباءكم) لم يدل علىٰ أنه يبلو الأخبارَ ، بل هو سيتركها ؛ لأنها أهونُ ، فلما ذكر أنه يبلو الهيِّنَ دلَّ علىٰ أنه يبلو العظيمَ ولا شكَّ .

وقد تقول : ولـٰكنه ذكرَ الأخبارَ في الأمورِ العظيمةِ ، وهي الآخرةُ ، فقد قال :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة : ١ ـ ٥] .

فنقول : هٰذا يدلُّ علىٰ عظمِ ما سيكون في اليومِ الآخر ، فهٰذه هي الأخبارُ ، فما بالك بالأنباءِ ؟ !

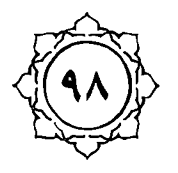
فإنه ستحدث أمورٌ أكبرُ وأعظمُ من الزَّلزلةِ ، من مثل قولِهِ : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ [الانفطار : ١ ـ ٣] .

ومن مثل قولِهِ : ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ [الواقعة : ٥ ـ ٦] .

وقولِهِ : ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمٰن : ٣٧] ، وغير ذٰلك من الأمورِ العظيمةِ .

وهٰذا تحذيرٌ عظيمٌ ، فإذا كانت هٰذه هي الأخبارَ ، فما بالك بالأنباءِ ؟

* * *



سؤالٌ

العدد في القرآنِ الكريمِ هل يُراد به حقيقةُ المذكورِ أو يُراد به التكثيرُ ؟

الجوابُ

إن العدد مذكورٌ في القرآنِ في أكثرِ من سياقٍ ومقامٍ :

١ ـ فقد ذُكر في الأحكامِ ، وذٰلك نحو قولِهِ : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ﴾ [البقرة : ١٩٦] .

وقوله : ﴿ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ ﴾ [المائدة : ٨٩] ، وهٰذا يُرادُ به العددُ المذكورُ حتماً .

٢ ـ وقد يُذكرُ في الإخبارِ عن أمورٍ أو حوادثَ مختلفةٍ ، وذٰلك نحو قوله تعالىٰ : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة : ٧] .

وقوله : ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] .

وقوله : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾ [الأعراف : ١٥٥] ، وهٰذه الأعدادُ يُراد بها حقيقةُ ما ذُكر أيضاً .

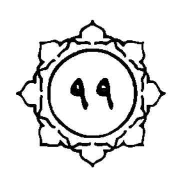
٣ ـ هناك أعدادٌ اختلفوا فيها ، أتُراد حقيقتها أم يُراد بها التّكثيرُ ، وذٰلك نحو قولِهِ : ﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ﴾ [التوبة : ٨٠] .

والذي نرجّحه أنه يُراد به حقيقتها ، والدَّليلُ علىٰ ذٰلك ما جاء في الخبرِ ، أن الرّسول ﷺ قال : « **سمعت ربي رخّص لي فلأستغفرن لهم سبعين وسبعين وسبعين ، فلعل ٱلله يغفر لهم** » . حتىٰ نزل قوله : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ﴾ [المنافقون : ٦][١] .

* * *

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٢ / ٣٧٦) .



سؤالٌ

لماذا لم تتكررْ قصةُ يوسفَ في القرآنِ كما تكررتْ قصصُ الأنبياءِ الآخرينَ ؟

الجوابُ

نقول أولاً : ليست قصةُ يوسفَ هي الوحيدةَ التي لم تتكرر في القرآنِ ، وإنما هناك قصصٌ أخرىٰ لم تتكرر ؛ منها قصةُ سليمانَ والهدهد ، وقصةُ ذي القرنين ، وقصةُ موسىٰ والخضر ، وقصةُ أصحابِ الكهفِ وغيرها .

أما الجوابُ عن قصةِ يوسفَ ، فإن هـٰذه القصةَ ليس فيها تعليماتٌ ، ولا أحكامٌ ، ولا دعوةُ قومٍ من الأقوامِ إلىٰ ما دعا إليه الأنبياءُ الآخرون ، وليس ليوسفَ ولا لأبيه مع قومِهِ شأنٌ من شؤونِ الدعوةِ .

وبذا هي تختلفُ عن رسالاتِ الأنبياءِ الآخرين ، من دعوةِ أقوامِهِم إلىٰ التوحيدِ وتركِ عبادةِ الأصنامِ ، والنَّهيِ عن الشِّرك والعقائدِ الباطلةِ ، ونهيهم عن أعمالٍ كانوا يرتكبونها من مثلِ التَّطفيفِ بالموازين والكيل ،

وإتيانِ الذكرانِ ، وغيرها من الفواحشِ ، ودعوتهم إلىٰ صالحِ العملِ ، وهي أُسسٌ عامةٌ لجميعِ الأقوامِ والمجتمعاتِ علىٰ مرِّ الزمانِ .

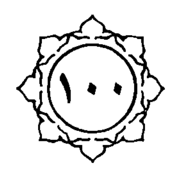
أما قصةُ يوسفَ ـ علىٰ ما فيها من عبرٍ ـ فهي تحكي قصة شأنٍ عائليٍّ ، وليست رسالةً إلىٰ مجتمعٍ أو قومٍ من الأقوامِ .

وأما ما قاله يوسف إلىٰ السَّجينينِ معه : ﴿ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] ، فهٰذا جاءَ عرضاً استغلَّه يوسفُ للدعوةِ إلىٰ ٱلله ، وهو بصددِ تعبيرِ الرؤيا ، ولم يذكرِ القرآنُ لنا أن يوسفَ كان مُكلَّفاً بتبليغِ رسالةٍ ما إلىٰ قومِه أو إلىٰ غيرهم .

وحتىٰ لو كان يوسفُ رسولاً من رسلِ ٱلله ، كما يفهم من قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ ﴾ [غافر : ٣٤] ، لٰكنه لم تُذكر هٰذه الرِّسالةُ ، ولا بما أُرسل .

فاختلف الأمرُ عن بقيةِ قصصِ الأنبياءِ ؛ الذين تكرَّرَ الحديثُ عنهم .

* * *



سؤال

ما الفرق بين فتح ٱلله عليك وفتح ٱلله لك

نسمعُ أحياناً داعياً يدعو لصاحبه بقوله : (فتح ٱلله عليك) ، ويقال : إن هـٰذا الدعاءَ غيرُ مناسبٍ ؛ لأن (فتح ٱلله عليك) لا يقال في الخيرِ ، وإنما يقال في الشرِّ فقط ، والصوابُ أن يقال : (فتح ٱلله لك) فما حقيقةُ الأمرِ ؟

الجوابُ

إن الاعتراضَ غيرُ واردٍ ، وإنما يصحُّ أن يقال : (فتح ٱلله عليك) في الخيرِ والشرِّ ، بحسب ما يُبيِّن الدَّاعي أو المخبرُ أو ينويه .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

وقال علىٰ لسانِ بعضِ أهلِ الكتابِ : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٧٦] .

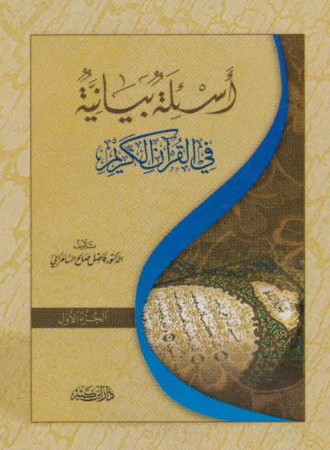
وهـٰذا في الخيرِ كما هو واضحٌ .

وقد يُستعمل في العقوباتِ والشَّرِّ ، قال تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٧] .

* * *

فهـــرس الموضـــوعات

* * *



أسئلة وإجابات حول الأسلوب البياني في القرآن الكريم، مرتبة حسب تسلسل الموضوعات في المصحف الشريف.

ويجد القارئ لفتات عميقة، ونظرات صائبة، تدل على حسن التفهم، والربط بين الآيات، تأكيداً لإعجاز القرآن، وأنه موحى من لدن حكيم عليم.

واعتمد المؤلف على المصادر الموثوقة المعتبرة لدى العلماء، من التفاسير، والمعاجم، وكتب الغريب، وبعض المراجع الحديثة ذات الصلة بموضوع هذا الكتاب، وهي بمجموعها تزيد على الثلاثين مصنفاً.

وأسلوب السؤال والجواب يثير الفكر، ويحرض العقل على التأمل والتدبر، ويساعد على الحفظ والاستظهار، واستحضار الجواب عند المذاكرة في نصوص التنزيل.



www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com



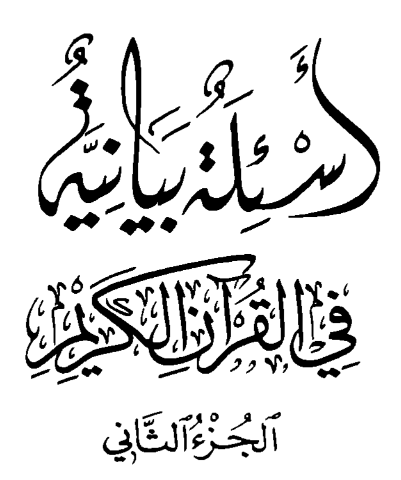
أَسْئِلَةٌ بَيَانِيَّةٌ

فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

تَأْلِيفُ
الدكتور فَاضِل صَالِح السَّامَرَّائِيّ

الْجُزْءُ الثَّانِي




أسئلة بيانية
في القرآن الكريم
الجزء الثاني

● الموضوع: علوم القرآن
العنوان: أسئلة بيانية في القرآن الكريم - الجزء الثاني
تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011 م

ISBN 978-614-415-041-2

ISBN 978-614-415-041-2



● الطباعة: مطابع المستقبل - بيروت ــ التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
● الورق: كريم ــ ألوان الطباعة: لونان ــ التجليد: كرتونيه
● القياس: 17×24 ــ عدد الصفحات: 152 ــ الوزن: 420 غ



دمشق - سوريا - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي - صالة العرض تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2258541
بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة - تلفاكس: 817857 01 - جوال: 204459 03
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com



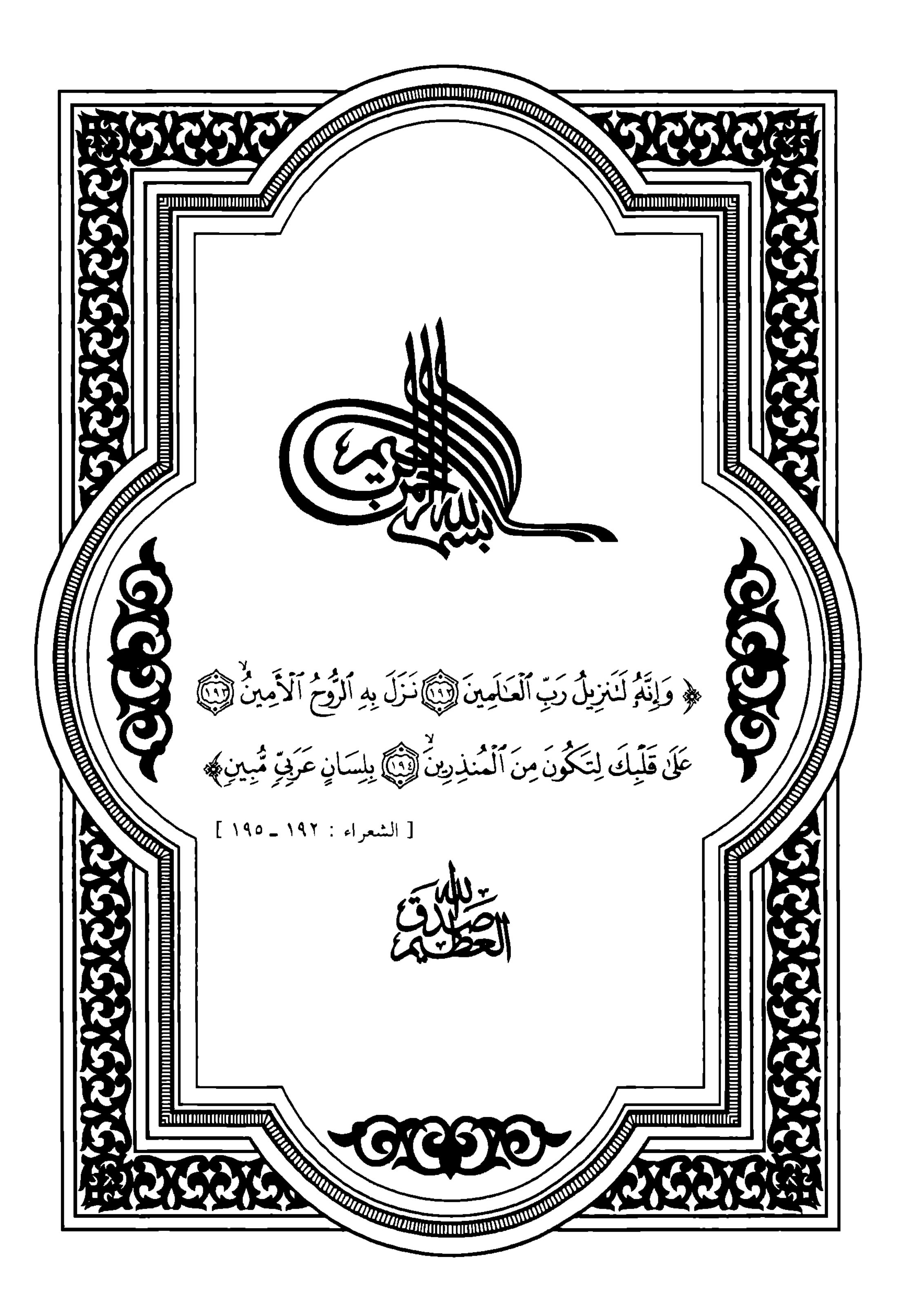
تأليف
الدكتور فاضل صالح السامرائي

الجزء الثاني



دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم


بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾
عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾
[الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥]
صدق الله العظيم



١٠١ ـ قال تعالىٰ في سورة البقرة : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ٢] .

وقال في سورة الإسراء : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء : ٩] .

سؤالٌ : لماذا أشار إلىٰ الكتابِ في آية البقرةِ بـ : (ذٰلك) الذي هو للبعيد ، وأشار إلىٰ القرآنِ في آية الإسراءِ بـ : (هـٰذا) الذي هو للقريب ؟

الجواب : أشار إلىٰ الكتاب بـ : (ذٰلك) ليدل علىٰ علوّه وبعده عن الرَّيب ، وأنه بعيد المنالِ عن أن يُؤتىٰ بمثله كما قال تعالىٰ : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ...﴾ [البقرة : ٢٣ ـ ٢٤] .

بخلاف قولِهِ في الإسراءِ : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء : ٩] فلمَّا كان الأمر في ذكر هدايةِ الناسِ ومعرفتهم به وبأحكامه ، انبغىٰ أن يكون قريباً منهم .

ولا يحسنُ أن يقال في آية الإسراءِ : (إن ذٰلك الكتاب يهدي للتي هي أقوم) وذٰلك أنه تقدَّم الآية قوله : ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ... ﴾ [الإسراء : ٢] .

فلو قال : (إن ذٰلك الكتابَ) لكانت الإشارة محتملةً إلىٰ كتابِ موسىٰ ، وكذٰلك لو قال : (هٰذا الكتابُ) .

فذكر القرآن الذي هو عَلَمٌ علىٰ كتاب سيدِنا محمدٍ ﷺ .

هٰذا إضافةً إلىٰ أنه لم ترد الإشارة إلىٰ لفظِ القرآنِ إلا بـ : (هٰذا) ؛ لأنه من القراءة ، والقراءة ينبغي أن تكون من شيءٍ قريبٍ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] .

وقال : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس : ٣٧] .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الإسراء : ٨٩] .

وقريبٌ من هٰذا قولُه تعالىٰ : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] .

وقوله : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [الأنعام : ٩٢] .

وذٰلك أنه لما قال : (أنزلناه) صار قريباً .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الأحقاف : ١٢] فأشار بـ : (هٰذا) ، وذٰلكَ أنه قال في الآية : ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف : ١٢] .

فلو قال : (وذٰلك كتابٌ) لاحتملت الإشارة إلىٰ كتابِ موسىٰ الذي تقدَّم ذكره في الآيةِ .

١٠٢ ـ قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٣] .

وقال في سورةِ النُّورِ : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [النور : ٢٩] .

سؤالٌ : لماذا قال في آيةِ البقرةِ : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ، وقال في آيةِ النُّورِ : ﴿ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ فلم يذكر الفعلَ (كنتم) ؟

الجوابُ : الآية في البقرة هي قول ٱللهِ للملائكة في قصة آدمَ ، فذكر لهم أنه يعلم غيب السمٰواتِ والأرضِ ، ويعلم ما يبدون وما كانوا يكتمون ، فاستغرق علمه الزمنَ كلَّه والأمرَ كلَّه .

وقوله : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ يشمل ما كتموه علىٰ وجه الاستمرارِ ، فشمل الماضي كلَّه .

وما كانوا يكتمونه ، قيل : هو قولهم : لن يخلق ٱلله تعالىٰ أكرمَ عليه منَّا [١] ولا أعلم منَّا .

وقيل : هو ما أسرَّه إبليسُ في نفسه من الكبر [٢] .

فقوله : ﴿ مَا تُبْدُونَ ﴾ شمل علمه الحالَ .

وقوله : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ شمل علمه الماضي علىٰ جهةِ الاستمرارِ .

---

(١) انظر : روح المعاني (١ / ٢٢٨) .

(٢) انظر : فتح القدير (١ / ٥٢) .

فشمل علمه الزمن كلَّه ، والأمر كلَّه .

وأما آية النورِ فهي في دخول بيوتٍ غيرِ مسكونةٍ ، وربنا يعلم ما يبدون في دخولهم البيوتَ ، وما يكتمونه في أنفسهم ، وماذا يضمرون فيها عند الدخول ، وذٰلك هو المهمُّ . أما ما قبل ذٰلك ، فلا يدخل في هـٰذا الأمرِ .

وقيل في قوله : ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ : « وعيد لمن يدخل هـٰذه المداخل لفساد أو اطلاع علىٰ عورات »[1] أو التَّجسُّس علىٰ قطَّانها ، أو بقصد أذاهم ، أو سرقة متاع .

فناسب كل تعبيرٍ موضعَه .

١٠٣ ـ قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ : ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة : ١١٣] .

وقال نحو ذٰلك في مواطنَ أخرىٰ (النحل : ١٢٤ ، الحج : ٦٩ ، الزمر : ٣) .

وقـال : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس : ٩٣] .

وقال نحو ذٰلك في سورةِ الجاثيةِ (١٧) .

وقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الحج : ١٧] .

وقال نحو ذٰلك في السجدةِ (٢٥) .

---

(١) روح المعاني (١٨ / ١٣٨) .

سؤالٌ : لماذا قال في مواضع (يحكم) ، وفي مواضع (يقضي) ، وفي مواضع (يفصل) ؟

الجوابُ : قالوا : « الحكم بالشيء هو أن تقضي بأنه كذا ، أو ليس بكذا ، سواء ألزمت ذلك غيرك أو لم تلزمه »[١] .

وقد تحكم على أمر أنه حق أو باطل ، من غير فصلٍ أو قضاءٍ أو إلزام ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : ٥٨ ـ ٥٩] .

وقال : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤] .

أما القضاء فأصله القطع والفصل . وقضاء الشَّيء إحكامه ، وإمضاؤه ، والفراغ منه .

والقضاء في اللغة علىٰ وجوه ؛ مرجعها إلىٰ انقطاع الشيءِ وتمامه .

وكل ما أحكم عمله وأُتم أو ختم ، أو أُدّي أداءً أو أُنفذ أو أُمضي ، فقد قُضِيَ .

والقاضي في اللغة معناه : القاطع للأمورِ المحكم لها .

وقد يكون بمعنىٰ الفراغِ ، نقول : (قضيتُ حاجتي) و (قضىٰ فلانٌ صلاته)[٢] .

---

(١) تاج العروس (حكم) .

(٢) انظر : لسان العرب (قضىٰ) .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾ [القصص : ٢٩] .

وقال : ﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾ [هود : ٤٤] .

وجاء في (الفروقِ اللغويةِ) في الفرق بين الحكمِ والقضاءِ : « إنَّ القضاء يقتضي فصلَ الأمرِ علىٰ التمام ، من قولك : (قضاه) إذا أتمه وقطع عمله ، ومنه قولُه تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ [الأنعام : ٢] .

والحكم يقتضي المنع عن الخصومة . . . ويجوز أن يقال : الحكم فصل الأمورِ علىٰ الأحكام بما يقتضيه العقلُ والشرع »[1] .

فالقضاء أشد ؛ لأنه يقتضي إمضاءَ الحكمِ وإتمامه والفراغ منه .

وأما الفصل فإنه إبانة أحدِ الشيئينِ من الآخر ، حتىٰ يكون بينهما فرجة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ [يوسف : ٩٤] .

والفصال : الطلاق ؛ لأنه تدور معانيه علىٰ البعد .

جاء في (لسان العرب) : « الفصل بونُ ما بين الشَّيئين ، والفصل الحاجز بين الشَّيئين . والفصل القضاء بين الحق والباطل »[2] .

فهو أشدُّ مما قبله ؛ لأنه يفيد الابتعاد .

والقرآن يستعمل الحكمَ فيما هو أخفُّ من القضاءِ ، ويستعمل القضاءَ فيما هو أخصُّ من الفصلِ .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النحل : ١٢٤] .

---

(١) الفروق اللغوية (٢١) .

(٢) لسان العرب (فصل) .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس : ٩٣] .

فقد قال في آيةِ النحلِ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ ﴾ .

وقال في آيةِ يونسَ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى ﴾ ذٰلك أنه ذكر في آية يونسَ الاختلافَ بعد مجيءِ العلمِ ، وهو أشدُّ مما قبله ؛ مما لم يذكر فيه ذٰلك .

ونحو ذٰلكَ قولُه تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الجاثية : ١٦ ـ ١٧] . وهو نظير ما مرَّ .

أما الفصل فهو أشدُّ ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج : ١٧] .

فأنت ترىٰ أن الفصلَ إنما هو بين مِلَلٍ مختلفةٍ مؤمنةٍ ، وأهل كتابٍ ، ومشركينَ . وهٰذا يقضي الافتراقَ بين هٰذه المللِ في الحكمِ ، وفي الخاتمة ، فمنهم في الجنة ، ومنهم في السَّعير في دركاتٍ مختلفةٍ .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [السجدة : ٢٣ ـ ٢٥] .

فذكر أن ٱللهَ يفصلُ بينهم ، وقد قيل : إن الفصلَ إنما هو بين الأنبياءِ

وأممهم[١] ، وقيل : بين المؤمنين والمشركين[٢] .

والفصلُ بين هؤلاءِ أشدُّ في الحكمِ والخاتمةِ .

وقال تعالىٰ : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ ﴾ [الممتحنة : ٣] .

ذٰلك أن هٰذا الفصلَ إنما هو بين المؤمنين وأعداءِ ٱللهِ ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ ﴾ [الممتحنة : ١-٣] . فناسبَ ذكرَ الفصلِ ، وناسب كلُّ تعبيرٍ موضعَه .

١٠٤ ـ قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وقال في سورةِ النُّورِ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٠] .

سؤالٌ : لماذا أكَّد خبر (إن) في آيةِ البقرةِ باللاَّم ، فقال : (لرؤوف) ، ولم يؤكِّده باللاَّم في قوله : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ؟

الجوابُ : من أكثر من جهة ، فإنه لا يصحُّ التوكيد باللام في آية

---

(١) انظر : روح المعاني (٢١ / ١٣٨) .

(٢) انظر : روح المعاني (٢١ / ١٣٩) .

النور ؛ لأنه خبرٌ لـ(أن) المفتوحة الهمزة ، ولا يصحُّ اقتران لامِ الابتداءِ بخبرها . . هـٰذا من ناحيةٍ .

ومن ناحيةٍ أخرىٰ أن المذكورين في آيةِ البقرةِ كانوا في عبادةٍ وطاعةٍ . قال تعالىٰ : ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

فذكر أن ٱللهَ لا يُضيع صلاتهم التي كانوا يصلُّونها قبلَ تحويلِ القبلةِ .

وأما السياق في آية النور ، فإنه في الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝١٩ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور : ١٩ ـ ٢٠] .

ولا شكَّ أن الأولين أولىٰ بالرأفة والرحمة ، فناسب التَّوكيد .

١٠٥ ـ قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ في الآيةِ الثامنةِ والخمسينَ بعد المئةِ : ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ١٥٨] .

وقال في سورةِ البقرةِ أيضاً : ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ﴾ [البقرة : ١٨٤] .

سؤالٌ : لماذا قال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ بالواو ، وقال في الآيةِ الأخرىٰ : ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ بالفاءِ ؟

الجوابُ : إن الآية الأولىٰ في طاعة أخرىٰ ؛ من حجٍّ ، أو عمرةٍ ، أو طوافٍ ، أي : فمن أتىٰ بنفلٍ آخرَ من نحو هـٰذا الخيرِ ، فإن ٱلله شاكرٌ عليمٌ .

أما الآية الأخرىٰ ، فإن التَّطوع والزِّيادة في نفسِ الفديةِ بأن يزيد علىٰ القدرِ المذكورِ ، من حيث عدد الذين يطعمهم ، فيجعله أكثرَ من مسكينٍ ، أو يزيد علىٰ القدرِ المذكورِ .

جاء في (روح المعاني) : « فمن تطوع خيراً بأن زاد علىٰ القدرِ المذكورِ في الفدية ، أو زاد علىٰ عددِ مَنْ يلزمه إطعامه ، فيطعم مسكينين فصاعداً ، أو جمع بين الإطعام والصَّوم »[١] .

فإن هـٰذه الآية في أمرٍ واحدٍ ، فيجعل التَّطوع قسماً من الفدية .

أما الآية الأولىٰ ، فإنها في طاعةٍ منفصلةٍ .

١٠٦ ـ قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وقال في سورةِ النساءِ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١٣٦] .

سؤالٌ : قدَّم الإيمان باليوم الآخرِ في سورةِ البقرةِ علىٰ الملائكة والكتاب والنبيين . وأخَّر اليومَ الآخرَ في آيةِ النِّساءِ ، فلماذا ؟

(١) روح المعاني (٢ / ٥٩) .

الجوابُ : إنَّ السِّياق قبل آية البقرةِ في ذكرِ اليوم الآخرِ ، وما أعدَّ فيه لمن عصاه ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ ۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ ... ﴾ [البقرة : ١٧٤ ـ ١٧٧] .

فذكر الكتابَ بعد يوم القيامةِ ، فقال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾ بعد ذكرِ ما أعدَّه ٱللَّهُ لمن عصاه يومَ القيامةِ . وهو نظيرُ ما ورد في الآيةِ المذكورةِ﴿ ۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ ... ﴾ من تقديمِ الإيمانِ باليومِ الآخرِ علىٰ الإيمانِ بالكتابِ .

وأما في آية النِّساء ، فليس السِّياق في اليوم الآخرِ ، فجعله آخراً ، فإنه قال في الآيةِ المئةِ والخمسينَ (١٥٠) : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ ... ﴾ .

وقال في الآية (١٥٢) : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ .

فلم يذكرِ اليومَ الآخرَ فأخَّره .

فقدَّم اليومَ الآخرَ في البقرةِ مناسبةً للسِّياقِ ، وأخَّره في النِّساء ؛ للسبب نفسه .

١٠٧ ـ قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ : ﴿ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ

﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾
[البقرة : ١٩١ ـ ١٩٣] .

وقال في سورةِ الأنفالِ : ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾
[الأنفال : ٣٨ ـ ٤٠] .

سؤالٌ : لماذا قال في البقرةِ : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ؟

وقال في الأنفالِ : ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ؟

الجوابُ : آيات البقرةِ هي في قريشٍ ، يدل علىٰ ذٰلك قولُه : ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ .

وقوله : ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ .

أما آيات الأنفالِ فهي عامَّة ، ولذا قال في الأنفالِ : ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ بذكر الكلِّ الدالِّ علىٰ العمومِ .

في حين قال في البقرةِ : ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ من دونِ ذكرِ ما يدلُّ علىٰ العمومِ[1] .

ولمْ يقلْ في سياقِ آياتِ البقرةِ : (وإن تولَّوا فاعلموا أن ٱلله مولاكم) فلم يضعِ احتمالَ التَّولِّي في قريشٍ ، وإنما هو إلماحٌ إلىٰ أنهم

(١) انظر : ملاك التأويل (١ / ١١٦) وما بعدها .

سيُسلِمُون ، وإنما وضعَ هـٰذا الاحتمالَ للأممِ الأخرىٰ ، أو الأماكن الأخرىٰ التي تحتمل هـٰذا الافتراضَ .

كما لَمْ يقلْ في آيةِ البقرةِ : (وإن يعودوا فقد مضت سنَّة الأولينَ) للسَّبب نفسِهِ . وإنما قال في سياقِ آيةِ البقرةِ : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ ، وقال في غيرهِمْ : ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ ، وهو تحسُّبٌ لما قد يقعُ منهم ، وٱلله أعلم .

١٠٨ ـ قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ : ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ﴾ [البقرة : ١٩٦] .

سؤالٌ : لماذا ذكر أن العشرةَ كاملةٌ ، مع أنه معلوم أن الثَّلاثةَ والسَّبعةَ عشرةٌ ؟

الجوابُ : قيل في ذٰلك أوجهٌ منها :

أنه جاء بـ(كاملة) لئلاَّ يتوهم أن الواو بمعنىٰ (أو) التخييرية ، فيختار أحدَ الأمرينِ .

والواو قد تأتي للإباحة ، في نحوِ قولِكَ : (جالِسِ الحسنَ وابنَ سيرين) ، وقولِهم : (الكلمة اسم ، وفعل ، وحرف) أي : اسم ، أو فعل ، أو حرف .

وقيل : هي صفة مؤكدة ، نحو قولِه تعالىٰ : ﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ [النحل : ٥١] .

والتَّوكيد غير عزيزٍ في اللغة ، وذٰلك نحو أنْ تقولَ : (كتبت بيدي) ، و(رأيت بعيني) ، و(سمعت بأذني) وقوله : ﴿ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

وهو يفيد تقريرَ الحكمِ وتوكيده ، وقولُه : (كاملة) للإفادة ألاَّ ينقص من الأيَّامِ شيئاً ، وللدَّلالة علىٰ أنه كمالٌ لصائمه ، وأنها مجزئة عن الهديِ[١] .

أو أن المعنىٰ : تلك عشرةٌ كمل الحج بها ، والله أعلم .

١٠٩ ـ سؤالٌ : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة : ٢١٢] .

وقال نحو هـٰذا في أكثر من موضع ، فما معنىٰ هـٰذا ؟

الجوابُ : إن لهـٰذا التعبيرِ أكثرَ من دِلالةٍ كلُّها صحيحة ، من ذٰلك :

١ ـ أنه لا يُسأل عما يفعل ، ولا يحاسبه أحدٌ .

٢ ـ وأنه يرزق من غير تقتيرٍ ، وبلا نهايةٍ لما يعطيه[٢] . فهو لا يخشىٰ أن تنفد خزائنه ، كما يفعل المخلوقون ، فإنهم يحسبون حساباً لما عندهم .

٣ ـ وأنه لا يحاسب المرزوق ، فيرزقه علىٰ قدر طاعتِهِ أو معصيتِهِ[٣] ، وإنما يُمِدُّ من يشاء من هـٰؤلاء وهـٰؤلاء علىٰ ما تقتضيه حكمته ، كما قال تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٠] .

٤ ـ أنه يعني أنه يوسع علىٰ من توجب الحكمة التوسعة عليه[٤] ، ولا يفعل ذٰلك من غير حكمة .

---

(١) انظر : تفسير الرازي (٢ / ٣١٠) ، روح المعاني (٢ / ٨٣ ـ ٨٤) .

(٢) انظر : روح المعاني (٢ / ١٠٠) .

(٣) انظر : البحر المحيط (٢ / ١٣١) .

(٤) انظر : الكشاف (١ / ٢٦٩) .

٥ ـ هو يرزق من يشاء من غيرِ حسابٍ من العبد ، فقد يرزق العبدَ ، وهو لا يعلم ، ولا يحسب لذٰلك حساباً ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾ [الطلاق : ٢ ـ ٣] .

١١٠ ـ **سؤالٌ** : لماذا قال ٱللهُ سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ ﴾ [البقرة : ٢٤٠] .

وقال : ﴿ ۞ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

فاستعمل الحولَ ، ولم يستعمل العامَ أو السَّنةَ ، كما قال ٱلله سبحانه : ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ ﴾ [لقمان : ١٤] .

الجواب : أما السَّنة والعام والحِجَّة فقد ذكرناها في كتابنا (من أسرارِ البيانِ القرآنيِّ ـ باب المفرداتِ) .

وأما استعمال الحولِ هٰهنا ، فله مناسبته ، ذٰلك أن معنىٰ (الحولِ) السنة « اعتباراً بانقلابها ، ودوران الشَّمسِ في مطالعِها ومغاربها » [١] .

ومن معاني (الحول) في اللغة التَّحوُّل والتَّغيُّر ، يقال : (حال) أي « تحول من موضعٍ إلىٰ موضعٍ ، وحال فلان عن العهدِ ؛ أي : زال » [٢] .

ومن معاني (الحول) الحجز والمنع ، يقال : « حال الشَّيء بين

---

(١) تاج العروس (الحول) .

(٢) لسان العرب (حول) .

الشيئين يحول حولاً وتحويلاً ؛ أي : حجز »[(١)] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود : ٤٣] .

وقال : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

ولم يستعملِ القرآنُ (الحولَ) إلاَّ في حالتي الوفاة أو الطلاق ، وكلاهما تحوُّل وحاجز .

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ... ﴾ [البقرة : ٢٤٠] .

وقال : ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

فقد ذكر بعضهم أن هٰذه الآيةَ خاصةٌ بالمطلَّقاتِ ، يدل علىٰ ذٰلك أمران :

الأمرُ الأوَّل : أن الآية ذكرتْ عقيب آياتِ الطَّلاقِ ، فكانت من تتمَّتِها .

والأمر الآخر : أن إيجاب الرِّزقِ والكسوةِ فيما بعد للمرضعاتِ يقتضي التَّخصيص ؛ إذ لو كانت الزوجة باقيةً لوجب علىٰ الزوجِ ذٰلك بسبب الزَّوجية ، لا الإرضاع[(٢)] .

والوفاة تحوُّل وتغيُّر ، والوفاة حاجز بين الزَّوجينِ ، فناسب استعمال الحولِ ، والطَّلاق تحوُّل وتغيُّر وهو حاجز بين الزوجين ، فناسب استعمال الحولِ أيضاً .

---

(١) المصدر السابق نفسه (حول) .

(٢) انظر : روح المعاني (٢ / ١٤٥ ـ ١٤٦) ، وانظر : فتح القدير (١ / ٢١٨) .

وذٰلك من لطيفِ التَّناسبِ ودقَّتِه .

١١١ ـ قال تعالىٰ في سورةِ البقرةِ : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٦٠] .

سؤالٌ : لماذا قال : ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ بالفاءِ ، ثمَّ قال : ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾ فجاءَ بـ(ثم) ، ولم يأتِ بالفاءِ ؟

الجوابُ : الفاءُ تدلُّ علىٰ التَّرتيب والتَّعقيب ، و(ثم) تدل علىٰ التَّرتيب والتَّراخي ، كما هو معلوم . فجاءَ بـ(ثم) لئلاَّ يفهم أنه إذا طالتِ المدة لم يكن الأمرُ علىٰ ما ذكر ، وليجعل لإبراهيم سعةً في الانتقالِ والحركةِ والتَّصرُّفِ . ولو جاء بالفاءِ لم يكن الوقت بهـٰذه السَّعة .

ولا شك أن إحياءَها بعد الذَّبح بمدة طويلة أدلُّ علىٰ القدرة من الإسراع في ذٰلك ؛ لاحتمالِ تغيُّرِ اللَّحمِ والأجهزةِ وفسادِها ، وذٰلك أبعد عن الحياة .

فجاء بـ(ثم) ؛ ليدلَّ علىٰ أنَّ ذٰلك لا يخرج عن قدرةِ ٱللهِ ، ضاق الوقت أو اتسع .

١١٢ ـ قال ٱلله سبحانه في سورةِ البقرةِ : ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، وقال في الآيةِ نفسِها : ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ .

سؤالٌ : لماذا قال أوَّلاً : ﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ ﴾ ، وقال فيما بعد : ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ ﴾ ؟

الجوابُ : إن (استشهد) أبلغ من (أشهد) ، فإن (استشهد) قد يفيد الطَّلب ؛ أي : طلب الإشهادِ كاستنجد بمعنىٰ طلبَ النجدةَ ، واستنصر بمعنىٰ طلبَ النُّصرةَ .

وقد يكون للمبالغةِ ، كاستيأس ؛ أي المبالغة في اليأسِ ، واستقر بمعنىٰ المبالغةِ في الاستقرارِ .

وكلا المعنيينِ أبلغُ من (أشهد) .

هٰذا ، وإن المقامَ مع (استشهدوا) أبلغ من (أشهدوا) ؛ ذٰلك أنه قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ... وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ... ﴾ [البقرة : ٢٨٢] . فقد ذكر الاستشهادَ مع الدَّينِ ، وذٰلك لحفظِ حقوقِ الدَّائنِ ، ثم ذكر أنَّ الكاتب ينبغي أن يكتب بالعدلِ . ثم أمر الذي عليه الحقُّ أن يتقي ٱلله ربَّه ، ولا يبخس من الحقِّ شيئاً ، ثم ذكر أنه إذا كان الذي عليه الحقُّ سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يملَّ هو ، فليمللْ وليه بالعدلِ .

ثم قال : ﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ ﴾ ، وقال : ﴿ شَهِيدَيْنِ ﴾ ، ولم يقل :

(رجلين) ؛ لأن الشَّهيد هو المبالغ في الشَّهادةِ ، العالم بموقعِها ، المقتدر علىٰ أدائِها .

في حين قال : ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ فمقامُ حفظِ الحقوقِ مع الاستشهادِ أبلغُ ، والاحتياط أكبر ، فناسب ذكر الاستشهادِ ، وناسب ذٰلك ذكر الشَّهيدِ ، وهو المبالغ في الشَّهادةِ . فناسبتِ المبالغةُ في الاستشهادِ المبالغةَ في الشَّهيد ، فناسب كلٌّ موضعَه .

جاء في (روحِ المعاني) : « ﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ ﴾ أي : اطلبوهما ليتحمَّلا الشَّهادة علىٰ ما جرىٰ بينكما »[1] .

وجوَّز أن تكون السِّين والتَّاء للمبالغة « إيماءً إلىٰ طلب من تكررتْ منه الشَّهادة ، فهو عالمٌ بموقعها ، مقتدرٌ علىٰ أدائِها ، وكأن فيها رمزاً إلىٰ العدالةِ ؛ لأنه لا يتكرر ذٰلك الشَّخص عند الحكام ، إلاَّ وهو مقبولٌ عندهم ، ولعلَّه لم يقل : رجلين ؛ لذٰلك »[2] .

وجاء في (البحرِ المحيطِ) : « ﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ ، أي : اطلبوا للإشهادِ شهيدينِ ، فيكون (استفعل) للطَّلبِ ، ويحتمل أن يكون موافقةَ (أفعل) أي : أشهدوا ، نحو استيقن موافق أيقنَ . . .

ولفظ (شهيدِ) للمبالغة ، وكأنهم أُمروا بأن يستشهدوا من كثرت منه الشهادة ، فهو عالم بمواقع الشَّهادة وما يشهد فيه ؛ لتكرُّر ذٰلك منه .

---

(١) روح المعاني (٣ / ٥٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٣ / ٥٧) .

فأُمروا بطلبِ الأكملِ ، وكان في ذٰلك إشارةٌ إلىٰ العدالةِ » [(١)] .

١١٣ ـ قال تعالىٰ في آلِ عمرانَ : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آل عمران : ١١] .

وقال في الأنفالِ : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال : ٥٢] .

سؤالٌ : لماذا أكَّد وزادَ في خاتمةِ آيةِ الأنفالِ علىٰ ما ذكره في آيةِ آلِ عمرانَ ، فقال في آيةِ آلِ عمرانَ : ﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ .

وقال في آيةِ الأنفالِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ، فأكَّد بـ(إنَّ) وذكرَ وصفه بالقويِّ ، وهو ما لم يذكره في آيةِ آلِ عمرانَ ؟

الجواب : قال ربُّنا في آيةِ آلِ عمرانَ : ﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ . وقال في آيةِ الأنفالِ : ﴿ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ . والكفر أعمُّ من التَّكذيبِ ، فإن التَّكذيب حالة من حالات الكفرِ ، فلما ذكرَ الكفرَ ذكَر من العقوبةِ ما هو أشدُّ وآكدُ ، فقال في آلِ عمرانَ : ﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ، وقال في الأنفالِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ .

ثمَّ إنَّ السِّياق في الأنفالِ أشدُّ في ذكرِ العقوباتِ ، فقد قال قبلَ آيةِ آلِ عمرانَ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ .

وقال قبل آيةِ الأنفالِ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ .

---

(١) البحر المحيط (٢ / ٣٤٥) .

فذكرَ عقوبتهم في النَّزعِ وما بعد ذٰلك ، ولم يذكر ذٰلك في آلِ عمرانَ .

وقال بعدها : ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ .

فذكر التَّكذيب كما في آلِ عمرانَ فذكرَ الكفرَ والتَّكذيبَ .

فكان السياق في الأنفالِ أشدَّ ، فلما زاد الكفرَ علىٰ التَّكذيب في السِّياق ، ناسب ذٰلك التَّأكيدُ .

ثم إنه قبلَ آيةِ الأنفالِ ذكر نصرَ المسلمينَ في بدرٍ علىٰ قلَّتهم ، (الآيات : ٤١ ـ ٤٩) ، والنَّصر محتاجٌ إلىٰ القوةِ فناسب ذكر القوة مع العقابِ ، فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

بخلاف السِّياق في آيةِ آلِ عمرانَ ، فإنه قبل هـٰذه الآياتِ وبعدها في أمورٍ أخرىٰ .

فقد قال قبلَها : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ .

وقال بعدَها : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ... ﴾ .

فناسب ذكرَ القوَّةِ والعقوباتِ الشَّديدةِ وتوكيدها سياقُ آياتِ الأنفالِ . وناسبَ ما ذكر في آيةِ آلِ عمرانَ السِّياق الذي وردتْ فيه . واللهُ أعلمُ .

١١٤ ـ قال تعالىٰ : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران : ١٤] .

سؤالٌ : إنَّ الآية ذكرت الرِّجالَ ولم تذكرِ النِّساءَ ، فقد جاءَ فيها : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ، ولم تذكر حبَّ الشَّهواتِ للرِّجالِ من النِّساءِ ، فلمَ ذٰلك ؟

الجوابُ : من أوجهٍ :

الأوَّل : أنَّ ربَّنا قال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ ، ولم يقلْ : (زيِّن للرِّجال) ، والنَّاس يدخل فيهم الرِّجال والنِّساء .

الثاني : أنه عندما ذكر البنينَ ألمح إلىٰ رغبةِ النِّساءِ في ذٰلك ، فإنَّهنَّ يرغبْن في البنين ، كما يرغبُ الرِّجالُ ، ويحملْنهم في أحشائهن ، ولٰكنه لم يشأ أن يخدش حياءَهن ، فيذكر حبهن للرِّجال .

ثمَّ إن الرجال قد يجهرون بذٰلك ، ويسعون في هٰذا الأمرِ ، وينفقون الأموال في ذٰلكَ ، فصرَّح بذكرهم ، وألمح في هٰذا المعنىٰ إلىٰ النِّساء ، ولا يحسن أن يقال فيهن كما يقال في الرِّجال .

الثالث : أنه ذكر القناطير المقنطرة من الذَّهب والفضَّة ، والنِّساءُ لا يختلفن عن الرِّجال في حبِّهنَّ لذٰلك ، بل ربما يفقْنَهم فيه .

فشملتِ الآيةُ عمومَ النَّاسِ .

١١٥ ـ **سؤالٌ :** قال تعالىٰ في سورةِ آلِ عمرانَ : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران : ٤١] .

وقال في سورةِ الأحزابِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب : ٤١ ـ ٤٢] ، فقدَّم الذِّكر على التسبيح .

وقال في سورةِ طه على لسانِ سيِّدِنا موسى عليه السلامُ : ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ بتقديم التَّسبيحِ على الذِّكر ، فلمَ ذاكَ ؟

الجوابُ : الذِّكر أعمُّ من التَّسبيحِ ، والتَّسبيح أخصُّ من الذِّكرِ ، فلما ذكر وقتين في التَّسبيح في آلِ عمرانَ : ﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ ، وكذلك في الأحزاب : ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ جاء بالأخصِّ ، وهو التَّسبيح .

وقيل : إن المراد بالتَّسبيح هنا الصلاة ، بدليلِ تقييدِه بالوقتِ[1] .

ولما أطلقَ جاء بالأعمِّ ، وهو الذِّكر ، فلمْ يقيدهُ بوقتٍ وقدَّمه ، فقدَّم ما هو أعم ؛ لأنه لا يختصُّ بوقتٍ دون وقتٍ .

أما تقديم التَّسبيحِ في (طه) ، فلأنَّ موسى في حالةِ خوفٍ من فرعونَ ، كما قال تعالى : ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه : ٤٥] .

والتَّسبيح ينجِّي من الغمِّ والكربِ ، كما قال سبحانه عن نبيِّه يونسَ : ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات : ١٤٣ ـ ١٤٤] .

وقال فيه أيضاً : ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٧ ـ ٨٨] .

---

(١) انظر : روح المعاني (٣ / ١٥٢) ، فتح القدير (١ / ٣٠٧) .

وقال لنبيِّه وخاتم رسلهِ ﷺ : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٩٧ ـ ٩٨] فقدَّم التَّسبيح لذٰلك .

ولعلَّ لذٰلك سبباً لطيفاً آخرَ ، وهو أن التَّسبيح معناه : التَّنزيه ، فقدَّمه ؛ لينزِّهَ ٱللهَ عما لا يليق ، مما كان عليه فرعونُ وقومُه من الشِّركِ والكفرِ ، ووصفه سبحانه بما لا يليق ، وإنكار أن يكون ثمَّةَ إلـٰهٌ غيرُ فرعونَ ، وٱللهُ أعلمُ .

١١٦ ـ قال تعالىٰ في آلِ عمرانَ : ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٥٧ ـ ١٥٨] .

وقال في سورةِ (المؤمنون) : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣٥] .

سؤالٌ : لماذا قال في آيتي آلِ عمرانَ : (مُتُّم) بضمِّ الميم .

وقال في سورةِ (المؤمنون) : (مِتُّم) بكسرِ الميمِ ؟

الجوابُ : لا إشكال من النَّاحيةِ اللُّغويَّةِ في ذٰلك . فإن (مات) فيها لغتان : (مات يمات موتاً) مثلَ : (خافَ يخافُ خوفاً) و(نام ينام نوماً) .

واللُّغة الأخرىٰ (مات يموت) مثل (قال يقول) . فعلىٰ لغة (مات يمات) يقال : (مِتُّ ومِتنا) بكسر الميم مثل : (خِفْتُ وخِفْنا) .

وعلىٰ لغة (مات يموت) يقال : (مُتُّ ومُتنا) بضم الميم . والوجهان جائزان .

أما من النَّاحيةِ البيانيَّةِ ، فمن المعلوم أن الضَّمة أثقل من الكسرة ، وحالة الموت المذكورة في آلِ عمرانَ أثقلُ وأشدُّ ممَّا في (المؤمنون) ، وإن السِّياق أصعب وأشقُّ ، فإن الكلام علىٰ ما حصل لهم في أحُدٍ ، وما أصابهم من قتل (الآيات : ١٥٢ ـ ١٥٥) .

ثمَّ ذكر الموت في الغزواتِ ، أوِ الضربِ في الأرض ، وذلكَ يعني : الموت في الغربةِ ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٦] .

ثم قال : ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ... ﴾ الآية ، يعني : الموت في سبيلِ ٱلله ؛ أي : في الجهادِ .

وليس السِّياق كذٰلك في سورةِ (المؤمنونَ) ، وإنما هو في الحوار بين رسولٍ من رسلِ ٱلله وكفارِ قومهِ ، فقد قالوا فيه : ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣٣ ـ ٣٦] .

ولا شكَّ أن الموت في الغزواتِ أو في الغربة أثقلُ وأشدُّ من الموت علىٰ الفراشِ . فجاء فيما هو أثقلُ وأشدُّ بما هو أثقل ، وهو الضَّمة ، ولما هو أخفُّ بما هو أخفُّ ، وهو الكسرة .

ويدلُّك علىٰ ذٰلك أنه حيثُ قال : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ ونحوها ، جاء بالكسرة نظيرَ قوله : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ .

١١٧ ـ قال تعالىٰ في سورةِ النِّساءِ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء : ١] .

وقال في الأعرافِ : ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف : ١٨٩] .

وقال في الزُّمَرِ : ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر : ٦] .

سؤالٌ : لماذا قال في آيةِ النِّساءِ : ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ؟

وقال في آيتي الأعرافِ والزُّمَرِ : ﴿جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ .

الجوابُ : الجعلُ حالة بعد الخلقِ في الغالبِ ، تقولُ : (جعل الزَّرع حطاماً) أي : بعد خلقِه وتكوينِه ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا﴾ [الزمر : ٢١] .

ولا يقال : (خلقه حطاماً) فإن ذٰلك يعني ابتداءً .

وتقول : (جعل الماء عذباً بعد أن كان أجاجاً) .

وقال ربُّنا في بني إسرائيل : ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة : ٦٠] .

ولا يصحُّ : (خلق منهم) . فالخلق أوّلٌ ، والجعلُ بعده في الغالبِ .

وآية النِّساء في آدمَ وحواء ، قال تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء : ١] .

وأما آيتا الأعرافِ والزُّمَرِ فهما فيما بعد ذٰلك من بني آدمَ ، قال

تعالىٰ في الأعرافِ : ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٩ ـ ١٩٠] .

فأنتَ ترىٰ أنها ليست في آدمَ وحواء ، بدليل قوله فيها : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

فإنه لا يصحُّ أن يقال في آدمَ وحواء : (فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما . . .) .

وكذٰلك آية الزُّمَرِ ، فإنها ليست في آدمَ وحواء ، بل فيما بعد ذٰلك من بني آدمَ ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ﴾ [الزمر : ٦] فهٰذا في عمومِ الأزواجِ .

فالجعل هنا ليس في الإخبارِ عن أصلِ الإيجادِ ، بل المقصود أنه جعل الأنثىٰ زوجاً للذَّكرِ . فآية النِّساءِ في أصلِ الخلقِ ، بخلاف الآيتينِ الأخريينِ .

١١٨ ـ قال تعالىٰ في سورةِ النِّساءِ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء : ٤٨] .

وقال في سورةِ النِّساءِ أيضاً : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١١٦] .

سؤالٌ : لماذا ختمَ الآيةَ الثامنةَ والأربعينَ بقولِهِ : ﴿ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ ، وختمَ الآيةَ الأخرىٰ بقولِهِ : ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ ؟

الجوابُ : إنَّ الآية الثامنة والأربعين في الكلام علىٰ أهلِ الكتابِ ، وفي سياقِ ارتكابِ الآثامِ . وأهلُ الكتابِ مطَّلعون علىٰ ما أنزله ٱللهُ من التَّوحيد ، ومن يشركْ باللهِ فقد افترىٰ إثماً علىٰ ٱللهِ .

ثم إن السِّياقَ فيها في ارتكابِ الآثام ، فقد جاء قبل الآية الكلام علىٰ أهلِ الكتابِ ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ...مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ... يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ... ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ...﴾ [النساء : ٤٤ ـ ٥١] .

فقد ذكر أنهم يشترون الضَّلالة ، وأنهم يحرِّفون الكلم عن مواضعِهِ ، ويقولون : سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع ، وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعناً في الدين . وقال : إنهم يفترون علىٰ ٱللهِ الكذبَ ، وكفىٰ به إثماً مبيناً . وقال : إنهم يؤمنون بالجبتِ والطاغوتِ ، ويقولون للذين كفروا : هـٰؤلاءِ أهدىٰ من الذين آمنوا سبيلاً ، وغير ذٰلك . وهـٰذه كلها آثامٌ ، فناسب ذٰلك فاصلةُ الآيةِ .

وأما الآية الأخرىٰ ففي أناسٍ لم يعلموا كتاباً ولا عرفوا وحياً ،

وهي في سياق الضَّلال ، فقد قال قبلَ الآيةِ : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ [النساء : ١١٥] .

ونقيضُ الهدَىٰ الضَّلالُ ، فالذي يشاقُّ الرَّسول من بعدِ ما تبين له الهدىٰ إنما هو ضالٌّ .

وقال بعد ذٰلكَ علىٰ لِسانِ الشَّيطانِ : ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ... ﴾ [النساء : ١١٩] .

فناسب المقامَ قولُهُ : ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ .

جاء في (روح المعاني) : « وإنما جعل الجزاء علىٰ ما قيل هنا : ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ... ﴾ وفيما تقدَّم : ﴿ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ لما أن تلك كانت في أهل الكتابِ ، وهم مطَّلعون من كتبهم علىٰ ما لا يشكُّون في صحَّته من أمرِ الرَّسولِ ﷺ ، ووجوب اتِّباع شريعتِه ، وما يدعو إليه من الإيمانِ بٱللهِ تعالىٰ ، ومع ذٰلك أشركوا وكفروا ، فصار ذٰلك افتراءً واختلاقاً وجراءةً عظيمةً علىٰ ٱللهِ تعالىٰ .

وهٰذه الآية كانت في أناسٍ لم يعلموا كتاباً ، ولا عرفوا من قبل وحياً ، ولم يأتِهمْ سوىٰ رسولِ ٱللهِ ﷺ بالهدىٰ ودينِ الحقِّ فأشركوا بٱلله عزَّ وجلَّ ، وكفروا وضلُّوا مع وضوحِ الحُجَّةِ ، وسطوعِ البرهانِ ، فكان ضلالُهم بعيداً ولذٰلك جاء بعدَ تلكَ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ﴾ وقولُه سبحانه : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ .

وجاء بعدَ هٰذهِ الآيةِ : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء : ١١٧] »[1] .

(١) روح المعاني (٥ / ١٤٨) .

١١٩ ـ قال تعالىٰ في سورةِ النِّساءِ : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾ [النساء : ١٧١] .

وقال في سورةِ المائدةِ : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [المائدة : ٧٧] .

سؤالٌ : لماذا قال في آيةِ النِّساءِ (إلا الحقَّ) ، وقال في المائدةِ (غير الحقِّ) ؟

الجوابُ : لا يصحُّ أن يقال : (لا تغلوا في دينكم إلا الحقَّ) ؛ لأنَّ المعنىٰ سيكون أن من الغلوِّ حقاً ، والغلوُّ في الدِّين لا يكون حقاً بحالٍ من الأحوالِ ، بخلاف آية النِّساءِ ، فإن القولَ علىٰ ٱللهِ قد يكون حقاً ، وقد يكون باطلاً ، فصحَّ ذٰلك .

والكلام في آيةِ النِّساءِ استثناءٌ مفرَّغٌ .

وأما قولُه : (غير الحقِّ) في آيةِ المائدةِ ، فليس من الاستثناء ، وهو إما صفةٌ مؤكِّدة لمصدرٍ محذوفٍ ، أي : (غلوًّا غير الحقِّ) ؛ لأن الغلوَّ لا يكون إلا غيرَ الحقِّ .

ويجوز أن تكون (غير) حالاً ؛ أي مجاوزين الحدَّ . وجوَّز بعضهم أن يكون مستثنىً[1] ، ولا يكون ذٰلك إلا بتأويلٍ بعيدٍ .

١٢٠ ـ قال تعالىٰ في سورةِ المائدةِ : ﴿ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [المائدة : ١] .

---

(١) انظر : روح المعاني (٦ / ٢١٠) .

وقال في سورةِ الحجِّ : ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [الحج : ٣٠] .

سؤالٌ : لماذا قال في المائدةِ : (بهيمةُ الأنعامِ) بذكر البهيمةِ ، وقال في (الحجِّ) : (الأنعامُ) من دونِ ذكرِ البهيمةِ ؟

الجوابُ : البهيمة اسمٌ لكلِّ ذي أربعٍ من دوابِّ البرِّ والبحرِ [١] . وإضافتُها إلىٰ الأنعامِ للبيانِ ، وهي من إضافةِ العامِّ إلىٰ الخاصِّ ، كيوم الخميسِ ، وعلمِ الفقهِ ، وشجرِ الأراكِ ، ومدينةِ بغدادَ [٢] . فالبهيمةُ عامٌّ ، وقد خصِّصتْ ، وبيِّنتْ بإضافتِها إلىٰ الأنعامِ .

لقد وردتْ (بهيمةُ الأنعامِ) في ثلاثةِ مواضعَ من القرآن الكريم ، وكلها في سياقِ المناسكِ والإحرام والحجِّ .

قال تعالىٰ في سورةِ المائدةِ : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة : ١ ـ ٢] .

ووردت في سورةِ الحجِّ في سياقِ الحجِّ ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ...﴾ [الحج : ٢٧ ـ ٢٨] .

(١) انظر : لسان العرب (بهم) ، روح المعاني (٦ / ٤٩) .
(٢) انظر : روح المعاني (٦ / ٤٩) .

وقال في السِّياقِ نفسهِ : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ [الحج : ٣٤] .

أما (الأنعامُ) فقد ذكرتْ في سياقاتٍ متعدِّدةٍ مختلفةٍ ، كالأكلِ ، وشربِ ألبانِها ، والحملِ عليها ، والانتفاعِ بجلودِها ، والتشبيهِ بها ، وغيرِ ذٰلك .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ [يونس : ٢٤] .

وقال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

وقال علىٰ لسانِ الشَّيطانِ : ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ [النساء : ١١٩] .

وقال : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

وقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ [الزخرف : ١٢] .

وقال : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل : ٥] .

وقال : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل : ٦٦] . وغيرُ ذٰلكَ وغيره .

فلما كانتِ الإضافةُ للتَّخصيصِ في قولِه : (بهيمةِ الأنعامِ) أي : من إضافةِ العامِّ إلىٰ الخاصِّ ، استعملها فيما هو أخصُّ ، وهو المناسكُ والحجُّ .

فخصَّص بالإضافةِ في مقام التَّخصيصِ والتَّبيينِ ، وعمَّم في مقامِ العمومِ .

١٢١ ـ قال تعالىٰ في سورةِ المائدةِ : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة : ٣] .

سؤالٌ : لماذا قال في الدِّينِ (أكملتُ) ، وفي النِّعمةِ (أتممتُ) وما الفرقُ بينهما ؟

الجوابُ : التَّمام ضدُّ النَّقص ، وهو لا يقتضي الكمالَ ، فالإنسان التَّام الخلقةِ هو الذي ليس فيه نقصٌ .

فالإنسانُ إذا ولد تاماً ، فليس معناه أنه بلغ الكمال في ذٰلكَ . فكل شخصٍ له عينانِ يبصر بهما ، ورجلان يمشي بهما ، وأنفٌ وما إلىٰ ذٰلك ، هو تامُّ الخلقةِ ، كيفما كانت العينانِ ، صغيرتين أو واسعتين ، وكيفما كان أنفُه أو فمُه أو أسنانُه .

أما الكمالُ فهو الحالة المثلىٰ ؛ فالكمال أعلىٰ من مجرَّدِ التَّمامِ .

« وقيل : ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي : أكملت لكم فوقَ ما تحتاجون إليه في دينكم »[١] .

فتمامُ النِّعمةِ إعطاؤه ما يحتاج إليه ، ويمكن الزيادة فيها فوقَ ما يحتاج إليه .

وأما الكمالُ فلا زيادةَ عليه ، ولذا قال : ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ؛ لأنه

(١) لسان العرب (كمل) .

لا يمكن أن يزاد في الدِّين ، فقد أنزل كلَّ ما يحتاج إليه من أصلٍ وفرعٍ .

إنه يمكن الزِّيادة في النعمةِ ، ولا تمكن الزيادة في الدِّينِ .

ولم يستعملِ القرآنُ مع النعمةِ إلا الإتمامَ ، ولم يستعملِ الكمالَ أو الإكمالَ . قال تعالىٰ : ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٠] ، وقال : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [يوسف : ٦] ، وقال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ [النحل : ٨١] .

وقيل : كمالُ الدِّين كمال سلطانِه وتمكينِه وحفظِه .

وإتمامُ النِّعمةِ زوالُ ما كانوا يلقونه من الخوفِ ، وهو من إتمام النِّعمةِ ، وما ذكرناه أولىٰ وأظهرُ .

١٢٢ ـ قال تعالىٰ في سورةِ المائدةِ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [المائدة : ٣٢] .

وقال في سورةِ الأعرافِ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [الأعراف : ١٠١] .

سؤالٌ : لماذا قال في آيةِ المائدةِ : ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا ﴾ بإضافةِ الرُّسلِ إلىٰ ضميرِه سبحانه ، وقال في آيةِ الأعرافِ : ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم ﴾ بإضافةِ الرُّسلِ إليهم ؟

الجوابُ : آية المائدةِ فيما شرع ٱلله ، والأحكامُ التي جاءت بها الرُّسلُ من عنده ، فأضافهم إليه . قال تعالىٰ : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا

بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة : ٣٢] .

وذكر بعد ذلك أحكاماً شرعها الله ، جاءت بها رسلُه ، فقال : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣ ـ ٣٤] .

فشرع الحكمَ في الدنيا ، وقرَّر الحكمَ في الآخرةِ ، وأعلمهم بمنْ تابَ .

أما في الأعرافِ ، فالكلام علىٰ أهلِ القرىٰ ، وموقفِهم من رسلهم ، مع أنهم جاؤوهم بما ينفعهم . ولقد ذكر ما فيه خيرُهم لو أطاعوهم ، وما سيصيبُهم لو خالفوهم .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦ ـ ٩٩] .

ثم قال : ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ... ﴾ [الأعراف : ١٠١] .

فلمَّا كان الكلام علىٰ أهلِ القرىٰ ، أضاف الرُّسلَ إليهم ، فقالَ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ .

ولما كان الكلام على الله وشرعه أضاف الرُّسلَ إليه ، فقالَ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ فناسب كلُّ تعبيرٍ موضعَه .

١٢٣ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الأنعام : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام : ٧ ـ ٩] .

سؤالٌ : لماذا قال أولاً : (نزلنا عليك) ، وقال بعدها (أنزلنا) ؟

الجوابُ : (فعّل) أهمُّ وآكد من (أفعل) ، وذٰلك نحو (وصَّى) و(أوصىٰ) ، وكرَّم وأكرم[1] .

وتنزيل القرطاسِ إما أن ينزل بنفسه ، حتَّىٰ يصل إلىٰ الرَّسولِ ، وهو عجب ، أو يكون بإنزال ملك به إليه ، وهو أهمُّ وأعجب من إنزالِ الملكِ وحدَه ؛ وذٰلك لأن إنزال القرطاسِ إنما هو إنزالُ قرطاسٍ وملكٍ .

ولذا قالوا فيه : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ، ولم يقولوا نحو ذٰلك في إنزالِ الملكِ .

ثم لو جعله ملكاً لجعله رجلاً فيلتبس عليهم الأمر ، فقال : (نزّلنا) في القرطاسِ ، و(أنزلنا) في الملكِ . فناسب كلُّ تعبيرٍ موضعَه .

١٢٤ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الأنعام : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام : ١٠] .

---

(١) انظر : (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) ـ باب فعَّل وأفعل بمعنىٰ (٦٣ وما بعدها) .

سؤالٌ : لماذا قال أولاً : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ ﴾ بلفظِ الاستهزاءِ ، ثم قال : ﴿ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم ﴾ بلفظِ السخريةِ ؟ وهل هناك فرق بين الاستهزاءِ والسخريةِ ؟

الجوابُ : الاستهزاء هو الاستخفافُ والاستحقارُ والاستهانةُ والتنبيهُ علىٰ العيوبِ والنقائصِ علىٰ وجهٍ يضحك منه ، وقد يكون ذٰلك بالمحاكاةِ في الفعلِ والقولِ والإشارةِ والإيماءِ(١) .

وذكر في الفرقِ بين الاستهزاءِ والسُّخريةِ أن الإنسان يستهزأ به من غير أن يسبق منه فعل يستهزأ به من أجلِه .

والسُّخرية تدل علىٰ فعلٍ يسبق من المسخور منه(٢) .

قال تعالىٰ في سيِّدِنا نوحٍ : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ [هود : ٣٨] .

وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [التوبة : ٧٩] وهٰذا سخرٌ علىٰ فعلٍ .

ولم ترد السُّخرية في القرآنِ إلا من الأشخاص ، قال تعالىٰ : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ وقال : ﴿ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ وقال : ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ [الحجرات : ١١] .

وقال : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة : ٢١٢] .

---

(١) روح المعاني (١ / ١٥٨) .

(٢) انظر : الفروق اللغوية (٢٦٨) .

أما الهزؤ فعامٌّ من الأشخاصِ والأعمالِ وغيرِها . قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة : ٦٥] وقال : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا﴾ [المائدة : ٥٨] وقال : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية : ٩] .

فـذكـر الاستهـزاء والسخـريـة ؛ ليشمـل الجميـع مـن الأفعـالِ والأشخاصِ ، وما سبق منهم من فعلٍ ، وما لم يسبق .

١٢٥ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الأنعام : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام : ٤٧] .

وقال في سورةِ مريم : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم : ٤٥] .

سؤالٌ : لماذا قال في آيةِ الأنعام : ﴿ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ بإضافةِ العذاب إلىٰ ٱلله ، وقال في مريمَ : ﴿ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فجعل العذاب من الرَّحمٰنِ ، ولم يذكر لفظَ الجلالةِ ، فيقول (من ٱلله) ؟

الجوابُ : التَّحذير في آيةِ الأنعامِ أشدُّ من أوجهٍ :

١ ـ فقد قال : (أرأيتكم) فجاء بحرفِ الخطابِ (كم) مع ضميرِ الخطابِ ، وهٰذا يفيد التَّوكيد ، والزيادة في التنبيهِ . فإن (أرأيتكم) أشدُّ من (أرأيتم) [1] .

٢ ـ وقال في الأنعام : ﴿ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ ، وقال في مريمَ : ﴿ يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾ ، والإتيانَ أشدُّ من مجرَّد المسِّ الذي يكفي في حقيقته اتِّصالٌ ما .

---

(١) انظر : معاني النحو (٢ / ١٦ وما بعدها) .

٣ ـ وقال في مريمَ : ﴿ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ فنكَّرَ العذابَ ، وجعله من الرَّحمٰن ؛ أي : المتَّصف بالرَّحمةِ . في حين قال في الأنعامِ : ﴿ عَذَابُ ٱللَّهِ ﴾ فأضافه إلىٰ ٱلله .

٤ ـ وقال في الأنعامِ : ﴿ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾ زيادةً في التَّحذيرِ والتَّهديدِ ، ولم يقل مثل ذٰلك في مريمَ .

٥ ـ وقال في الأنعامِ : ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فجعل العذابَ مهلكاً مستأصلاً لهم ، ولم يقل مثل ذٰلك في مريمَ ، فإنه لا تُناسبُ الرَّحمةُ الإهلاكَ والاستئصالَ .

٦ ـ لم يردْ في القرآنِ : (يمسّك عذاب من ٱلله) . كما لم يردْ : (عذاب الرَّحمـٰن) بإضافةِ العذابِ إلىٰ الرَّحمـٰنِ . إنما ورد فيما ورد مضافاً إلىٰ ٱللهِ ، كقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ٢] ، وقوله : ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [يوسف : ١٠٧] .

٧ ـ كما أنَّه لم يردْ في الأنعامِ اسم (الرَّحمـٰن) ، وقد ورد فيها لفظُ (ٱللهِ) زهاءَ سبعٍ وثمانينَ مرةً . فناسبَ لفظُ (ٱللهِ) السِّمة التَّعبيريةَ لسورةِ الأنعامِ .

كما ناسبَ لفظُ (الرَّحمـٰنِ) السِّمةَ التَّعبيريةَ لسورةِ مريمَ ؛ التي تشيع فيها الرَّحمة من أولها إلىٰ آخرها ، وتكرر فيها لفظ الرَّحمـٰن ستَّ عشرة مرةً ، ولا تدانيها سورة في إشاعةِ الرَّحمةِ ، فناسب كلُّ تعبيرٍ موضعَه ، من أكثرِ من وجهٍ .

١٢٦ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الأنعامِ : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

وقال في سورةِ يوسفَ : ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف : ١٠٤] .

سؤالٌ : لماذا قال في الأنعامِ (أجراً) ، وقال في يوسفَ : (من أجرٍ) ؟

ولماذا قال في الأنعامِ (ذكرىٰ) ، وقال في يوسفَ : (ذكرٌ) ؟

الجوابُ :

١ ـ (الذِّكر) أعمُّ من (الذكرىٰ) ، فإن (الذكر) يكون بمعنىٰ التَّذكيرِ والموعظةِ ، ويكون بمعنىٰ الحفظِ للشَّيءِ ، ويكون بمعنىٰ الشَّرف ، وله معانٍ أخرىٰ (١) .

أما (الذِّكرىٰ) فإنها بمعنىٰ التَّذكير ، فهي بعض معاني الذكرِ . ولما كان الذِّكر أعمَّ ناسب ذٰلك قولَه : (من أجرٍ) بـ(من) الدَّالة علىٰ الاستغراقِ والعموم والتَّوكيدِ . وناسبتِ الذِّكرىٰ قولَه : (أجراً) الذي هو أقل عموماً وتوكيداً من قوله : (من أجرٍ) .

٢ ـ إنَّ من معاني (الذِّكر) ـ كما ذكرنا ـ الحفظَ للشَّيءِ ، وناسب ذٰلك ذكره بعد قصةِ يوسفَ ؛ الذي حفظه ربُّنا من كلِّ كيدٍ .

ومن معانيه الشَّرف ، والصِّيت ، وناسب ذٰلك ذكره بعد قصةِ يوسفَ ؛ الذي أصبح له الشَّرف والصِّيت .

٣ ـ إن آيةَ الأنعام واحدة في سياقِها ، وهي قولُه سبحانه : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

---

(١) انظر : لسان العرب (ذكر) .

وبعدها أمر آخر ، وذٰلك قولُه : ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ...﴾ [الأنعام : ٩١] وما قبلها في الرُّسلِ الآخرينَ .

أما السِّياق في يوسفَ ، فهو سياق رسالةِ الإسلامِ ، وهو أكثر إفاضةً وتوسعاً في سياقِه .

قال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف : ١٠٢ ـ ١٠٨] .

والتَّوسُّع في السِّياق والإفاضةِ فيه يدلُّ علىٰ الاهتمام بهِ وتوكيدِه فناسب ذٰلك إدخال (من) الاستغراقية ؛ للدِّلالة علىٰ الشُّمولِ والاستغراقِ ، وتوكيدِ ما دخلت عليه .

وإضافةً إلىٰ هـٰذا ، إن قوله : ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أكثر عدداً في الحروف من قوله : (أجراً) فناسبت السَّعةُ السَّعةَ والإيجازُ الإيجازَ . فكانت المناسبة من أكثر من وجهٍ .

٤ ـ قولهُ : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ يعني أنه تذكير لهم ، وأنه حفظٌ لهم من الضَّياع والانحلالِ والانحطاطِ والهلاكِ ، وأنهُ شرفٌ لهم ، فلا يحيون كحياةِ البهائمِ .

وهـٰذه المهمَّة شاقة علىٰ الرَّسول ، وهي أشقُّ من مجرَّدِ التَّذكيرِ ، فلربما ظنَّ ظانٌّ أن ذٰلك يستدعي طلب الأجرِ علىٰ هـٰذه المهمَّةِ ، فنفىٰ ذٰلك علىٰ سبيلِ الاستغراقِ ، والتوكيدِ .

وليس السِّياق كذٰلك في الأنعامِ ، فإن الذِّكرىٰ إنما هي جزء من الذِّكر كما ذكرنا ، فناسبَ كلُّ تعبيرٍ موضعَه .

١٢٧ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الأنعامِ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ﴾ [الأنعام : ٩٤] .

وقال في سورةِ الكهفِ : ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف : ٤٨] .

سؤالٌ : لماذا قال في آيةِ الأنعامِ : (فرادىٰ) ، ولم يقل مثل ذٰلك في الكهفِ ؟

ولماذا قال في آيةِ الأنعامِ : ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ ، ولم يقل مثلَ ذٰلك في الكهفِ ؟

الجوابُ : إن آية الأنعامِ إنما هي لما يحصل في الدنيا من موتِ الأنفسِ ، فقد قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٣] والناس يموتون فرادىٰ ، ويرجعون إلىٰ ربِّهم .

أما آية الكهفِ فهي في الآخرةِ ، يوم يجمع ٱلله الخلائقَ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ... وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى

﴿ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٧ ـ ٤٩]
فلا يناسب أن يقال : (فرادىٰ) فقد جاؤوا كلهم للحسابِ .

وكذٰلك قوله في الأنعام : ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ﴾ ، إنما ذٰلك في الدنيا ، فقد تركوا المال للورثةِ . ولم يقل مثل ذٰلك في الكهفِ ؛ لأنه لم يبق شيءٌ مما كان في الأرضِ ، فإن الأرض تحمل وتنسف : ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة : ١٤] .

فلا يناسب ذٰلك ذكره فيها ، فناسب كلُّ تعبيرٍ مكانه ؛ الذي هو أليقُ بهِ .

١٢٨ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الأنعام : ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام : ١٠٠] .

سؤالٌ : لماذا قال : (وخرقوا) ولم يقل : (اختلفوا) ؟

الجوابُ : اختلق وخرق بمعنىٰ ، لٰكن في (خرق) معنىٰ الفسادِ والحمقِ إضافةً إلىٰ معنىٰ الاختلاقِ ، وهو الكذب والافتراء ، فإن الخرق قطع الشَّيء على سبيلِ الفسادِ ، من غير تدبرٍ ولا تفكيرٍ ، ورجل أخرق : لا يقدِّر ، ولا يحسن العمل ، والخُرق الجهل والحمق ، والأخرق الجاهل[1] .

وهو أنسب تعبيرٍ لمن قال بذٰلك ، ووصفه بذٰلك سبحانه وتعالىٰ عما يصفون .

---

(١) انظر : تاج العروس (خرق) .

١٢٩ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الأنعام : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام : ١٣٠] .

وقال في الزُّمَر : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر : ٧١] .

سؤالٌ : لماذا قال في آيةِ الأنعام : ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾ وقال في الزُّمَرِ : ﴿ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ ﴾ ؟

الجواب : ذكرنا هـٰذا السُّؤال في الجزء الأوَّلِ من كتابِ (أسئلةٍ بيانيةٍ) ، وقد أجبنا عنه ، وقد أثير الآن مرة أخرىٰ ، وسنجيب عنه من جانبٍ آخرَ ، غيرِ ما ذكرناه في الجزء الأولِ ، فنقول :

إن القصَّة معناها الخبر ، وقصَّ عليه خبره ، أي : أورده ، قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ ﴾ [القصص : ٢٥] .

ومعنىٰ (تلا) قرأ ، وتلوت القرآن قرأته[١] . فالتِّلاوة تكون لنصٍّ يُقرأُ ، سواءٌ كان من كتابٍ ، أم كان عن حفظٍ .

ومعنىٰ (يقصون) : يوردون عليكم الأخبار ، وهـٰذه الأخبار قد تكون من كتبٍ أو نصوصٍ ، أو إخباراً من دونِ صحفٍ . فقوله :

(١) انظر : لسان العرب (تلو) .

(يقصون) أعمُّ ؛ لأنه يشمَل كلَّ ما يخبر به ، سواء كان من صحفٍ ، أم من دونِ صحفٍ ، وسواء كان تلاوةً أم لا .

إن قوله : (يقصون) يشمل جميع الرُّسلِ من أُنزلت عليهم الكتب ، ومن لم تنزل عليهم . وأما قوله : (يتلون) فهو أخصُّ ؛ لأنه يخصُّ من أنزلت عليه صحف فيتلوها .

فلمَّا ذكر معشر الجنِّ والإنسِ في الأنعام ، وهو أعمُّ جمعٍ ، ناسب ذٰلك قولَه : (يقصون) ؛ لأنه أعمُّ . وقد قال قبل هٰذه الآيةِ : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأنعام : ١٢٨] أي : الإنسُ والجنُّ .

وقال بعد هٰذهِ الآيةِ : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣١] فذكر عمومَ القرىٰ المهلكةِ ، مما يدلُّ علىٰ أنه يشمَل جميعَ الرُّسلِ : من أنزلت عليه صحف أو كتب ، ومن لم تنزل .

وأما في الزُّمَر ، فإنها أخصُّ ؛ لأنه يقال ذٰلك للزمرة ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ أي : لكلِّ زمرةٍ . فناسب ذكر ما هو أخصُّ وهو التلاوة .

١٣٠ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الأنعام : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٧] .

وقال في سورةِ الكهفِ : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ﴾ [الكهف : ٥٧] .

سؤالٌ : ما الفرق بين قولِهِ : (وصدف عنها) وقولِه : (فأعرض عنها) ؟

الجوابُ : الصَّدَف كل شيءٍ مرتفع عظيم ، كالحائطِ والجبلِ .

والصَّدَف الجبل المرتفع ، والصَّدف جانب الجبلِ ، وفي التنزيل في قصَّةِ ذي القرنينِ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ﴾ [الكهف : ٩٦][١] .

وصدف عنها معناه : أعرض إعراضاً شديداً ، وهو في الصَّلابة كصدفِ الجبلِ ، أي : جانبه[٢] .

والسِّياق في آيةِ الأنعام يوضِّح هـٰذا الإعراضَ الشَّديدَ ، فقد قال في آيةِ الأنعام : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ . فذكر التَّكذيب والإعراض الشَّديدَ ، فقد قال في الكهفِ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ فذكر التَّذكيرَ والإعراضَ ، ولم يذكر التَّكذيبَ .

ونحو ذٰلك قال في سورةِ السَّجدةِ ، فقد قال : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة : ٢٢] . فذكر التَّذكيرَ ثمَّ الإعراضَ ، في حين ذكر التَّـكذيبَ والإعراضَ في الأنعامِ فكان ذٰلك أشدَّ .

ثم إن الجزاء أشدُّ في الأنعام ، فقد قال : ﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾ ولم يقل مثل ذٰلك في آيتي الكهفِ والسَّجدةِ .

وممَّا يبيِّن ذٰلك أيضاً قولُه بعد آيةِ الأنعامِ : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] مما يبين شدَّة الإعراض في حين لم يذكر مثل ذٰلك في الموضعين الآخرين ، فقد قال

---

(١) انظر : لسان العرب (صدف) .

(٢) انظر : مفردات الراغب (صدف) .

بعد آية الكهف : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ﴾ [الكهف : ٥٨] .

وقال بعد آيةِ السَّجدةِ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ﴾ [السجدة : ٢٣] مما يبيّن شدَّةَ الإعراضِ في الأنعام ، فناسب كلَّ تعبيرٍ موضعَه .

١٣١ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الأنعام : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام : ١٦١] .

وقال في سورةِ التَّوبةِ : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾ [التوبة : ٣٦] .

سؤالٌ : لماذا قال في آيةِ الأنعامِ : ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ بكسر القافِ ، وفتح الياءِ .

وقال في آيةِ التَّوبةِ : ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ﴾ بتشديد الياءِ كالسَّيِّدِ ، وما الفرق بينهما ؟

الجوابُ : (القِيَم) بكسر القاف وفتح الياء مصدر كالصِّغَر والكِبَر ، ومعناه الاستقامة ، وقد نعت به مبالغة[1] ، وأما (القيِّم) فهو صفة مشبهة ، أو مبالغة ، ومعناه المستقيم ، أي : المعتدل لا إفراطَ فيه ، ولا تفريط .

وقيل : هو القيِّم علىٰ سائرِ الكتبِ السَّماويةِ الأخرىٰ شاهداً

---

(١) انظر : لسان العرب (قوم) ، روح المعاني (٨ / ٧٠) .

بصحتها ، وقيّم علىٰ مصالح العباد متكفل ببيانها لهم ، وأنه كامل بنفسه مكمِّل لغيره .

والقيِّم السَّيِّد وسائس الأمرِ . وقيِّم القومِ ؛ الذي يقوِّمهم ويسوس أمرَهم[١] .

ومن المعلوم أن النعت بالمصدرِ أبلغ من النعتِ بالوصفِ ، وهو المناسب في سياقه ؛ ذٰلك أنه وصف الدِّين بالصراطِ المستقيمِ ، وأنه ملَّة إبراهيم حنيفاً ، ثمَّ أمره أن يقول : إن صلاته ونسكه ومحياه ومماته للهِ ربِّ العالمينَ ، فجعل كلَّ شيءٍ في حياته للهِ ربِّ العالمين ، وأن محياه ومماته للهِ ربِّ العالمين ، وأنه لا شريك له وأنه ربُّ كلِّ شيءٍ ، فقد قال بعد هـٰذهِ الآيةِ : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٤] فناسب هـٰذه السَّعةَ الوصفُ بالمصدرِ .

ثم إنه وصفه بالاستقامةِ مرَّتين : مرةً بالوصفِ ، فقال : ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، ومرةً بالمصدرِ ، فقال : ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ ، وذٰلك لتوكيدِ وصفهِ بالاستقامةِ ، والمبالغةِ في ذٰلك ، فناسب تكرارُ الوصفِ بالاستقامةِ الوصفَ بالمصدرِ .

بل إنه قيل : إن من معاني (الحنيف) المستقيم[٢] ، فيكون وصفه بالاستقامةِ ثلاثَ مرات في الآيةِ : وهي قولُه : (إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ) وقولُه : (حنيفاً) وقولُه : (ديناً قيماً) . فناسب ذٰلك الوصفُ بالمصدر للمبالغةِ .

---

(١) انظر : لسان العرب (قوم) .

(٢) انظر : لسان العرب (حنف) .

هـٰذا علاوةً علىٰ الزيادةِ في التَّوكيد في قولِه : (إنني) فجاء بنون الوقاية مع (إن) ، ولم يقل : (إني) ، وذٰلك للزيادةِ في التَّوكيدِ[١] .

وأما آية التوبةِ فقد ذكر فيها ما يتعلق بعدَّةِ الشهورِ ، والأشهرِ الحرمِ ، وحكمِ القتالِ فيهنَّ . وذٰلك جزء مما ورد في سورةِ الأنعامِ الذي شملَ الحياةَ كلَّها ، والعبادةَ كلَّها .

فلمَّا كان السِّياق في الأنعامِ أعمَّ وُصفَ بالمصدرِ . ولما كان ما في التوبةِ جزءاً من ذٰلك ، وُصفَ بالوصفِ وهو الصِّفة المشبَّهة .

هـٰذا علاوةً علىٰ أن هناك قراءةً متواترةً أخرىٰ في آية الأنعامِ وهي : (ديناً قيِّماً) بالصِّفة المشبَّهة علىٰ وزن (سيِّد) [٢] .

فجمعت القراءتان النَّعت بالوصفِ وبالمصدرِ ، كما جمعت الآية النعتَ بالوصفِ وبالمصدرِ في قوله : ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، وقوله : (حنيفاً) وقوله : (ديناً قيماً) .

وكما جمع السِّياق في الأنعامِ كلَّ أمورِ الحياةِ والمماتِ . فكان كلُّ تعبيرٍ أنسبَ في سياقِهِ .

١٣٢ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الأنعامِ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

وقال في سورةِ فاطرِ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر : ٣٩] .

---

(١) انظر : معاني النحو (١ / ٣٨٨) .

(٢) انظر : النشر في القراءات العشر (٢ / ٢٦٧) .

سؤالٌ : لماذا قال في سورةِ الأنعامِ : ﴿خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ بالإضافةِ ، وقال في فاطرٍ : ﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بذكرِ (في) ؟

الجوابُ : قولُه : ﴿خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ بالإضافةِ أعمُّ من قوله : ﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ . فقولك مثلاً : (هو ملكُ بلادِ الشَّامِ) أعم من قولك : (هو ملك في بلاد الشام) ؛ لأن هـٰذا يحتمل أنه ملك في بعضِ بلادِ الشَّامِ .

وقولك : (هو ملكُ الأرضِ) أعمُّ من قولك : (هو ملكٌ في الأرضِ) .

وقد ناسب العمومُ في قوله : ﴿خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ في الأنعام العمومَ في السِّياقِ ، فقد قال سبحانه : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣] .

وهو أعمُّ شيءٍ في حياةِ الفردِ :

١ ـ فقد جعل كلَّ شيءٍ من عبادته وحياته ومماته للهِ ربِّ العالمين .

٢ ـ ثم إن قوله : ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عامٌّ يشمَل جميعَ المخلوقاتِ ، فهو ربُّ العالمين جميعاً .

٣ ـ وكذٰلك قوله : ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ فنفىٰ كلَّ شريكٍ له ، فقد استغرق نفي الشُّركاءِ علىٰ العمومِ .

٤ ـ ثم قال بعدها : ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام : ١٦٤] .

فقد ذكر أنه ربُّ كلِّ شيءٍ فليس ثمةَ شيء إلا هو ربُّه ، فناسب العمومُ العمومَ .

وليس السِّياق كذٰلك في فاطرٍ ، فقد قال : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ [فاطر : ٣٩] فقال : ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ بالإفرادِ .

وليس السِّياق فيها بمثلِ ذٰلكَ العمومِ . فناسبَ كلُّ تعبيرٍ مكانَه .

جاء في (ملاك التأويل) : « قد تقدَّم قبل آيةِ الأنعامِ قولُه سبحانه لنبيِّه عليه السلام : ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام : ١٦١] واستمرَّ الخطاب له معرباً عن حالِه ، وواضحِ طريقِه إلىٰ قوله : ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام : ١٦٤] فعمَّ ما سواه سبحانه بالدخول تحت ملكِه وقهرِه ، فناسب هٰذا ما ذكر من إنعامه علىٰ عباده بجعلهم خلائفَ الأرضِ . ولو كان بحرفِ الوعاءِ لم يكن ليفهم التَّوسعة في الاستيلاءِ والإطلاقِ إلا بضميمٍ يحرز ذٰلك ؛ لأن قوله : ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إنما يفهم أنها موضعُ استخلافِهم ، وهل كلها أو بعضها ؟ ذٰلك محتمل »[1] .

١٣٣ ـ قال تعالىٰ في الأعرافِ في ثمودَ : ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف : ٧٤] .

وقال فيهم في الشُّعراءِ : ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء : ١٤٦ ـ ١٥٠] .

سؤالٌ : لماذا قال في الأعرافِ : ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ ، وقال

---

(١) ملاك التأويل (١ / ٣٥٨ ـ ٣٥٩) .

في الشُّعراءِ : ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ ؟

الجوابُ : إن قوله : ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ يدل علىٰ التَّوسعِ في العمرانِ ، فكأنهم ينحتون الجبال كلها بيوتاً ، أي : يجعلونها بيوتاً ، و(بيوتاً) حال .

وأما قوله : ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ فمعناه : أنهم يتخذون منها بيوتاً ، ولا يدلُّ ذٰلك علىٰ الكثرة ، ويصحُّ أن يقال ذٰلك ، ولو كان العدد قليلاً ، بخلافِ ما في الأعرافِ . وكلُّ تعبيرٍ موافقٌ لسياقِهِ .

فإن السِّياق في الأعرافِ يدل علىٰ التَّوسعِ في العمرانِ ، يدلُّ علىٰ ذٰلك قولُه : ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وقوله : ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ وقوله : ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ .

فشمل العمران السُّهولَ والجبالَ ، فيتخذون من السُّهولِ قصوراً وينحتون الجبال بيوتاً . فناسب قوله : ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ سياقَ التَّوسعِ في العمرانِ .

وأما في الشُّعراءِ فالسِّياقُ يدلُّ على كثرةِ الزِّراعةِ ، وهو أدلُّ عليها من العمرانِ ، يدلُّ علىٰ ذٰلك قولُه في الشُّعراءِ : ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ وقوله : ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ . ولم يرد نحو ذٰلك في الأعرافِ .

فلم يبالغ في ذكرِ العمرانِ والتَّوسعِ فيه كما فعل في الأعرافِ . فناسب كلٌّ موضعَه .

وقد تقول : ألا يدلُّ ذٰلك علىٰ الاختلافِ والتَّناقضِ في الإخبارِ ؟ ثم أي الأمرين أصحُّ ، ما جاء في الأعرافِ ، أم ما جاء في الشُّعراءِ ؟

والجوابُ : كلاَّ ليس في الأمر تناقضٌ ولا اختلافٌ ، فقوله : ﴿ وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ لا يناقض ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ .

فإنهم علىٰ كلِّ حالٍ ينحتون من الجبال بيوتاً ، ولـٰكنه أفاض في ذكرِ ناحيةِ العمرانِ في الأعرافِ ، وأفاض في ذكرِ الزِّراعةِ في الشُّعراءِ ، كما نفعل نحن ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ حين نصف الأماكنَ فقد نركِّز علىٰ أمرٍ في سياقٍ ، ونركِّز علىٰ أمرٍ آخر في مناسبةٍ أخرىٰ . وكلُّ ذٰلك صحيحٌ .

١٣٤ ـ قال تعالىٰ في الأعرافِ : ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٠١] .

وقال في يونسَ : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [يونس : ٧٤] .

سؤالٌ :

١ ـ لماذا قال في الأعرافِ : ﴿ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن ﴾ . وقال في يونسَ : ﴿ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن ﴾ فزاد (به) علىٰ ما في الأعرافِ ؟

٢ ـ لماذا اختلفت خاتمة كلٍّ من الآيتينِ ، فقال في الأعرافِ : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ . وقال في يونسَ : ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ فذكر الكافرين في الأعرافِ ، وذكر المعتدين في يونسَ ؟

الجوابُ :

١ ـ أما الجواب عن السؤالِ الأوّلِ ، فقد ذكرناه في كتابنا (التعبير

القرآني) في باب الذكر والحذف ، فلا نعيد الكلام فيه . وقد ذكرنا هناك أن الإطلاق هو سياقُ الأعرافِ ، وأن التَّخصيص هو سياق آيةِ يونسَ ، وقد بينا ذٰلك ثَمَّ .

٢ ـ وأما الجوابُ عن السؤالِ الثاني ، فإن قوله في الأعرافِ : ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مناسب لما تقدَّم من قوله سبحانه : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ .

فناسب ذكرُ الكافرين بمقابلِ قولِه : ﴿ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ فإن الكفر مقابلُ الإيمانِ ، ومناسبٌ لما قاله سيدنا شعيبٌ في قومِه قبل هٰذه الآياتِ : ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف : ٩٣] فناسب ذٰلك ذكرُ الكافرينَ أيضاً .

وأما في يونسَ ، فقد تقدَّم الآية ذكر قوم نوح ، وقد قال ٱلله فيهم : ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس : ٧١] .

فقوله : ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ وقوله : ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ يعني : للاعتداءِ عليه بأن يجمعوا أمرهم وشركاءهم ، وأن يقضوا إليه ، ولا يمهلوه . فناسب ذٰلك ذكرُ المعتدينَ .

١٣٥ ـ قال تعالىٰ في الأعرافِ : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف : ١٠٣] .

وقال في يونسَ : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [يونس : ٧٥] .

سؤالٌ : قدَّم (بآياتنا) في الأعرافِ على قولِه : ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ . وأخَّر (بآياتنا) في يونسَ عن قولِه : ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ فما السببُ ؟

الجوابُ : لقد ذكر أنه أظهر الآيات أمام فرعونَ وملئه في الأعرافِ ، وأظهرها أمام السَّحرة أيضاً . فقد قال له فرعون : ﴿ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ... ﴾ [الأعراف : ١٠٦ ـ ١٠٩] ثم ذكر إلقاءَ العصا أمام السَّحرةِ ، ﴿ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الأعراف : ١١٧] .

أما في يونسَ ، فلم يذكر أنه أظهر آيةً أمام فرعونَ وملئِه ، وإنما قال : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس : ٧٦] .

كما لم يذكر أنه أظهر آيةً أمام السَّحرة ، وإنما قال : ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٨٠ ـ ٨١] . ولم يذكر أنه ألقىٰ العصا ، وأنها تلقف ما يأفكون .

فلمَّا لم يكن الاهتمام بذكرِ الآيات في يونسَ ، كما في الأعرافِ أخَّرها بخلاف ما ورد في الأعرافِ . فناسبَ كلُّ تعبيرٍ موضعه .

١٣٦ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الأعرافِ : ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٧١] .

سؤالٌ : لماذا قال : (واقع بهم) ولم يقل : (واقع عليهم) ؟

الجوابُ : إن معنىٰ : (وقع به) غير معنىٰ : (وقع عليه) .

فمعنىٰ : (وقع عليه) سقط عليه . وأما (وقع به) فتقال في الحربِ . يقال : (وقع بهم) ، و(أوقع بهم) ، وذٰلك في الحربِ ، أي : صدمهم في الحربِ صدمةً بعد صدمة ، وسطا وبالغ في قتالهم[1] .

والمعنىٰ أنهم ظنوا أن الجبل سينزل بهم وقيعةً ، وأنه سيقاتلهم ويحاربهم ، وهو المناسب لقوله : (نتقنا) وهو القلع ، فمعنىٰ النتق إنما هو الجذب والزعزعة والاقتلاع ، ومعناه أيضاً : أن يقلع الشيء ، فيرفعه من مكانه ليرميَ به[2] . فاتّضحَ المعنىٰ .

١٣٧ ـ **سؤالٌ :** قال تعالىٰ في سورةِ التوبةِ : ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة : ٢٦] .

وقال في سورةِ الفتحِ : ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح : ٢٦] بإضافةِ السَّكينةِ إلىٰ ضميرِه سبحانه (سكينته) .

وقال في سورةِ الفتحِ : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح : ٤] . بتعريفِ السَّكينةِ بأل . فلمَ ذاك ؟

الجوابُ : حيث ذُكِرَ الرَّسولُ ﷺ ، أو كان موجوداً في السِّياق ، قال : (سكينته) بإضافةِ السَّكينةِ إلىٰ ضميره سبحانه ؛ تعظيماً وتكريماً له . وحيث ذكر المؤمنين ولم يذكر الرَّسول ﷺ أطلق السكينة ، ولم يضفها إلىٰ نفسهِ .

---

(١) انظر : لسان العرب (وقع) ، تاج العروس (وقع) .

(٢) انظر : لسان العرب (نتق) .

قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وقال : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٢٦] .

وقال : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [الفتح : ٢٦] كلُّ ذٰلك بالإضافةِ إلىٰ ضميرِهِ سبحانه .

في حين قال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح : ٤] .

وقال : ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٨] فاتّضح مقامُ كلِّ تعبيرٍ من التَّعبيرينِ .

١٣٨ ـ قال تعالىٰ في سورةِ هودٍ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود : ٣٥] .

وقال في سورةِ سبأ : ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : ٢٥] .

سؤالٌ : لماذا قال في آيةِ هودٍ : ﴿ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ بنسبة الإجرامِ إليهم ، وقال في (سبأ) : ﴿ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بنسبةِ العملِ إليهم ؟

الجوابُ : في آيةِ هودٍ نسبوا الافتراءَ إليه ﷺ ، قال تعالىٰ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ . فقال لهم : ﴿ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى ﴾ أي : عقوبته

وإثمه ، وإن لم يكنِ الأمرُ كذٰلك ، فإنهم أجرموا بحقِّهِ في نسبةِ الافتراءِ إليه ، وهو بريءٌ من إجرامِهم .

ويحتملُ أن يكون قوله : ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ تقريرَ أمرٍ ؛ أي أنتم نسبتم الافتراءَ إليَّ ، والحال أني بريءٌ من ذٰلك ، ومما تفعلونه من إجرامٍ .

جاء في (الكشافِ) : « والمعنىٰ إن صحَّ وثبتَ أني افتريته فعليَّ عقوبةُ إجرامي ؛ أي افترائي . ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ﴾ يعني : ولم يثبت ذٰلك وأنا بريءٌ منه ، ومعنىٰ ﴿مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ من إجرامكمْ في إسنادِ الافتراءِ إليَّ فلا وجهَ لإعراضكمْ ومعاداتكم »[1] .

وأما في آيةِ سبأ ، فهم لم ينسبوا إليه إثماً أو شيئاً ، وإنما هي من بابِ الإنصافِ . وقد قال قبلها : ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ : ٢٤] .

جاء في (الكشَّافِ) في قوله : ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ : « هـٰذا من الكلام المنصفِ ؛ الذي كلُّ ما سمعه من موالٍ أو منافٍ قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبُك »[2] .

وقال في قولِه : ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ : « هـٰذا أدخل في الإنصافِ وأبلغ من الأوَّلِ ؛ حيث أسند الإجرام إلىٰ المخاطِبين (بكسرِ الطاءِ) ، والعمل إلىٰ المخاطَبين »[3] .

---

(١) الكشاف (٢ / ٩٧) .

(٢) الكشاف (٢ / ٥٦٢) .

(٣) المصدر السابق نفسه (٢ / ٥٦٢) .

١٣٩ ـ قال تعالىٰ في سورةِ هودٍ : ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ [هود : ١٠٨] .

سؤالٌ : ذكر ربُّنا أنَّ أهل الجنةِ خالدون فيها إلا ماشاء ربُّك ، فهل يعني ذٰلك أن ربَّنا قد يخرجهم منها ؟

الجوابُ : إن أهل الجنة خالدون فيها أبداً ، كما أخبر ربُّنا في مواطنَ عدةٍ من القرآنِ الكريمِ . وأما الآية المذكورةُ ، فقد ذُكِرَ فيها أقوالٌ منها :

أن الاستثناءَ عندما كان من أهل الجنةِ في الموقفِ يومَ الحسابِ ، قبل أن يحاسبوا ويُقضىٰ لكلِّ فردٍ بجزائه ، فالذين سعدوا لم يدخلوا الجنةَ بعدُ .

ومنها : أن ذٰلك الاستثناء إنما هو في البرزخِ عندما كانوا في قبورِهم .

ومنها : أن ذٰلك تَحِلَّةُ القسمِ ؛ إذ قال ربُّنا : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم : ٧١ ـ ٧٢] .

وذٰلك عندما يوضعُ الجسرُ علىٰ متنِ جهنَّمَ ، ويمرُّ عليه الناسُ أجمعون ، فهٰذا يدخلُ في الاستثناءِ .

وقيل : إن ذٰلك فيمن يدخلُ النارَ من عصاةِ المسلمين ، ثم يخرجون منها إلىٰ الجنةِ . وقيلت في ذٰلك أقوالٌ أخرىٰ[1] ، واللهُ أعلمُ .

١٤٠ ـ قال تعالىٰ علىٰ لسانِ سيدنا يوسفَ لأبيه : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ

---

(١) انظر : روح المعاني (١٢ / ١٤٤) ، فتح القدير (٢ / ٥٠٠) .

أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف : ٤] .

سؤالٌ :

١ ـ لماذا عبَّرَ عن الإخوةِ بالكواكبِ ولم يعبِّرْ عنهم بالنجومِ ؟

٢ ـ ولماذا قدَّم الكواكبَ علىٰ الشَّمسِ والقمرِ ؟

الجوابُ :

١ ـ عبَّرَ عن الإخوةِ بالكواكبِ ؛ لأن الكواكب توابعُ بخلافِ النجومِ ، وهٰؤلاء الإخوة إنما هم توابعُ لوالديهم .

٢ ـ وأما تقديمُ الكواكبِ علىٰ الشَّمسِ والقمرِ ؛ فلأن المقامَ مقامُ تعظيمٍ ليوسفَ ، والإخوةُ أولىٰ بتعظيمِ أخيهم والسجودِ له من الأبوين . وهو أهونُ من تعظيمِ الأبوينِ وخرورهما له سُجَّداً .

ثم إن الإخوةَ كانوا أسبقَ تعظيماً ليوسف ؛ إذ قد عرفوه قبل أن يعلم به الأبوان ، فناسب تقديمَ الكواكبِ .

١٤١ ـ قال تعالىٰ في سورةِ يوسفَ : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ﴾ [يوسف : ٢٤] .

سؤالٌ : هل همَّ سيدنا يوسفُ بامرأة العزيزِ ، كما يقال ؟

الجوابُ : الذي يدلُّ عليه التعبيرُ ـ واللهُ أعلمُ ـ أن سيدنا يوسفَ لم يهمَّ بها ، وذٰلك أن (لولا) حرفُ امتناعٍ لوجودٍ ، وذٰلك نحو قولِك : (لولا أبوه لضربته) ، فأنت لم تضربْه لوجودِ أبيهِ .

فإن قدَّمت ما يدلُّ علىٰ الجوابِ ، فقلت (كنت أضربه لولا أبوه) ، فأنت لم تضربه أيضاً . والحكمُ واحدٌ ، تقدم ما يدلُّ علىٰ الجوابِ أو تأخَّرَ .

وكذلك هٰهنا ، فقد تقدَّم ما يدلُّ علىٰ الجواب ، فالهَمُّ منتفٍ لوجودِ البرهانِ ، نظير قولك : (لولا أن رأىٰ برهان ربِّه لهمَّ بها) . فامتنع الهمُّ لوجودِ البرهانِ ، وإلا لم يكن لقوله : (لولا أن رأىٰ برهان ربِّه) فائدةٌ .

ونظيرُ هٰذا التَّقديمِ في القرآن قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ ﴾ [الفرقان : ٧٧] ، وقوله : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ [القصص : ١٠] ، وقوله : ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ [الفرقان : ٤٢] .

والحكمُ واحدٌ تقدَّمَ أو تأخَّرَ ، ونحو ذٰلك في ذكرِ الجوابِ مؤخَّراً قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٤] . ولو قلت : (لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً لولا أن ثبتناك) لكان المعنىٰ واحداً . وهٰذا نظيرُ ذٰلك .

جاءَ في (البحرِ المحيط) : « والذي أختاره أن يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقع منه هَمٌّ البتة ، بل هو منفي لوجودِ رؤيةِ البرهانِ ، كما تقول : (قارفت الذنبَ لولا أن عصمك ٱلله تعالىٰ . . . [والتقدير هنا] : لولا أن رأىٰ برهان ربِّه لهَمَّ بها »[١] .

١٤٢ ـ قال تعالىٰ في سورةِ يوسفَ : ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ﴾ [يوسف : ٩٠] .

سؤالٌ :لماذا قال يوسفُ لأخوته : ﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ﴾ ، مع أنهم يعلمون أنه أخوه ؟

الجوابُ : إنه قال لهم ذٰلك ليخبرهم أنه أخوه ، وهو يعرفه حقاً ،

---

(١) البحر المحيط (٥ / ٢٩٥) .

أي : وهـٰذا أخي أعرفُه كما عرفتكم وأنتم لم تعرفوني ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [يوسف : ٥٨] .

أي : إنكم لم تخدعوني بشخصٍ آخرَ جئتموني به ، فتزعمون أنه أخي ، كما فعلتم مع أبيكم حين دخلتم عليه بالبكاء والمجيء بالقميص بالدمِ الكذبِ ، فإن هـٰذا أخي ، أعرفُه كما عرفتكم .

١٤٣ ـ قال تعالىٰ في سورةِ يوسفَ : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف : ٩٤] .

سؤالٌ : لماذا قال : ﴿ لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ ﴾ ولم يقلْ : (أشمُّ) مع أن الروائحَ تشمُّ ؟

الجوابُ : إنَّ ريح يوسفَ كانت ضائعةً مع يوسف فوجدها ، والضائعُ يقال فيه : (وجدته) .

ثم إن (وجد) لا يختصُّ بالأمورِ الماديةِ ، وإنما هو عامٌّ في القلبي والمحسوس وغيره . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ ﴾ [الأعراف : ١٠٢] ، وقال : ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾ [النور : ٣٩] ، وقال : ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٧] .

١٤٤ ـ قال تعالىٰ في سورةِ يوسفَ : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

سؤالٌ : لما ذكر إحسانَ ٱلله به في إخراجِه من السِّجنِ ، ولم يذكر إخراجَه من البئرِ ؟

الجوابُ : لم يذكر إخراجَه من البئرِ ؛ لأنه أُخرجَ من الرقِّ

والعبوديةِ ، ثم إلىٰ السِّجنِ بتهمةٍ مخلَّةٍ بالشَّرفِ ، فلا يكون في ذٰلك منَّةٌ .

وأما إخراجُه من السِّجنِ فإلىٰ الإحسانِ إليه ، وجعله عزيزَ مصرَ . فاختلف الأمران .

١٤٥ ـ سؤالٌ : قال تعالىٰ في سورةِ يوسفَ : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف : ١٠٩] .

ونحو ذٰلك قال في آياتٍ عدةٍ من القرآنِ الكريمِ ، كما في [غافر : ٨٢] ، و[محمد : ١٠] ، وغيرها بإضافةِ (قبل) إلىٰ الضَّميرِ (من قبلهم) .

غير أنه قال في سورةِ الرومِ : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم : ٤٢] .

فلم يضف (قبل) ، وإنما قطعها عن الإضافةِ ، فما السببُ ؟

الجوابُ : إن قوله : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ونحوه إنما هو تقرير لهم بأمرٍ قد فعلوه ، فهم قد ساروا ونظروا ، وذٰلك في أسفارهم في طرقهم المعهودة ، فقررهم بذٰلك . فقولك : (ألم أقل لك كذا وكذا ؟) يعني أنك قد قلت له .

أما قوله : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ فإنه أمرٌ لهم بالسير والنظر علىٰ العموم ، وليس فيما اعتادوا عليه في أسفارهم فحسب . وهٰذا أوسع وأعم مما عهدوه وساروا فيه ونظروا ، ولذا حذف المضافَ إليه ؛ للتَّعميم ، فقال : ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ . فالسَّير أعمُّ ، والنَّظر أعمُّ ، والزمن أعمُّ . واللهُ أعلمُ .

١٤٦ ـ سؤالٌ : ما دِلالةُ القميصِ في قصةِ يوسفَ ؟

الجوابُ : استعمل (القميص) ثلاثَ مراتٍ ، كل مرة في دِلالةٍ :

١ ـ فقد استعمل بيّنةً مزورةً للدّلالةِ علىٰ هلاكِهِ وأكلِ الذئبِ إياه ، وذٰلك في قوله سبحانه : ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ ﴾ [يوسف : ١٨] .

٢ ـ واستعمل بيّنةً صحيحةً للوصولِ إلى الحكمِ وبراءةِ يوسفَ ، وذٰلك في قوله تعالىٰ : ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٦ ـ ٢٨] .

٣ ـ واستعمل بيّنةً صحيحةً للدّلالةِ علىٰ نجاةِ يوسفَ ، وأنه لا يزال حيّاً ، وبشرىٰ لوالده وسبباً لردِّ بصرِهِ . وهو بينة صحيحة بقرينةِ الرائحةِ ، وقرينة الرائحةِ تستعمل الآن في القضاءِ .

فقد استعمل بدايةً لحزنِ يعقوبَ عندما جاؤوا بقميصه ، وأخبروه أن الذئب قد أكله ، واستعمل نهايةً لحزنِهِ عندما جاء البشير ، وألقاه علىٰ وجهِهِ ، واستعمل للدِّلالةِ علىٰ هلاكِ يوسفَ ، كما استعمل للدِّلالة علىٰ أنه لا يزال حياً .

واستعمل القميصُ لثلاثِ مراحلَ من حياته :

١ ـ **المرحلةِ الأولىٰ** : رميه في الجب ، وصيرورته مملوكاً بعد أن كان حراً ، والفرقة بينه وبين أهله .

٢ ـ **المرحلةِ الوسطىٰ** : سجنه وفقدان الحريةِ ، والفرقة بينه وبين العزيزِ متولِّي أمرِهِ .

٣ ـ **المرحلةِ الثالثةِ** : في جمع شمله بأهله وسعادتهم أجمعين .

الموافقاتُ في القصَّةِ :

١ ـ القمصان ثلاثة .

٢ ـ الرؤىٰ ثلاث : رؤيا يوسفَ ، ورؤيا صاحبي السِّجنِ ، ورؤيا الملكِ .

٣ ـ الرِّحلات إليه للامتيارِ من قبل إخوته ثلاثٌ :

أ ـ عندما دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون .

ب ـ الرِّحلة التي جاؤوا فيها بأخيهم ، وفقد صواعِ الملكِ .

ج ـ الرِّحلة التي قالوا فيها : ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ ، وقال لهم : ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ .

١٤٧ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الرَّعدِ : ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد : ١٩ ـ ٢٢] .

سؤالٌ : لماذا جاء قسم من الصِّلات بالفعلِ المضارعِ ، والقسم الآخرُ بالفعلِ الماضي ؟

الجوابُ : يمكن أن نضعَ إجابةً موجزة بما يأتي :

١ ـ ما كان له وقت محدد ، أو ليس مستمراً استمرار بقيّة الصفات ، عبَّرَ عنه بالفعلِ الماضي ، وهو إقامةُ الصلاةِ والإنفاقُ .

٢ ـ ما كان سابقاً لكل الأوصاف المذكورة ، عبَّرَ عنه بالفعلِ الماضي وهو الصَّبر ، ولم يردْ في القرآنِ صلةٌ إلا بالماضي .

٣ ـ وما عدا ذٰلك ، وهو المستمر ممَّا ليس له وقت محدد عبر عنه بالفعلِ المضارع .

فقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ﴾ عامٌّ يشمَل جميع أوامرِهِ ونواهيه ، وهو مستمرٌّ بالليلِ والنهارِ .

وقوله : ﴿ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴾ توكيد لما قبله ، ولما كان ما قبله مستمراً أيضاً ، ويشمَل أيضاً جميع ما يعطونه للناس من مواثيقَ . وقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يشمَل عمومَ ما أمر به من الإطعام ، وصلةِ الرَّحمِ وعمومِ ما أمر ٱللهُ به أن يوصلَ ، وقوله: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ يفيد الاستمرارَ وعدمَ الانقطاعِ ، فهو مستمرٌّ في كلِّ حينٍ . ونحوه قوله : ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ .

وأما قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ ﴾ فإنه جاء به بالفعل الماضي ؛ لأنه أسبق من كل ما ذكر ، ولأن تلك الصِّلات مترتبة علىٰ حصولِ الصَّبر وتقدُّمه عليها . ولذا لم يردِ الصَّبر صلةً إلا بصيغةِ الماضي في القرآنِ الكريم . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ [الشورىٰ : ٤٣] ، وقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [هود : ١١] ، وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الرعد : ٢٢] ، وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل : ٤٢] ، وقال : ﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم ﴾ [النحل : ٩٦] .

وقوله : ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ عبَّر عنها بالماضي ؛ لأن لها أوقاتاً محدَّدةً ، وليست مستمرةً استمرار الصِّفاتِ الأخرىٰ كما ذكرنا ، ولتحقُّقها وتمكُّنها من أنفسِهم .

ثمَّ إنه إذ أوقع الماضي صلةً احتمل أن يراد به المستقبل[1] ، وذٰلك نحو قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٥٩ ـ ١٦٠] .

فقوله﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ ﴾ يفيد الاستقبالَ أي : يتوبون ويبيِّنون ؛ لأنه واقع بعد الكتمانِ ، والكتمان عبر عنه بالمضارعِ .

وقوله : ﴿ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ ليس ذٰلك مستمراً استمرار ما قبلها ، وهو دون الصَّلاةِ التي تتكرَّر خمسَ مرَّاتٍ في اليوم والليلة ، فجاء بالفعل ماضياً كما ذكرنا .

وقوله : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ جاء به بالمضارعِ ؛ لأن ذٰلك ليس له وقت محدد كالصلاة والإنفاقِ الواجبِ .

ثم إن هٰذا له حالتان :

إنه إذا أتوا بمعصية درؤوها ودفعوها بالتَّوبة والحسنة ، كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود : ١١٤] ، وكما قال ﷺ : « **وأتبع السيئة الحسنة تمحها** » .

وأنهم لا يقابلون الشَّرَّ بالشَّرِّ ، بل بالإحسانِ . والإنسان كثيراً ما يسيء أو يساء إليه ، ويدرأ ذٰلك كلَّه بالحسنةِ .

جاء في (روح المعاني) في قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى

---

(١) انظر : البحر المحيط (٥ / ٣٨٥ ـ ٣٨٦) ، روح المعاني (١٣ / ١٤٦) .

ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٢] : « ويظهر أن اختصاص هـٰذهِ الصِّلةِ بالماضي ، وما تقدَّم بالمضارع أن ما تقدَّم قصد به الاستصحابَ والالتباسَ ، وأما هـٰذه فقد قصد بها تقدُّمها علىٰ ذٰلك ؛ لأن حصول تلك الصِّلات إنما هي مترتبة علىٰ حصول الصَّبر ، وتقدُّمه عليها . ولذا لم تأت صلةٌ في القرآنِ إلا بصيغةِ الماضي ؛ إذ هو شرطٌ في حصولِ التكاليفِ وإيقاعِها »[1] .

١٤٨ ـ قال ٱلله سبحانه في سورةِ الحِجْرِ : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحجر : ١٦ ـ ١٨] .

وقال في سورةِ الصَّافّاتِ : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصّافات : ٦ ـ ١٠] .

سؤالٌ : لماذا قال في الحِجْرِ : ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ ، وقال في الصَّافّاتِ : ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ ؟

الجوابُ : إن معنىٰ (مبين) ظاهرٌ للمبصرين[2] . ومعنىٰ (ثاقب) نافذٌ بضوئِه وشعاعهِ المنيرِ ، ونيِّر أي : متقد[3] . والثقب : الخرق النافذ . و(المارد) هو العتي الشَّديد ، فإن معنىٰ (تمرَّد) عتا[4] . و(الرَّجيم) هو الملعون ، وهو المطرود المبعد ، والمرمي بالشُّهب ،

---

(١) روح المعاني (١٣ / ١٤١) ، وانظر : البحر المحيط (٥ / ٣٨٦) .

(٢) روح المعاني (١٤ / ٢٣) .

(٣) انظر : البحر المحيط (٧ / ٣٥٣) ، لسان العرب (ثقب) .

(٤) لسان العرب (مرد) .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الملك : ٥] .

والوصف بالماردِ أقوىٰ وأشدُّ من الوصفِ بالرَّجيم . و(الخطف) هو الاستلاب والاختلاس والأخذ في خفَّةٍ وسرعةٍ[1] ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١] .

و(الاستراق) أخذ الشَّيءِ بخفية[2] . واستراق السمع قد يكون بالتَّنصُّتِ ، ولا يقتضي الحركةَ . أما الخطف ففيه سرعةٌ واختلاسٌ واستلابٌ . فالمقام في الصَّافّاتِ أشدُّ ؛ فقد ذكر الشَّيطان المارد والخطف . ولما كان المقام في الصَّافّاتِ أشدَّ وأسرع ، وفيه حركة وسرعة ، وهو الخطف استدعىٰ من الحفظ ما هو أشدُّ ، فقال :

أ ـ ويقذفون من كلِّ جانبٍ .

ب ـ وقال : (دحوراً) وهو مصدرٌ بمعنىٰ الحالِ ، أي : مطرودين علىٰ سبيلِ الإهانةِ والإذلالِ[3] ، أو مفعول له .

ج ـ وقال : ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ ﴾ ، وهو أقوىٰ من (حفظناها) المذكورة في آيةِ الحِجْرِ ؛ لأنه مصدر ، وهو غير مقيدٍ بزمنٍ والمصدر أقوىٰ من الفعلِ .

---

(١) انظر : روح المعاني (٢٣ / ٧١) ، لسان العرب (خطف) .

(٢) انظر : لسان العرب (سرق) .

(٣) انظر : لسان العرب (دحر) .

د ـ وقال : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أي : دائم[1] .

هـ ـ وقال : ﴿ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ وهو أقوىٰ من المبين ؛ لأنه مبين وزيادة ، وأنه قد يخرق أجسادهم ويثقبها . أما المبين فقد يكون ذا نورٍ قليلٍ ، ولا يقتضي شدَّته ، فناسبَ كلُّ تعبيرٍ موضعَه .

١٤٩ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الحِجْرِ في قوم لوطٍ : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٧٣ ـ ٧٧] .

ثم قال في أصحابِ الأيكةِ : ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : ٧٨ ـ ٧٩] .

سؤالٌ :

١ ـ لماذا قال أوّلاً في قومِ لوطٍ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾ بالجمع ، ثم قال بعدها : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ ؟

٢ ـ لماذا قال في أصحابِ الأيكةِ : (وإنهما) بالتثنية ، ولم يقل : (وإنهم) أو (وإنها) بالإفرادِ ؟

الجوابُ : أما قوله : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ﴾ ، فلأنه ذكر آيات ، ولم يذكر آية واحدة ، فقد قال :

١ ـ فأخذتهم الصَّيحة مشرقين : وهٰذه آية ، وهي الأخذ بالصَّيحةِ .

---

(١) انظر : لسان العرب (وصب) .

٢ ـ فجعلنا عاليها سافلها : وهٰذه آية أخرىٰ .

٣ ـ وأمطرنا عليهم حجارة من سجّيلٍ : وهٰذه آيةٌ ثالثةٌ ، فقال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ .

وأما في قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، فهٰذا يعود علىٰ قوله : ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ، وذٰلك يعود علىٰ الآثارِ الباقيةِ من قرية قومِ لوطٍ ، وهي آية وليست جميع الآياتِ ، أي : إنها بطريقٍ واضحٍ[1] .

ـ وأما قوله : ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ، فالضَّمير يعود علىٰ محلَّيْ قوم لوطٍ ، وقومِ شعيبٍ أصحاب الأيكة ، فإنهما بطريقٍ واضحةٍ مسلوكةٍ[2] . فأعاد الضَّمير عليهما بالتَّثنيةِ .

١٥٠ ـ قال تعالىٰ في سورةِ النَّحلِ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل : ٤٨] .

سؤالٌ : لماذا أفرد اليمين وجمع الشمائل فقال : ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ ؟

الجوابُ : قيل : إن ذٰلك لعدَّة مناسباتٍ منها :

إنه قيل : إن المراد باليمين جهة المشرقِ ، والمراد بالشِّمال جهة المغربِ ، وإن الظِّلال في جهة المغربِ بعد الزوالِ تمتد وتكثر ، بخلافها في جهة المشرقِ ، فإنها تنقص وتضمحل ، حتىٰ لا يبقىٰ منها إلا اليسير ، فناسب جمع الشمائلِ وإفراد اليمينِ . جاء في (روح المعاني) : « قيل : إنه أفرد وجمع بالنظر إلىٰ الغايتين ؛ لأن ظلَّ الغداةِ

---

(١) انظر : روح المعاني (١٤ / ٧٤) .

(٢) انظر : روح المعاني (١٤ / ٧٤) .

يضمحل حتىٰ لا يبقىٰ منه إلا اليسير ، فكأنه جهة واحدة . وهو في العشيِّ علىٰ العكس ؛ لاستيلائه علىٰ جميعِ الجهاتِ »(١) .

وقيل أيضاً : إن اليمين وهو جهة المشرق إنما هو جهة مطلعِ النُّورِ ، وإن الشمال هو جهة المغربِ ، وهو الظلمة . والقرآن يفرد النور ويجمع الظلمات حيث وردا في القرآنِ . قال تعالىٰ : ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام : ١] ، فناسب إفراد اليمينِ وجمع الشِّمالِ ، كما أفرد النور وجمع الظلمات(٢) .

وقيل أيضاً : « إن الظل الجائي من جهة المشرقِ لا يتعلق به أمرٌ شرعيٌّ ، والجائي من جهة المغربِ يتعلق به ذٰلك . فإن صلاة الظهرِ يدخل وقتها بأوَّلِ حدوثه من تلك الجهةِ ، بزوالِ الشمسِ عن وسطِ السماءِ . ووقت العصرِ بصيرورته مثل الشاخصِ أو مثليه بعد ظلِّ الزوالِ . . . ووقت المغربِ بشمولهِ البسيطة بغروبِ الشَّمسِ . وما ألطفَ وقوع (سجداً) بعد (الشَّمائل) على هـٰذا ! »(٣) .

١٥١ ـ قال تعالىٰ في سورةِ النَّحلِ : ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل : ٦٥] .

وقال في سورةِ الرُّوم : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم : ٢٤] .

---

(١) روح المعاني (١٤ / ١٥٦) .
(٢) انظر : روح المعاني (١٤ / ١٥٦) .
(٣) روح المعاني (١٤ / ١٥٦) .

سؤالٌ : لماذا قال في آيةِ النَّحلِ : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ بإفرادِ الآيةِ ، وقال في الرُّومِ : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ بالجمعِ مع أن المشهد واحد ؟

الجوابُ : إن ذٰلك لأكثرَ من جهةٍ ؛ فقد ذكر البرق خوفاً وطمعاً في الروم ، ولم يذكر ذٰلك في النَّحلِ ، فزادت الآيات . ومن جهةٍ أخرىٰ أنه قال في النَّحلِ : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالفعلِ الماضي .

وقال في الرُّوم : ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالفعلِ المضارعِ ، فتكرَّر التَّنزيل والإحياء فصارت آياتٍ ، وليست آيةً واحدةً . وقال : ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ بالفعلِ المضارعِ فتتكرَّر الرؤية . فناسبَ ذكرَ الآياتِ في الرُّومِ .

١٥٢ ـ قال تعالىٰ في سورةِ النَّحلِ : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل : ١٢٠ ـ ١٢٢] .

وقال في سورةِ العنكبوتِ : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت : ٢٧] .

سؤالٌ : لماذا قال في النحل : ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ . وقال في العنكبوت : ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ ؟

الجوابُ :

١ ـ لقد قال في سياقِ آيةِ العنكبوتِ في قصةِ إبراهيمَ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت : ١٧] ، فلما ذكر الرِّزق ناسبَ ذكرَ الأجرِ .

٢ ـ إن ما ورد في النَّحلِ هو كل ما ورد من قصةِ إبراهيمَ . وأما في العنكبوتِ فكان له مع قومه موقف ودعوةٌ ؛ فقد دعاهم إلىٰ عبادةِ ٱللهِ إلىٰ أن بَرِموا به ، وقالوا : ﴿ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَـٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [العنكبوت : ٢٤] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٦ ـ ١٧] . فجزاه ربُّه أن وهب له إسحاقَ ويعقوبَ ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب ، وآتاه أجره . ولم يذكر في سياقِ النَّحلِ نحو ذٰلك ليعطيه أجراً ، فإن الأجر هو جزاءُ العملِ .

٣ ـ ذكر ربُّنا في النَّحلِ أن ربَّنا اجتباه وهداه إلىٰ صراطٍ مستقيم ، ولم يذكر له عملاً ، وإنما وصفه بقوله : ﴿ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ . فلما لم يذكر عملاً لم يذكر أجراً ، وإنما قال : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ .

٤ ـ وصف سيدنا إبراهيم في النَّحلِ بقوله : ﴿ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ ، والقنوت هو الطَّاعةُ ، والخضوعُ . فلما ذكر الطَّاعة علىٰ العمومِ ذكر الحسنة التي هي عامَّةٌ ، ولما ذكر في العنكبوتِ نوعاً من الطَّاعة وهو الدَّعوة والتَّبليغ ، ذكر الأجر الذي هو أخصُّ من الحسنةِ ، فناسب العمومُ العمومَ ، والخصوصُ الخصوصَ .

١٥٣ ـ قال تعالىٰ في سورةِ مريمَ : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم : ٨٥] .

وقال في سورةِ الزُّمَرِ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الزمر : ٧٣] .

سؤالٌ : لماذا قال في آيةِ مريمَ : (نحشر) ، وقال في آيةِ الزُّمَرِ : (وسيق) فاستعمل الحشر في مريمَ ، والسَّوقَ في الزُّمرِ مع أن الكلامَ في الموضعينِ علىٰ المتَّقين ؟

الجوابُ : إنَّ معنىٰ (حشر) جمع[1] ، والحشر الجمع ، قال تعالىٰ : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ ﴾ [النمل : ١٧] أي : جمع .

لقد قال في آيةِ مريمَ : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ والوفدُ لا بدَّ أن يكتمل أفراده ، فهم يجمعون قبل أن يذهب بهم إلىٰ الرَّحمـٰن لتكريمِهِمْ . وقال في آيةِ الزُّمرِ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الزمر : ٧٣] أي : جماعاتٍ ، فهم لم يكتملوا بعد ، حتىٰ إذا اكتملوا جمعوا ، وذهب بهم إلىٰ الرَّحمـٰن وفداً ، فناسبَ كلُّ تعبيرٍ موضعَه .

١٥٤ ـ قال تعالىٰ في سورةِ مريمَ : ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم : ٩٤] .

سؤالٌ : ما الفرق بين العدِّ والإحصاءِ ؟

الجوابُ : العدُّ ضم الأعدادِ بعضها إلىٰ بعضٍ[2] . و(عدَّهم) أي :

---

(١) انظر : لسان العرب (حشر) .

(٢) مفردات الراغب (عدد) .

عدَّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم[١] . أما (الإحصاء) فهو العدُّ والحفظ والإحاطة . وأحصىٰ الشَّيء أحاط به[٢] . وأحصاهم عدَّهم وحفظهم وحصرهم وأحاط بهم ، بحيث لا يخرج أحدٌ من حيطة علمه[٣] .

١٥٥ ـ قال تعالىٰ : ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ﴾ [طه : ٩٧] .

سؤالٌ : لماذا قال : (ظلْت) بلامٍ واحدةٍ مع أن الأصل أن يقال : (ظَلَلْت) كما يقال : (مددت) و(فررت) ، قال تعالىٰ : ﴿ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ﴾ [الشعراء : ٢١] .

الجوابُ : هٰذه لغة لبعضِ العربِ ، ويقيسون ما كان نحوه في كلِّ مضاعفِ العينِ واللاَّمِ[٤] ، نحو أحسست فيقولون : (أحست) ولا يكون ذٰلك إلاَّ إذا سكن آخرَ الفعلِ . وقد حذفت هٰهنا تخفيفاً .

وقد ذكرنا في كتابِنا (بلاغةِ الكلمةِ في التَّعبيرِ القرآنيِّ) في باب الذِّكر والحذف أن القرآن قد يحذف من الفعل ؛ للدَّلالةِ علىٰ أن الحدث أقل مما لم يحذف منه ، وأن زمنه أقصر ، أو يحذف في مقامِ الإيجازِ والاختصارِ[٥] . وذٰلك نحو : (تتنزل) و(تنزَّل) و(تتوفاهم) و(توفَّاهم) ، وغيرها .

---

(١) روح المعاني (١٦ / ١٤٢) .
(٢) انظر : لسان العرب (حصىٰ) .
(٣) انظر : روح المعاني (١٦ / ١٤٢) .
(٤) انظر : لسان العرب (ظلل) .
(٥) انظر : بلاغة الكلمة في التعبير القرآني (١١ وما بعدها) .

وهـٰهنا حذف من الفعلِ مناسبةً لقصرِ المدَّةِ التي ظل عليه عاكفاً فيها . وذٰلك أن السامريَّ عكف علىٰ عبادةِ العجلِ حين ذهاب موسىٰ إلىٰ مناجاةِ ربِّه ، وأن مدة ذهابِ موسىٰ لمناجاةِ ربِّه وعودتِهِ أربعون ليلةً ، كما قيل ، وأن فتنتهم كانت في العشر الأواخرِ[1] ، فعبادة العجلِ كانت عشرة أيام . فلما كان العكوف عليه قليلاً ، حذف من الفعلِ مناسبةً لقصرِ المدَّةِ .

ونحو هـٰذا قوله تعالىٰ في سورةِ الواقعةِ : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٥ ـ ٦٧] . فقال : (فظلْتم) والأصل (فظلَلْتم) فحذف اللاَّم الأولى ، كما في الآيةِ السابقةِ . ومعنىٰ : (تفكهون) أي : تقولون ذٰلك ، ولا شكَّ أن القول لا يظل مستمراً علىٰ الدوام . قد يكون الحزن مستمراً مدة طويلة ، ولـٰكن القول لا يستمرُّ ، فالحذفُ من الفعلِ مناسبٌ لقصرِ الحدثِ ، وهو شأن كثيرٍ من التعبيراتِ في نحو هـٰذا . وٱللهُ أعلمُ .

١٥٦ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الأنبياءِ : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٦] .

سؤالٌ : لماذا قال : (مستهم) ولم يقل : (أصابتهم) ؟

الجوابُ : أراد ربُّنا أن يبيِّن تأثيرَ العذابِ علىٰ المذكورين ، وأنه إذا مسَّهم منه أقل القليلِ نادوا بالويلِ ، واعترفوا بظلمهم ، فكيف إذا أصابهم منه الكثيرُ ؟ فقال : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ ﴾ والمسُّ دون النُّفوذِ ، ويكفي في تحقيقه اتِّصال ما[2] .

---

(١) انظر : فتح القدير (٢ / ٢٣١) ، روح المعاني (٩ / ٦٤) .

(٢) انظر : روح المعاني (١٧ / ٥٤) .

وقال : (نفحة) والنفح فيه معنىٰ القلَّةِ والنَّزارة ، فإن أصله هبوب رائحةِ الشَّيءِ . ونفحه أعطاه يسيراً [١] . وفي (لسان العرب) : « النفحة دفعة الرِّيحِ طيبةً كانت أو خبيثةً » [٢] . وقال : (نفحة) ببناءِ المرَّة أي : نفحة واحدة . فإذا مسَّتهم نادوا بالويل ، فكيف إذا أصابهم العذاب ، أعاذنا ٱلله منه ؟

جاء في (روح المعاني) : « وفي (مستهم نفحة) ثلاث مبالغاتٍ ، كما قال الزمخشري . . . ذكر المسِّ ، وهو دون النُّفوذِ ، ويكفي في تحقُّقه اتِّصال ما ، وما في النَّفحِ من معنىٰ النزارةِ . . . وبناء المرَّةِ ، وهي لأقلِّ ما ينطلقُ عليه الاسمُ » [٣] .

وجاء في (التَّفسيرِ الكبيرِ) للرَّازي : « والمعنىٰ : ولئن مسَّهم شيءٌ قليلٌ من عذابِ ٱللهِ كالرائحة من الشَّيءِ دون جسمِهِ ؛ لتنادوا بالويلِ واعترفوا علىٰ أنفسهم بالظلمِ » [٤] .

وفي الآيةِ مبالغاتٌ وتوكيداتٌ عديدةٌ منها :

١ ـ اللاَّم الموطئة للقسمِ في (لئن) .

٢ ـ المسُّ وهو ما دونَ النفوذِ كما ذكرنا .

٣ ـ النَّفحُ وهو النَّزر اليسيرُ ، وهبوب رائحةِ الشَّيءِ .

٤ ـ بناءُ المرَّةِ في (نفحة) .

---

(١) انظر : روح المعاني (١٧ / ٥٤) .

(٢) لسان العرب (نفح) .

(٣) روح المعاني (١٧ / ٥٤) ، وانظر : الكشاف (٢ / ٣٢٩ ـ ٣٣٠) .

(٤) التفسير الكبير (٨ / ١٤٥) .

٥ ـ وقال : (من عذاب) للدَّلالة علىٰ التبعيضِ ، أي : بعض منه ، ولم يقل : (نفحة عذابٍ) .

٦ ـ وقال : ﴿ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ ولم يقل : (من عذاب ٱلله) ؛ ليبيِّنَ أنه إنما أرسله ربُّه وأنذرهم بالوحي الذي أوحاه إليه ، فقد قال قبل هٰذهِ الآيةِ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٤٥] .

والرَّبُّ فيه معنىٰ التَّربيةِ والتَّوجيهِ والإرشادِ ، ومن مقتضياته التَّحذيرُ والإنذارُ ، فلئن مسَّتهم نفحة من عذابِ المربِّي الأعظمِ ؛ ليرتدعوا ويحذروا ؛ لنادوا بالويل ، فكيف إذا أصابهم عذابُ ٱللهِ ؟! والرَّبُّ يعاقب ويؤدِّب ، قال تعالىٰ : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٣ ـ ١٤] .

٧ ـ وقال : (ليقولُنَّ) وهو جوابُ القسمِ .

٨ ـ وقال : (ليقولُنَّ) بنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ ، ولم يقل : (ليقولُنْ) بالنونِ الخفيفةِ ، كما في قوله : ﴿ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ [العلق : ١٥] . ونون التَّوكيدِ الثَّقيلةِ أكثر توكيداً من الخفيفةِ .

٩ ـ وقال : (يا ويلنا) وهو دعاء بالويلِ والهلاكِ ، أي : أصابهم الهلاكُ .

١٠ ـ الاعترافُ بالظلمِ : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ .

١١ ـ توكيدُ الاعترافِ بـ(إن) (إنّا) .

١٢ ـ جاء بالظلمِ بالصِّيغةِ الاسميةِ الدَّالة علىٰ الثبوتِ ، أي : إنهم كانوا متَّصفين بالظُّلمِ علىٰ وجهِ الثُّبوتِ . هٰذا إن مسَّتهم نفحة من

العذابِ ، فكيف إذا أصابهم العذاب ؟! فهـٰذا أدلُّ علىٰ شدَّةِ العذابِ .

١٥٧ ـ قال ٱلله سبحانه في سورةِ الحجِّ : ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج : ٢٧] .

سؤالٌ : ذكر ربُّنا في المجيءِ إلىٰ الحجِّ الذين يمشون علىٰ أرجلهم ، والرُّكبان علىٰ الجمالِ . فلماذا لم يذكر وسائطَ النقلِ الأخرىٰ ، أو يشر إلىٰ ما قد يرد من وسائطِ النَّقلِ في المستقبلِ ؟

الجوابُ : إنَّ ربَّنا قال في الآيةِ : ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا...﴾ [الحج : ٢٧] ولم يقل : (يأتوه رجالاً . . .) فالخطاب لسيِّدِنا إبراهيمَ ، وليس في عصرِهِ غيرُ ما ذكر . وقد تقول : ولِمَ لَمْ يذكر الفلكَ ، وقد كانت في عهدِهِ ؟

فنقول : إن الفلك لا تصل إلىٰ بيتِ ٱللهِ الحرامِ ، ومكة ليست علىٰ البحرِ ، فلا يصحُّ ذكرُ غير ما ذكر .

١٥٨ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الفرقانِ : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان : ٧٠ ـ ٧١] .

سؤالٌ : لماذا ختم الآيةَ الأولىٰ بقولِهِ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ . وختم الآية الثانيةَ بقولِهِ : ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ ؟

الجوابُ : لمَّا قال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ ناسب ذٰلك قولَه : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ؛ لأن الذي يفعل ذٰلك إنما هو الغفورُ الرَّحيمُ . وأما الآية الأخرىٰ فهي في صفةِ التائبِ ، وليست في الكلامِ علىٰ ٱللهِ ، فناسب ذٰلك قولَه : ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ .

١٥٩ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الشُّعراءِ : ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : ٣٨] .

وقال في سورةِ الواقعةِ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة : ٤٩ ـ ٥٠] .

سؤالٌ : لماذا قال في الشُّعراءِ : ﴿ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ باللاَّم ، وقال في الواقعةِ : ﴿ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ بحرفِ الجرِّ (إلىٰ) ؟

الجوابُ : إنَّ (إلىٰ) تفيد انتهاءَ الغايةِ . وإن اللاَّم قد تكون للتَّعليلِ ، وذٰلك نحو قولِهم : (أعددتك لهـٰذا اليوم) ، و(كنت هيأتكم لهـٰذا اليوم) ، وقد تكون للانتهاءِ بمعنىٰ (إلىٰ) نحو : (ذهبت لخالد) أي : (إلىٰ خالد) و(كل يجري لأجل) .

والأظهر أن اللاَّم في الشُّعراءِ تفيد التَّعليل ، وليست للانتهاءِ ؛ ذٰلك أن معنىٰ الانتهاءِ أن جمع السَّحرةِ مستمرٌّ إلىٰ ذٰلك اليومِ ، وليس الأمر كذٰلك ، فإن السَّحرة جيءَ بهم وجمعوا قبل ذٰلك اليومِ ، وليس الجمع مستمراً إلىٰ ذٰلك اليوم .

وأما في سورةِ الواقعةِ فإن (إلىٰ) تفيد الانتهاءَ ، وذٰلك أن الأولين والآخرين يستمر جمعهم إلىٰ ميقاتِ ذٰلك اليومِ ، وهو يوم القيامةِ . ويصحُّ أن يؤتىٰ في يومِ القيامةِ باللاَّم علىٰ إرادةِ التَّعليلِ ، وأن يؤتىٰ بـ(إلىٰ) علىٰ معنىٰ انتهاءِ الغايةِ .

قال تعالىٰ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٥] فجاء باللاَّم . وقال : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الجاثية : ٢٦] فجاءَ بـ(إلىٰ) .

١٦٠ ـ قال تعالىٰ في سورةِ النَّملِ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل : ١٨] .

سؤالٌ : ذُكِرَ أن في هٰذه الآيةِ أوجهاً بلاغيةً متعددةً ، فما هي ؟

الجوابُ : ذكر أنه جمع في هٰذه الآية أحدَ عشرَ جنساً من الكلام : نادتْ ، وكنَّتْ ، ونبَّهتْ ، وسمَّتْ ، وأمرتْ ، وقصَّتْ ، وحذَّرتْ ، وخصَّتْ ، وعمَّتْ ، وأشارتْ ، وأعذرتْ .

فالنِّداء : (يا) ، والكناية : (أي) ، والتَّنبيه : (ها) ، والتَّسمية : (النمل) ، والأمر : (ادخلوا) ، والقصص : (مساكنكم) ، والتَّحذير : (لا يحطمنكم) ، والتَّخصيص : (سليمان) ، والتَّعميم : (جنوده) ، والإشارة : (وهم) ، والعذر : (لا يشعرون) .

فأدَّتْ خمسةَ حقوقٍ : حقَّ ٱلله ، وحقَّ رسولهِ ، وحقَّها ، وحقَّ رعيَّتِها ، وحقَّ جنودِ سليمانَ .

فحقُّ ٱلله أنها استرعيت علىٰ النَّمل ، فقامت بحقِّهم .

وحقُّ سليمان أنها نبَّهته علىٰ النَّمل .

وحقُّها إسقاطها حق ٱلله عن الجنودِ في نصحِهم .

وحقُّ الجنودِ بنصحِها لهم ؛ ليدخلوا مساكنهم .

وحقُّ الجنودِ إعلامها إيَّاهم وجميع الخلقِ أن من استرعاه رعية ، فوجب عليه حفظها والذبُّ عنها ، وهو داخلٌ في الخبرِ المشهورِ :

« **كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته** »[(١)] . وفيها غير ما ذكر أيضاً ، فهي نهت وبالغت وأكَّدت ونفت .

فالنَّهي قوله : ﴿ لا يحطمنكم ﴾ ، والمبالغة أنها أسندت النَّهي إلىٰ سليمانَ ، والمقصود الجنود ، أي : لا تدعوا سليمانَ يحطمكم ، والتَّوكيد بالنونِ الثقيلةِ ، والنفي : ﴿ لا يشعرون ﴾ .

وهناك غير ذٰلك أيضاً .

فقد نادت بقولها : ﴿ يا أيها النمل ﴾ ، وليس بـ(يا نمل) ، فجاء بـ(أيها) بـ(أي) و(ها) للتنبيه ؛ لئلاَّ يفوت شيء من كلامها ، وليسمع من كان منشغلاً ، وذٰلك لأهمية تحذيرِها .

وجاء بـ(يا) لنداءِ البعيدِ . ولم يحذف حرف النِّداءِ ؛ ليصل صوتها ونداؤها إلىٰ من كان بعيداً عنها ، ولئلاَّ يفوت المهم إذا حذف حرفَ النداءِ . وقدَّمتِ النِّداء علىٰ قولها : ﴿ ادخلوا مساكنكم ﴾ ؛ لئلاَّ يفوت الأهم من الكلامِ ، وهم منشغلون منهمكون في العملِ غير متوقِّعين ، أو عالمين بما يحدث .

وقالت : ﴿ ادخلوا ﴾ بخطاب العقلاءِ ؛ الذي دلَّت عليه واو الجماعةِ ، ولم تقل : (ادخلن) أو (ادخلي) . وقالت : ﴿ مساكنكم ﴾ أي : ليستقر كلُّ واحدٍ في مسكنه ، وبالإضافةِ إلىٰ ضميرِ العقلاء . وذكرت ﴿ سليمانَ ﴾ باسمه العلم ؛ إشارةً إلىٰ أنها عارفة به ، ولم تذكر صفته أي الملكَ . وذكرت الجنودَ وأضافتهم إلىٰ سليمان ، ولم تقل : (والجنود) .

---

(١) انظر : البرهان (٣ / ٢٢٧ ـ ٢٢٨) ، وانظر : الإتقان ، تحقيق : د . أحمد القيسية ومحمد أشرف (٣ / ٢١٨) .

وقالت : (وهم لا يشعرون) فنفت عنهم الشُّعور ، وفيها أدب الحديثِ . جاء في (روحِ المعاني) : « وأياً ما كان ، ففي تقييدِ الحطمِ بعدمِ الشُّعورِ بمكانهم ، المشعر بأنه لو شعروا بذٰلك لم يحطموا ، ما يشعر بغايةِ أدبِ النَّملةِ مع سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وجنوده »[1] . وذُكر في الحطمِ إعجازٌ علميٌّ ، واللهُ أعلمُ .

١٦١ ـ **سؤالٌ** : ما الحكمة في اختلافِ خواتيمِ الآياتِ من الآيةِ السِّتين إلىٰ الآيةِ الرابعةِ والسِّتين في سورةِ النملِ ؟

الجوابُ : إنَّ كل آيةٍ ختمت بما يناسب السِّياقَ :

١ ـ قال تعالىٰ : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل : ٦٠] .

ختم الآية بقوله : ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ . ومعنىٰ (يعدلون) : ينحرفون عن الحقِّ ، ذٰلك أنهم يعلمون ما ورد في الآيةِ ، كما أخبر عنهم ربُّنا سبحانه ، فقد قال عنهم : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [لقمان : ٢٥] . وقال : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ [العنكبوت : ٦٣] .

فلما كانوا يعلمون ذٰلك ، ناسب أن يقول فيهم : إنهم قومٌ يعدلون ، أي : ينحرفون عن الحقِّ ، وعن طريقهِ الواضحِ البيِّن ؛ لأن من علم ذٰلك انبغىٰ له أن يعبد اللهَ وحدَه ويوحِّده .

٢ ـ وقال في الآيةِ الحاديةِ والستِّينَ : ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ

(١) روح المعاني (١٩ / ١٧٨) .

خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل : ٦١] .

أي : بل أكثرهم لا يعلمون شيئاً من الأشياء معتداً به لقلة من ينظر في دقائقِ هٰذه المصنوعاتِ ، ولا يعلمون كثيراً مما ذكر في الآية والحكمة منها ، ولذٰلك لا يفهمون بطلانَ ما هم عليه من الشِّركِ[1] . فناسب أن يختم الآيةَ بما ختم .

٣ ـ وقال في الآيةِ الثانيةِ والسِّتينَ : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل : ٦٢] .

فهم إذا وقعوا في مأزقٍ عظيمٍ وانقطعت بهم السُّبل ، لجؤوا إلىٰ ربِّهم ، حتىٰ إذا أنجاهم نسوا ربَّهم ، وعادوا إلىٰ ما هم عليه ، كما أخبر عنهم سبحانه بقوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام : ٤٠ ـ ٤١] .

وقوله : ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الزمر : ٨] . فكأنهم نسوا ما كانوا فيه من الحاجةِ إلىٰ ربِّهم ، والنَّاسي به حاجة إلىٰ التَّذكيرِ والتَّذكُّرِ ، فقال لهم : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ .

٤ ـ قال تعالىٰ : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ

---

(١) انظر : روح المعاني (٢٠ / ٦) .

ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : ٦٣] . ذكر أولاً صفاتِ هـٰؤلاء القوم بأنهم قوم يعدلون ، بل أكثرهم لا يعلمون ، وقليلاً ما يتذكرون ، ثم ذكر بعد ذٰلك تنزيهَه سبحانه وعلوَّه عما يشركون ، فالآيات السَّابقة في صفاتِ أولـٰئكَ المخلوقينَ المشركينَ وانحرافِهم وجهلِهم ، وقلة تذكرِهم . وذكر في هـٰذهِ الآيةِ تنزيهَه سبحانه عن شركِهم .

٥ ـ وقال تعالىٰ : ﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [النمل : ٦٤] . فبدأ بسؤالٍ ينكرونه ، وهو الحياة بعد الموتِ ، ثم طلب منهم البرهانَ علىٰ معتقداتِهم وشركِهم ، بعد كلِّ ما ذكر ، وبعد ما ألزمهم الحجَّةَ ، فقد قال لهم بعد كلِّ تقريرٍ : ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ وهم يقولون في أنفسهم أو بألسنتهم : نعم . فقال لهم : ﴿هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ . فقد ذكرنا البراهين والدَّلالة علىٰ التوحيدِ وبطلان الشِّركِ ، فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقينَ . فكان ذٰلك أنسبَ شيءٍ وألزَمَه للحجَّةِ .

١٦٢ ـ **سؤالٌ :** قال تعالىٰ في سورةِ الرُّوم : ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم : ١٧ ـ ١٨] . فقدم الإمساءَ علىٰ الإصباحِ ، وقدَّم العشيَّ علىٰ الإظهارِ .

وقال في سورةِ الأحزابِ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب : ٤١ ـ ٤٢] . فقدَّم البكرةَ علىٰ الأصيلِ . فما سبب ذاك ؟

الجوابُ : إنَّ كلَّ تعبيرٍ مناسب لما ورد في سياقِهِ ؛ فإنَّ آيات الرُّومِ

في سياقِ ذكرِ السَّاعةِ ، فقد قال قبلها : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ... ﴾ [الروم : ١٤ ـ ١٨] .

والساعة بعد زوالِ الدنيا وهي آخرها ، والإمساء آخر النَّهارِ ، فناسب آخرُ الدنيا آخرَ النَّهارِ . وقدَّم العشيَّ على الإظهارِ كما قدَّم الإمساء على الإصباحِ . فالعشيُّ متَّصلٌ بالإمساءِ ، والإظهار يلي الإصباحَ . وأما ما ورد في سورةِ الأحزابِ فإنه مناسبٌ لما ورد في سياقِهِ ؛ فقد قال قبل هٰذهِ الآيةِ : ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب : ٣٨] .

وهٰذا ابتداءً من أوائلِ التاريخِ من الأممِ السَّابقةِ ، فناسب تقديم ذكر البكرةِ ؛ لأنها أوَّلُ النَّهارِ ، فناسب الأولُ الأولَ . وبعد هٰذه الآيةِ قولُه سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٣] . فقال : ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ وبعدَ الظلمةِ إنما هي البكرة ، وليس الأصيلَ ، فناسب كلُّ تعبيرٍ موضعَه .

جاء في (التفسيرِ الكبيرِ) للفخرِ الرَّازي : « قدَّم الإمساء على الإصباحِ هاهنا ، وأخَّره في قوله : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ؛ وذٰلك لأن هٰهنا أول الكلامِ ذكرَ الحشرَ والإعادةَ ، من قوله : ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم : ١١ ـ ١٦] . وآخرُ هٰذه الآيةِ أيضاً ذكر الحشرِ والإعادةِ بقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ والإمساء آخرٌ فذكر الآخرَ ؛ ليذكر الآخرة »(١) .

---

(١) التفسير الكبير (٩ / ٨٩) .

وجاء في (البحرِ المحيطِ) لأبي حيَّانَ : « وقدَّم الإمساءَ علىٰ الإصباحِ ، كما قدَّم في قوله : ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ والظلماتِ علىٰ النُّورِ ، وقابل بالعشيِّ الإمساء وبالإظهار الإصباح ؛ لأن كلاًّ منهما يعقب بما يقابله ، فالعشي يعقبه الإمساءُ ، والإصباح يعقبه الإظهارُ »[١] .

وجاء في (روحِ المعاني) : « قدَّم الإمساء علىٰ الإصباحِ لتقدُّم الليلِ والظلمةِ ، وقدَّم العشيَّ علىٰ الإظهارِ ؛ لأنه بالنِّسبةِ إلىٰ الإظهارِ كالإمساءِ بالنِّسبةِ إلىٰ الإصباحِ »[٢] .

١٦٣ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الأحزابِ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ [الأحزاب : ٥٠] .

سؤالٌ : لماذا قال سبحانه : ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ بإفرادِ العمِّ ، مع أن له أعماماً ، وليس عماً واحداً ، وجمع العمات والخالات ؟

الجوابُ : مما ذكر في ذٰلك أن من أعمامه العبَّاسَ وحمزةَ ، وهما أخواه من الرَّضاع لا تحلُّ له بناتهما ، وأبو طالب ابنته أم هانئ لم تكن مهاجرة ، وقد قال سبحانه : ﴿ٱلَّـٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ ، وبقية الأعمامِ بناتهم متزوجاتٌ .

وذكروا له أكثر من خالة ، منهن فُريعة بنت وهبٍ الزُّهريَّةِ ، وفاختة بنت عمرو الزُّهريَّةِ ، خالة النَّبيِّ ﷺ ، وهالة بنت وهبٍ . وذكروا له عدَّة عماتٍ ، وعدَّة بناتٍ لهنَّ . وله خالٌ واحدٌ هو عبد يغوثَ بن وهبٍ .

---

(١) البحر المحيط (٧ / ١٦٦) .

(٢) روح المعاني (٢١ / ٢٩) .

فأفرد العمَّ لذٰلك . وذكرت أسباب أخرىٰ للإفرادِ .

١٦٤ ـ سؤالٌ : قال تعالىٰ : ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [فاطر : ١٩] ، [غافر : ٥٨] .

وقال : ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر : ١٢] فنفىٰ بـ(ما) .

في حينِ قالَ : ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ [فصلت : ٣٤] .

وقالَ : ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر : ٢٠] .

وقالَ : ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء : ٩٥] . فنفىٰ بـ(لا) . فلمَ ذاك ؟

الجوابُ : إنَّ (ما) إذا دخلت علىٰ الفعلِ المضارع كان النَّفي للدِّلالةِ علىٰ الحالِ[١] . وإذا دخلت عليه (لا) كان النفي للدِّلالةِ علىٰ الاستقبالِ[٢] . فما نفي بـ(ما) كان لنفي الحالِ ، فقوله : ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ إن عدمَ الاستواءِ فيه مشاهدٌ في هٰذه الدُّنيا ظاهرٌ لكلِّ أحدٍ .

وكذٰلك قولُه : ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فعدمُ الاستواءِ ظاهرٌ في هٰذا . ونحو ذٰلك قولُه : ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر : ٢٢] .

---

(١) المفصل (٢/ ١٩٩) ، المغني (١ / ٣٠٢) ، وانظر : كتاب سيبويه (١ / ٤٦٠) .

(٢) انظر : كتاب سيبويه (١ / ٤٦٠) ، المغني (١ / ٢٤٥) .

أما ما نفي بـ(لا) فيفيدُ نفيَ الاستواءِ في المستقبلِ ، فقوله : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ إنما يظهر عدم الاستواءِ بينهما في الآخرةِ ، وكذلك قولُه : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء : ٥٩] فإن عدمَ استواءِ القاعدين والمجاهدين إنما يظهر أثره في الآخرةِ . وكذلك قوله : ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ فإن عدمَ الاستواءِ إنما يظهرُ في الآخرةِ .

١٦٥ ـ قال تعالىٰ في سورةِ يـٰس : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يـٰس : ٦٥] .

وقال في سورةِ فصِّلتْ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت : ٢٠] .

سؤالٌ : لماذا ختمَ آية يـٰس بالكسبِ ، فقال : ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ . وختم آية فصلت بالعملِ ، فقال : ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ؟

الجوابُ : ذكرَ الكسبَ في آيةِ يـٰس لما ذكرَ الأيدي والأرجلَ ، وهما آلتا الكسبِ ، ولذلك كثيراً ما يقترن الكسبُ بالأيدي ، قال تعالىٰ : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الروم : ٤١] . وقال : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة : ٣٨] . وقال : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورىٰ : ٣٠] . وقال : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد : ١ـ٢] . وذكر العملَ في فصلت لذكرِ السَّمعِ والأبصارِ والجلودِ ، وهي تشهدُ العملَ . فناسب كلُّ تعبيرٍ مكانَه الذي هو أنسبُ به .

١٦٦ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الزُّمَرِ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر : ٢] .

وقال في السورةِ نفسِها : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الزمر : ٤١] .

سؤالٌ : لماذا قال في الآيةِ الأولىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ ، وقال في الآيةِ الأخرىٰ : ﴿ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ﴾ ؟

الجوابُ : إنَّ حرفَ الجرِّ (علىٰ) يستعمل للأمورِ الثَّقيلةِ وهي للاستعلاءِ وللتكاليفِ ، ولما يثقل أمره ، ولما هو أشقُّ علىٰ العمومِ ، بخلاف (إلىٰ) فإنها ليست كذٰلك .

قال تعالىٰ : ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [البقرة : ١٨٣] ، وتقول العربُ : (سرنا عشراً وبقيت علينا ليلتان) ، وتقول : (حفظتُ القرآنَ وبقيت عليَّ منه سورتان) . وتقول : (عليه دينٌ) [١] .

والآية الحادية والأربعون ، وهي التي ذكرت فيها (علىٰ) أثقلُ وأشقُّ من الآيةِ الأخرىٰ التي ذكرت فيها(إلىٰ) ؛ لأنها رسالةٌ وتبليغٌ ، فقد ذكر أنها للناسِ ، ومن المعلومِ أن التبليغَ صعبٌ وعسيرٌ . ولم يقل : (للناس) في الآيةِ الأخرىٰ .

ثم قال في آيةِ التَّبليغِ : ﴿ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا

---

(١) انظر : لسان العرب (علا) (١٩ / ٣٢١) .

يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ فهٰذه الآيةُ رسالةٌ . والآيةُ الأخرىٰ نبوةٌ وهي خاصةٌ به ، وليس فيها تبليغٌ ، فإنه قال فيها : ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ . فناسب كلُّ تعبيرٍ موضعَه .

١٦٧ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الزُّمَرِ : ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر : ٧٠] .

سؤالٌ : لماذا قال أولاً : (ما عملت) ثم قال : (بما يفعلون) فذكر العملَ أولاً ، ثم ذكر الفعلَ بعد ذٰلك ؟

ولماذا أخبر بالفعلِ الماضي أولاً ، فقال : (ما عملت) ثم أخبر بالمضارع بعد ذٰلك ، فقال : (بما يفعلون) ؟

الجوابُ : الفعلُ أعمُّ من العملِ ، فإنَّ العمل يكون بقصدٍ ، وأما الفعلُ فيكون بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ ، ويصدر عن العاقِلِ وغيره ، من الإنسانِ والحيوانِ والجمادِ[1] . وقد بدأت الآيةُ بالعملِ وختمت بالفعلِ ؛ ليدل علىٰ أنه سبحانه يعلم العملَ والفعلَ كليهما ، ما فعل بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ ، وسواء كان عن علمٍ ، أم بدون علمٍ .

أما الإخبارُ بالماضي في قوله : (بما عملت) ؛ فلأن ذٰلك جرىٰ في ذكرِ أحوالِ الآخرةِ ، قال تعالىٰ : ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر : ٦٩ ـ ٧٠] .

وأما الإخبارُ بالمضارعِ بعد في قوله : ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ؛ فلأنه تقدم السِّياق في الكلامِ علىٰ الدنيا لذكر ما يحدث في الآخرةِ ، وذٰلك قوله

(١) انظر : مفردات الرَّاغب (عمل) و(فعل) .

تعالىٰ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ ﴾ [الزمر : ٦٧ ـ ٦٨] . فالتفت في قوله : ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ إلىٰ السِّياقِ في الدُّنيا ، فذكر علمه بما يفعلون .

وإذا كان قوله : ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ إخباراً عن ماضٍ ، فيكون من باب حكايةِ الحالِ ، كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾ [البقرة : ٩١] .

١٦٨ ـ قال تعالىٰ في سورةِ فصِّلتْ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [فصلت : ٢٠ ـ ٢١] .

سؤالٌ : لماذا خصَّ هـٰؤلاء سؤال الجلودِ ، مع أن السَّمع والبصر شهدا عليهم أيضاً ؟

الجوابُ : إنَّ الجلودَ هي التي تذوق العذابَ وينالها منه القسط الأكبر ، كما قال تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء : ٥٦] . فاستغربوا أن تشهدَ الجلودُ مع أنها هي التي سينالُها العذابُ فسألوها لذٰلك .

جاء في (روحِ المعاني) : « قيل : إن ما تشهد به من الزنىٰ أعظمُ جنايةً وقبحاً من جلبِ الخزيِ والعقوبةِ ، مما تشهدُ به السمعُ والأبصارُ من الجنايات المكتسبةِ بتوسطها . . . أو لأنها هي مدركةُ العذابِ بالقوةِ المودعةِ فيها كما يشعرُ به قوله تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ »(١) .

---

(١) روح المعاني (٢٤ / ١١٥) .

١٦٩ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الجاثيةِ : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [الجاثية : ٧ ـ ١١] .

سؤالٌ : ما علاقةُ اختيار كلِّ فاصلةٍ بسياقها ؟

الجوابُ : **الأفّاك** : الكثيرُ الكذبِ ، والذي ينصرفُ من الحقِّ إلىٰ الباطلِ[١] . **الأثيمُ** : الكثيرُ الإثمِ المبالغُ فيه . **الرِّجزُ** : القذر مثل الرِّجسِ ، والرِّجز هو العذابُ المقلقلُ لشدَّته وله قلقلةٌ متتابعةٌ ، والرِّجزُ كالزلزلةِ[٢] .

فذكر في الآيةِ الأولىٰ ـ أي السابعة ـ صفةَ من يستحقُّ هـٰذا العذاب ، بأنه أفاكٌ كثيرُ الكذبِ ، وينصرف من الحقِّ إلىٰ الباطلِ ، وأنه كثيرُ الإثمِ مبالغٌ فيه . وبيَّن له صفةً أخرىٰ ، وهي أنه يسمع آياتِ ٱلله تتلىٰ عليه ، ثم يصرُّ مستكبراً كأن لم يسمعها إلىٰ بقيةِ الصِّفاتِ الأخرىٰ المذكورة في الآياتِ بعدها .

ولما ذكر في الآيةِ الثامنةِ أنه يصرُّ مستكبراً كأنه لم يسمع الآيات ، قال : ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ﴾ لعله يسمع هـٰذه البشرىٰ ، فقال : ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي أسمعه هـٰذه البشرىٰ ، وهي العذابُ الأليمُ ، وهـٰذا العذابُ الأليمُ

---

(١) انظر : مفردات الراغب (أفك) ، القاموس المحيط (أفك) ، فتح القدير (٥ / ٤) .

(٢) انظر : لسان العرب (رجز) ، مفردات الراغب (رجز) .

يقمعُ استكبارَه الكاذبَ . وهٰذه البشرىٰ استهزاءٌ به يليق باستكباره ، والجزاء من جنسِ العملِ . وقال في الآيةِ بعدَها : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [الجاثية : ٩] ، والعذابُ المهينُ مناسبٌ لاستهانتهِ واستهزائه بآياتِ ٱللهِ . والعذابُ المهينِ هو المشتملُ علىٰ الإذلالِ والفضيحةِ[١] .

جاء في (روحِ المعاني) : « وصف العذاب بالإهانةِ توفيةً لحقِّ استكبارِهم واستهزائهم بآياتِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ »[٢] . وهٰذا العذابُ المهينُ إنما هو واقعٌ في الدُّنيا والآخرةِ فعذاب الدنيا بالقتل والأسر ، ولهم عذاب مهين في الآخرة ، يدلُّ علىٰ ذٰلك قوله سبحانه : ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا ﴾ ، وقال في الآيةِ بعدها : ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

فذكر أن لهم عذاباً عظيماً وهو أشدُّ العذابِ . وهو ـ كما قيل ـ لا يدع جهةً من جهاتهم ، ولا زماناً من أزمانهم ، ولا عضواً من أعضائهم إلا ملأه ؛ ذٰلك أنها في المشركين الذين اتخذوا من دونِ ٱللهِ أولياءَ ، وهي الأصنامُ والمعبوداتُ الباطلةُ .

ولما كان هٰؤلاء مشركين ؛ استحقوا أشدَّ العذابِ وأعظمه ، فناسبَ العذابُ وصفَهم . ثم قال بعدها : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ . وهو العذابُ المقلقلُ لشدَّته ، وله قلقلةٌ شديدةٌ متتابعةٌ[٣] .

والرجزُ هنا كالزلزلةِ ؛ أي ولهم عذابٌ من الرِّجسِ والقذارةِ بليغٌ

---

(١) انظر : فتح القدير (٥ / ٤) .

(٢) روح المعاني (٢٥ / ١٤٣) .

(٣) انظر : لسان العرب (رجز) .

الإيلام متتابعٌ ، ذٰلك أنهم كفروا بآياتِ ربِّهم ، والآياتُ متتابعةٌ والرِّجزُ متتابعٌ . ولما خصَّص الكفر بآياتِ ربِّهم خصَّص العذاب بأنه من رجزٍ . ولما كانت الآيات متتابعةً كان العذابُ متتابعاً . فما أجلَّ هـٰذه المناسبات وأعظمها !

١٧٠ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الفتحِ : ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح : ٩] .

سؤالٌ : الضَّمائر في قوله : ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ علىٰ من تعودُ ؟ أعلىٰ ٱللهِ أم علىٰ الرَّسولِ ﷺ ، وإذا كانت تعود علىٰ الرَّسولِ ﷺ ، فكيف يصحُّ عطفُ (وتسبِّحوه) عليها والتَّسبيحُ للهِ ؟

الجوابُ : الضَّمائرُ كلُّها ـ كما هو الأولىٰ والأظهرُ ـ تعودُ علىٰ ٱللهِ .

فمعنىٰ (عزَّره) عظمه ونصره ، ومعنىٰ التعزير النَّصر باللسانِ والسَّيفِ[١] . وعلىٰ هـٰذا فإن قولَه : (تعزروه) يعني : تنصروه باللسانِ والسَّيفِ . قال تعالىٰ : ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] .

ومعنىٰ (توقروه) تعظِّموه ، والتوقيرُ معناه التعظيمُ[٢] . قال تعالىٰ : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح : ١٣] . أي ما لكم لا تخافون للهِ عظمةً[٣] . وعلىٰ هـٰذا فإن الضَّمائرَ تعودُ علىٰ ٱللهِ وهو الأولىٰ ؛ لئلا يلزم فكُّ الضمائرِ من غيرِ ضرورةٍ[٤] . وجوز بعضُهم أن يكون بعضُها

---

(١) انظر : لسان العرب (عزر) ، روح المعاني (٢٦ / ٩٦) .

(٢) انظر : لسان العرب (وقر) .

(٣) انظر : معاني القرآن للفرّاء (٣ / ١٨٨) ، لسان العرب (وقر) .

(٤) انظر : البحر المحيط(٨ / ٩١) ، روح المعاني (٢٦ / ٩٦) ، فتح القدير (٥ / ٤٦) .

للرَّسولِ ﷺ[1] . ولـٰكن الأولىٰ ما ذكرناه .

١٧١ ـ قال تعالىٰ في سورةِ (قٓ) : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [قٓ : ١٢ ـ ١٤] .

سؤالٌ : ذكر (إخوان لوطٍ) في الآيةِ الثالثةَ عشرة ، ولم يرد مثل هـٰذا التَّعبيرِ مع غيرِهِ من الأنبياءِ . فلم يرد (إخوان هودٍ) أو غيره ، فلم ذاك ؟

الجوابُ : إنَّ قومَ لوطٍ يختلفون عن بقيةِ الأقوام جميعاً ؛ لأن معصيتهم إنما تخصُّ الرِّجالَ ، ذٰلك أنهم كانوا يأتون الرِّجال شهوةً من دونِ النِّساءِ ، وهـٰذه خاصَّة بالرِّجالِ .

وكلمة (إخوانِ) هي للذُّكورِ ولا تشمَل الإناثَ ، فلذٰلك جاء بها معهم خاصَّةً ، بخلاف معاصي أقوامِ الأنبياءِ الآخرين ، فإنها تعمُّ الرِّجالَ والنِّساءَ فيأتي بكلمةِ (قومٍ) معهم .

غير أنه يذكر قومَ لوطٍ حين يذكر العقوبةَ والهلاكَ . قال تعالىٰ في سورةِ الشُّعراءِ : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٠] ثم ذكر هلاكهم وتدميرهم ، فقال : ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٧٠ ـ ١٧٣] .

وذكر نحو ذٰلك في سورةِ هودٍ ، فقال : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ

---

(١) انظر : روح المعاني (٢٦ / ٩٦) .

﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود : ٧٤] ، ثمَّ ذكر تدميرَهم وهلاكَهم ، فقال : ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود : ٨٢ ـ ٨٣] . ونحو ذٰلك ورد في سورةِ القمرِ ، قال تعالىٰ : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر : ٣٣ ـ ٣٤] إلىٰ أن يقولَ : ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر : ٣٨ ـ ٣٩] فبان الفرقُ .

١٧٢ ـ قال تعالىٰ في سورةِ المجادلةِ : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة : ٦ ـ ٧] .

سؤالٌ : قال تعالىٰ في الآيةِ الأولى : ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ بالفاءِ ، وقال في الآيةِ التي تليها : ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ بـ(ثم) ، فما السَّببُ ؟

الجوابُ : إنَّ الآيةَ الأولىٰ في يوم القيامةِ ، يدلُّ علىٰ ذٰلك قوله : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ فيكون التَّنبيءُ قريباً . فإن الفاءَ تدل علىٰ التَّرتيبِ والتَّعقيبِ .

أما الآيةُ الأخرىٰ فهي في الدُّنيا ، والكلامُ علىٰ من في الدُّنيا وتناجيهم ، والتَّنبيءُ إنما يكون يومَ القيامةِ ، كما قال : ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهو متراخٍ عن الدُّنيا ، فجاء بـ(ثم) التي تدلُّ علىٰ التَّرتيبِ والتَّراخي ، أي : المهلة .

١٧٣ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الطَّلاقِ : ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن

يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق : ٤] .

وقالَ فيها أيضاً : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق : ٦ ـ ٧] .

سؤالٌ : قال سبحانه في الآيةِ الأولىٰ : ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ بالجمعِ (الأحمال) ، وقال في الآيةِ الأخرىٰ : ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ بالإفرادِ (حمل) ، فلِمَ ذاك ؟

الجوابُ : إنَّ الآيتينِ كلتيهما في المطلَّقاتِ ، غير أن الآيةَ الأولىٰ عامةٌ ليس بينهن تفاوت ، فأولات الأحمالِ جميعاً أجلهن وضعُ الحملِ .

وأما الآيةُ الأخرىٰ فأولات الأحمالِ متفاوتات من حيث مقدارُ الإنفاق عليهنَّ ، فإنه بحسب سعةِ الزَّوج ، كما قال تعالىٰ في السِّياق نفسه : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق : ٧] . وهنَّ متفاوتاتٌ أيضاً من حيث التَّوافق علىٰ الإرضاع أو التَّعاسرِ ونحوه كما قال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق : ٦] .

فالآيةُ الأولىٰ تعمُّ جميعَ أولاتِ الأحمالِ ، والثَّانيةُ لا تعمُّ الجميعَ ، بل بينهن اختلافٌ . فليست أولات الأحمالِ متساوياتٍ في ذٰلك ، بل هنَّ متفاوتاتٌ من حيث مقدار الإنفاقِ عليهنَّ ، ومن حيث التَّوافق علىٰ الإرضاعِ .

ولا شكَّ أن هـٰذه الحالَ أقلُّ من العمومِ ، فهن لا يتقاضين نفقةً

واحدةً ، وليست كلهن متفقاتٍ علىٰ الإرضاعِ . فلما اختلف الوضعُ وشمِلَ بعضاً دون بعضٍ ، جاء بالمفردِ الذي هو أقلُّ من الجميعِ في الدِّلالةِ .

إن الحالةَ الثانيةَ مرتبطةٌ بأمرين : حالة الزَّوجِ الماديةِ ، والآخر رغبة الزَّوجةِ في الإرضاعِ وعدمِهِ .

وأما الحالةُ الأولىٰ فأمرٌ عامٌ لا يعود إلىٰ رغبةِ أيٍّ من الطَّرفينِ ، فهو عامٌّ يشملُ الجميعَ فجمع لذٰلك . فناسبَ كلُّ تعبيرٍ موضعَه ، واللهُ أعلمُ .

١٧٤ ـ قال تعالىٰ في سورةِ التَّحريم : ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم : ٣] .

سؤالٌ : لماذا قال أولاً : ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ ، ثم قال بعد : ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ﴾ فاستعمل (نَبَّأَ) أولاً ، ثم استعمل (أنبأ) بعد ؟

الجوابُ : إنَّ الفعلَ (نبَّأَ) يقتضي تنبيئاً أكثر من (أنبأ) ، كقولنا : (علَّم وأعلم) .

فلما عرَّف بعضَ الحديثِ وأعرض عن بعضٍ ، كان كأنما ذكر قسماً من النَّبأ ، فقالت له : (من أنبأك هـٰذا) ؛ أي هـٰذا الجزء منه . فذكر أن العليمَ الخبيرَ نبأه به كلِّه .

١٧٥ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الملكِ : ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الملك : ٢٠] .

وقال في سورةِ الكهفِ : ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف : ٤٣] .

وقال في سورةِ القصصِ : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن

فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص : ٨١] .

سؤالٌ : لماذا قال في سورةِ الملكِ : ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ، وقال في آيتي الكهفِ والقصصِ : ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ؟

الجوابُ : إنَّ السِّياق في سورةِ الملكِ إنما هو في ذكر النعم التي أنعمَ ٱلله بها علىٰ النَّاسِ .

قال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك : ١٥] . وقالَ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ﴾ [الملك : ١٩] . وقالَ : ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ [الملك : ٢٠] ، وقال : ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ﴾ [الملك : ٢١] ، وقالَ : ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك : ٢٣ ـ ٢٤] . فكان ذكرُ الرحمـٰن هو المناسبَ ، فإن ذلك من مظاهرِ رحمتِهِ سبحانه .

أما السِّياق في سورتي الكهفِ والقصصِ ، فهو في العقوباتِ . أما في الكهفِ فإن السِّياق في محاورةٍ بين كافرٍ ومؤمنٍ ، قال تعالىٰ : ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف : ٣٢] .

إلىٰ أن قالَ : ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف : ٣٥ ـ ٣٦] .

إلىٰ أن قال : ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ

عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف : ٤٢ ـ ٤٣] .

وكذٰلك السِّياق في القصصِ ، فإنه في سياقِ الخسفِ بقارونَ وبدارِهِ ، قال تعالىٰ : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص : ٨١] .

فالسِّياقُ في الموضعين إنما هو في العقوباتِ لا في النعمِ والرَّحمةِ ، فناسب كلُّ تعبيرٍ موضعَه .

أما الاختلافُ بين ما وردَ في سورتي الكهفِ والقصصِ فقد ذكرناه في كتابنا (من أسرارِ البيانِ القرآني) في بابِ التَّشابهِ والاختلافِ ، فلا نعيد القولَ فيه .

١٧٦ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الحاقةِ : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة : ٤ ـ ٦] .

سؤالٌ : لماذا قدَّم ثمودَ علىٰ عادٍ مع أن عاداً أسبقُ من ثمودَ ؟

الجوابُ : إنَّ التَّقديمَ والتَّأخيرَ قد يكونان بصورةٍ متعدِّدةٍ ، فقد يكون التَّقديم من القريبِ إلىٰ البعيدِ أو من البعيدِ إلىٰ القريبِ ، وقد يكون من القليلِ إلى الكثيرِ أو من الكثيرِ إلىٰ القليلِ وغير ذٰلك .

وهاهنا بدأ بالأقربِ إليهم وهو ثمودُ ، فإنه أقرب إليهم من عادٍ . وهـٰذا هو السَّمتُ الظاهرُ في هـٰذه السُّورةِ ، فإنه يبدأ بالأقربِ إليهم ، فقد قال : ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة : ٩] فذكر فرعونَ ، وذكر من قبله ، وذكر المؤتفكاتِ وهي مدائنُ لوطٍ وهي الأقدمُ ، فبدأ بالأقربِ .

وقال : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة : ١١] والكلامُ علىٰ نوحٍ وهو أقدمُ من كلِّ المذكورين . ثم قال : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٣ ـ ١٦] . فبدأ بالأقربِ إليهم وهي الأرضُ ثم السماءُ ، فذكر حملَ الأرضِ والجبالِ أولاً ، ثمَّ ذكر بعدها انشقاقَ السَّماءِ .

في حينِ يبدأ بالسَّماءِ ثم الأرضِ في مواطنَ أخرىٰ .

قال تعالىٰ : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق : ١ ـ ٤] فبدأ بالسَّماءِ ، ثم ذكر الأرضَ بعدها . وقال : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار : ١ ـ ٤] . فبدأ بالسَّماءِ ثم ذكر ما في الأرضِ . وقال : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير : ١ ـ ٣] . فبدأ بما في السَّماءِ ، ثم ذكر ما في الأرضِ .

علىٰ غيرِ ما وردَ في سورةِ الحاقةِ ، حتىٰ إنه قال في الحاقةِ : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة : ٣٨ ـ ٣٩] فبدأ بما يبصرُ وهو الأقربُ إليهم ، ثم ما لا يبصرُ مما كان بعيداً ، أو له حالةٌ أخرىٰ لا تبصرها العيون . فهٰذا التَّقديمُ والتَّأخيرُ هو السَّمتُ العامُّ لهٰذه السُّورةِ .

١٧٧ ـ قال تعالىٰ في سورةِ المعارجِ : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : ٤] .

وقال في سورةِ القدرِ : ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ [القدر : ٤] بتقديمِ الملائكةِ علىٰ الروحِ .

وقال في سورةِ النبأ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ : ٣٨] بتقديمِ الرُّوحِ على الملائكةِ .

سؤالٌ : لِمَ قدَّمَ الملائكةَ على الرُّوحِ في آيتي المعارجِ والقدرِ ، وقدَّمَ الروحَ على الملائكةِ في آيةِ النبأ ؟

الجوابُ : إنَّ ربَّنا يقدِّمُ الملائكةَ على الرُّوحِ في الحركةِ والصعودِ والنزولِ والانتقالِ ؛ لأن ذلك أكثرُ فيهم من الرُّوحِ . قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ [الأنعام : ٦] .

وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء : ٩٧] . وقال : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ ﴾ [البقرة : ٢٤٨] . وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [فصلت : ٣٠] .

أما في الوقوفِ والقيامِ فيقدِّم الروحَ ، قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ : ٣٨] .

١٧٨ ـ قال تعالىٰ في سورةِ المزمِّلِ : ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المزمل : ٩] .

وقال في سورةِ الرَّحمـٰنِ : ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمـٰن : ١٧] .

وقال في سورةِ المعارجِ : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المعارج : ٤٠] .

سؤالٌ : المقصودُ بالمشرقِ والمغربِ معلومٌ ، ولـٰكن ما المقصودُ بالمشرقينِ والمغربينِ ، وبالمشارقِ والمغاربِ ؟

الجوابُ : قيل : إن المرادَ بالمشرقينِ والمغربينِ ، مشرقُ الصَّيفِ ومشرقُ الشِّتاء ، ومغرباهما ، فإنَّ كلَّ مشرقٍ تشرقُ فيه الشَّمسُ مرتين في السَّنةِ ، مرَّةً في الصَّيفِ ومرَّةً في الشِّتاءِ وكذٰلك كلُّ مغربٍ ، وهي تنتقلُ بين خطِّ الاستواءِ والمدارين . وقيل : المشرقان مشرقا الشَّمسِ والقمرِ ، والمغربانِ مغرباهُما [١] .

وإن المقصودَ بالمشارقِ والمغاربِ مشارقُ الشَّمسِ ومغاربها ، علىٰ تعددِ أيامِ السنةِ ، فإنها في كلِّ يومٍ تشرق من مشرقٍ وتغرب في مغربٍ ، أو مشارقُ الشَّمسِ والقمرِ ، وقيل : مشارقُ الكواكبِ ومغاربها مطلقاً [٢] .

وقد تقول : لقد قال في سورةِ الصَّافّاتِ : ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات : ٥] فذكر المشارقَ ، ولم يذكرِ المغاربَ ، فما السَّببُ مع أنه ذكرهما في سورةِ المعارجِ ؟

والجوابُ : أنه قال في الصَّافّاتِ : (رب المشارق) ولم يذكرِ المغاربَ مناسبةً للآيةِ بعدها ، فقد قال : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات : ٦] ذٰلك أن الزينةَ إنما تكون في مشارقِها لا في مغاربها . ولقوله أيضاً : ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا﴾ [الصافات : ٧ ـ ٩] وقذفُ الشياطينِ إنما يكون في مشارقِ الكواكبِ لا في غروبِها .

وأما قولُه في المعارجِ : ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج : ٤٠] فهو مناسبٌ لما بعده ، وهو قوله : ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج : ٤١] ذٰلك أن المعنىٰ أنه يهلكُ هٰؤلاء ويفنيهم ، ويأتي

---

(١) انظر : روح المعاني (٢٧ / ١٠٥) .

(٢) انظر : روح المعاني (٢٩ / ٦٥) .

بغيرِهم من هو خيرٌ منهم ، وإذهابُهم وإهلاكُهم أشبه بالغروبِ . والمجيءُ بغيرِهم إنما هو شروقُ جيلٍ أفضلُ منهم . فإذهابُهم غروبُهم ، ومجيءُ غيرِهم شروقٌ . فناسبَ كلَّ تعبيرٍ موضعَه .

١٧٩ ـ قال تعالىٰ في سورةِ النبأ : ﴿ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴾ [النبأ : ٢٨] .

وقال في سورةِ البروجِ : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ ﴾ [البروج : ١٩] .

سؤالٌ : لِمَ قال في سورةِ النبأ : (كِذَّاب) ، وقال في سورةِ البروجِ : (تكذيب) ؟

الجوابُ : من معاني (الكِذَّاب) التَّـكذيبُ والكذبُ ، يقالُ : (كذَّب بالأمرِ تكذيباً وكِذَّاباً) و(كذب الرجلُ كِذَّاباً) [١] . وقد يستعمل (الكِذَّاب) للإفراطِ في التَّـكذيبِ أو الكذبِ [٢] . ومن النَّظر في السِّياقين تتبيَّن مناسبةُ اختيارِ كلٍّ من المصدرينِ .

قال تعالىٰ في سورةِ النبأ : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابٗا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ جَزَآءٗ وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ : ٢١ ـ ٣٠] ، وقال في سورةِ البروجِ : ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾ [البروج : ١٧ ـ ٢٠] .

وقد ذكرنا أن من معاني (الكِذّاب) المبالغةَ في التَّـكذيبِ والإفراطَ

(١) انظر : لسان العرب (كذب) .

(٢) انظر : الكشاف (٣ / ٣٠٦ ـ ٣٠٧) .

فيه . وقد ذكر في سورةِ النبأ من الصِّفاتِ ما زادَ علىٰ ما في البروجِ :

١ ـ فقد ذكر أنهم طاغون : ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ .

٢ ـ وأنهم كانوا لا يرجون حساباً .

٣ ـ وأنهم كذَّبوا بآياتِ ٱللهِ كِذاباً .

٤ ـ وإن (كذّاباً) في الآيةِ إنما هو مفعولٌ مطلقٌ مؤكدٌ لفعله ، فأكَّد تكذيبهم بالمصدرِ المؤكدِ . ولم يقلْ في سورةِ البروجِ إلا قوله : ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ﴾ .

فلما زاد في النبأ علىٰ ما في البروج من الوصفِ بالطُّغيانِ والتَّفصيلِ في الكفرِ ، جاء بالمصدرِ ما يدلُّ علىٰ المبالغةِ وأكَّد به فعله (كذبوا) . فناسبَ كلُّ تعبيرٍ موضعَه وسياقَه .

ومن لطيفِ السِّياقِ أنه لما قال في (البروج) : ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ﴾ أي : ساقطون فيه ، وإن التَّكذيبَ محيطٌ بهم ناسبَ أن يقولَ : ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ . فالتَّكذيبُ محيطٌ بهم وٱللهُ محيطٌ بالجميعِ .

ومن لطيفِ الاستعمالِ للكِذّاب أيضاً ، أنه قال في سورةِ النبأ : ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ : ٣٥] ولم يقلْ (ولا تكذيباً) أو (ولا كذباً) ؛ لأن الكِذّابَ يكون بمعنىٰ الكذبِ وبمعنىٰ التَّكذيبِ . فجمعَ المعنيينِ في التَّعبيرِ ؛ أي : لا يسمعون فيها لغواً ولا كِذاباً ولا تكذيباً ، فنفىٰ الكذبَ والتَّكذيبَ . وهو من لطيفِ التَّوسعِ في المعنىٰ .

١٨٠ ـ قال تعالىٰ في سورةِ النبأ في الكافرينَ : ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ : ٢٤ ـ ٢٦] .

وقال في المتَّقينَ : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ [النبأ : ٣١ ـ ٣٦] .

سؤالٌ : لماذا قال في جزاءِ الكافرين : ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ . وقال في جزاء المتَّقين : ﴿ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ ؟

الجوابُ : ذكر ربُّنا أن جزاءَ السَّيئةِ مثلها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورىٰ : ٤٠] . وقال : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٦٠] . فلما كان الجزاءُ موافقاً لأعمالهم قال : ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ أي : علىٰ قدرِ أعمالِهم .

وأما الحسنةُ فتجزىٰ بعشرِ أمثالها ، كما قال تعالىٰ : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] إلى أضعافٍ كثيرةٍ ، كما قال ربُّنا : ﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

فلما كانت أجورُ الحسناتِ تتضاعف ، قال ربُّنا : ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾ . فذكر أنه عطاءٌ من الرَّبِّ سبحانه ، ثم قال (حساباً) أي : كافياً موفياً . فإن معنىٰ (أحسبُ) كفى ، ومعنى (حساباً) كافياً ، يقال : (أحسبت الرجل) أي : أعطيته ما يرضىٰ[١] .

جاء في (روحِ المعاني) في قوله : ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ : « فالمرادُ جزاءً موافقاً لأعمالهم علىٰ معنىٰ أنه بقدرها في الشِّدةِ والضَّعفِ ، بحسب استحقاقِهم كما يقتضيه عدله وحكمته تعالىٰ »[٢] .

---

(١) انظر : لسان العرب (حسب) .

(٢) روح المعاني (٣٠ / ١٦) .

وجاءَ فيه في قوله : ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ : « (عطاء) أي : تفضيلاً وإحساناً منه عزَّ وجلَّ . . . (حساباً) صفةُ عطاءٍ بمعنىٰ كافياً »[1] .

وجاء في (ملاك التأويلِ) : « إن ٱلله سبحانَه أعلمنا أنه يجازي علىٰ الحسنةِ بعشرِ أمثالها ، إلىٰ سبعمئة ضعفٍ إلىٰ ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ . . . وقال تعالىٰ في الجزاءِ من السيِّئاتِ : ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ وقال : ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فحصل من هـٰذا أن حكم السيِّئاتِ المقابلةِ بأمثالها . . .

وأما الجزاءُ الإحسانيُّ فقد فاق الوفاقَ ، وعجز عن التَّقديرِ ، فلهـٰذا أعقبَ قوله سبحانه : (جزاء) بما يشعر بجريانه علىٰ حكمِ الإنعامِ والإحسانِ فقال : (من ربك) وفي هـٰذه الإضافةِ ما يشعرُ بعظيمِ الرحمةِ وزلفىٰ القربِ بقوله : (من ربك) ثم قال : (عطاءً) . . .

ثم قال : (حساباً) فأشار إلىٰ التَّضعيفِ المتقدِّم . ولم يكن ليلائمَ جـزاءَ السيئـةِ أن يقـالَ : (مـن ربـك) ولا لتسمـىٰ (عطـاءً) ولا(حساباً) »[2] .

١٨١ ـ قال تعالىٰ في سورةِ المطففينَ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ [المطففين : ٢٩] .

وقال فيها : ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ [المطففين : ٣٤] .

---

(١) المصدر السابق نفسه (٣٠ / ١٨ ـ ١٩) .
(٢) ملاك التأويل (٢ / ٩٤١ ـ ٩٤٢) .

سؤالٌ : لماذا وصف الكفارَ بالإجرامِ أولاً ، فقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ ، ووصفهم بعد ذٰلك بالكفر ، فقال : ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ ؟

الجوابُ : قال عنهم أولاً إنهم أجرموا ؛ لأنهم اعتدوا علىٰ حقوقِ الآخرينَ بأن سخروا منهم ، كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين : ٢٩ ـ ٣٢] .

ثم ذكر حكمَهم بعد ذٰلك ، فسمَّاهم كفَّاراً ، فإن هـٰؤلاء كفارٌ وقد وصفوا المؤمنين بالضَّلالِ : ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ فذكر حكمهم ؛ لئلا يظن أن هـٰؤلاء مجرمون ليسوا كفاراً .

وقد ذكر المؤمنين عموماً ، من الذين كان يضحك منهم وغيرهم . وذكر الكفار عموماً ؛ ليبين أن الضَّحكَ كان علىٰ الكفارِ عموماً من هـؤلاء الذين كانوا يضحكون وغيرهم ، فالذين آمنوا علىٰ العمومِ ، يضحكون من الكفارِ علىٰ العمومِ ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ ؟!

١٨٢ ـ قال تعالىٰ في سورةِ الغاشيةِ : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ [الغاشية : ١٧] .

سؤالٌ : لماذا خصَّ الإبلَ بالذِّكرِ مع أن من الحيواناتِ ما يماثلها ، أو أعجبُ منها في الخلقِ ؟

الجوابُ : الحقُّ أن الإبلَ أدعىٰ إلىٰ التأملِ والنَّظرِ ، فإنها علاوةً علىٰ أن العربَ يستعملونها كلَّ حينٍ ، فإنها لا يماثلها حيوان في عظمِ جثتها ، وشدةِ قوتِها ، وحملِ الأوقارِ الثقيلةِ ، وإيصالها الأحمالَ الثقيلةَ إلىٰ الأقطارِ البعيدةِ .

وفي صبرِها على الجوعِ والعطشِ أياماً ، وربما يبلغ ذٰلك ثمانية أيام . ورعيها لكلٍّ ما يتيسر من شوكٍ وشجرٍ ، وغير ذٰلك ، وانقيادها للإنسان في الحركةِ والسُّكونِ والبروكِ والنهوضِ . ويقتادها بقطارها كلُّ صغيرٍ وكبيرٍ ، وفي تأثرها بالصَّوتِ الحسنِ وهو الحداء .

وخصت بالذكر ؛ لأنها أعجبُ ما عند العربِ . وهي علاوةً على ما ذكر يؤكل لحمُها ويحلب درُّها ، ويستفاد من أوبارِها .

وقيل : إن الفيلَ أعظمُ في الأعجوبةِ .

والحقُّ ليس كذٰلك ، فإن الفيلَ لا يؤكل لحمُه ولا يركب ظهرُه من غير مشقةٍ في ترويضِه ، ولا يُحلب درُّه ، وليس له صوفٌ أو شعرٌ أو وبرٌ يستفاد منه .

ولا يحملُ الأوقارَ الثَّقيلةَ في الأسفارِ البعيدةِ ، ولا غير ذٰلك مما اختصت به الإبلُ[1] .

١٨٣ ـ سؤالٌ : هل كان إبليسُ من الملائكةِ ، وإذا لم يكن من الملائكةِ ، فلماذا عاقبه ٱلله علىٰ عدمِ السجودِ لآدمَ ، مع أن الملائكة هم الذين أمروا بالسجودِ له ؟

الجوابُ : إنَّ إبليسَ ليس ملكاً ، ولم يكن من الملائكة ، وإنما هو من الجنِّ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف : ٥٠] .

والجنُّ ليسوا من الملائكةِ ، بدليلِ قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ

---

(١) انظر : روح المعاني (٣٠ / ١١٦) .

كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ : ٤٠ ـ ٤١] .

أما سببُ عقوبته له ، فإن ٱلله أمره هو حين أمرَ الملائكةَ ، فقد أمرَ الملائكةَ أن يسجدوا لآدم ، وأمره هو علىٰ الخصوصِ أن يسجد معهم ، بدليلِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف : ١٢] فقد أمره هو . فقد كان إبليسُ مأموراً بالسجودِ مع الملائكةِ ، فكانت معصيتُه واستكبارُه عن أمرِ ربِّه سببَ لعنتِهِ ، وٱللهُ أعلمُ .

١٨٤ ـ **سؤالٌ** : قد يذكر ربُّنا في القرآنِ (الإنسانَ) نحو قوله : ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف : ٥٤] .

وأحياناً يذكر (البشر) ، وذٰلك نحو قوله : ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم : ١٠] وقوله : ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء : ٣] . وأحياناً يذكر (بني آدم) ، كقوله تعالىٰ : ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف : ٢٧] . فما الفرقُ بين (الإنسانِ) و(البشرِ) و(بني آدمَ) ؟

الجوابُ : الإنسُ خلافُ الجنِّ ، والأنسُ خلافُ النُّفورِ ، والإنسان لا قوامَ له إلا بأنسِ بعضهم ببعضٍ ، ولا يمكن أن يقومَ وحده بجميعِ أسبابِهِ[١] . ويقالُ : (أنست به) وهو خلافُ الوحشةِ .

وقيل : إن الإنسانَ من الظهورِ ، وأصلُ الإنسانِ من الإيناسِ وهو الإبصارُ ، يقال : آنس الشَّيءَ ؛ أي أحسَّه وأبصره .

وقيل للإنس : إنس ؛ لأنهم يؤنسون ؛ أي : يبصرون ، كما قيل للجنِّ : جن ؛ لأنهم لا يؤنسون ؛ أي : لا يُبصَرون[٢] . قال تعالىٰ :

---

(١) المفردات للراغب (أنس) .

(٢) انظر : لسان العرب (أنس) .

﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص : ٢٩] أي : أبصر . وقيل : هو من النسيان[١] .

وجاء في (الفروقِ اللغويةِ) : « إن الإنسيَّ يقتضي مخالفة الوحشيِّ . . . والإنسانُ يقتضي مخالفته البهيمية ، فيذكرون أحدهما في مضادةِ الآخرِ ، ويدل علىٰ ذٰلك أن اشتقاقَ الإنسانِ من النِّسيانِ وأصله (إنسيان) .

والنسيانُ لا يكون إلا بعدَ العلمِ فسمي الإنسان إنساناً ؛ لأنه ينسىٰ ما علمه . وسميت البهيمةُ بهيمةً ؛ لأنها أبهمت علىٰ العلمِ والفهمِ ، ولا تعلم ولا تفهم فهي خلافُ الإنسانِ ، والإنسانيةُ خلاف البهيميةِ في الحقيقةِ ؛ وذٰلك أن الإنسانَ يصحُّ أن يعلم إلا أنه ينسىٰ ما علمه . والبهيمية لا يصحُّ أن تعلم »[٢] .

وأما (البشرُ) فهو من البشرةِ ، والبشرةُ « ظاهرُ الجلدِ ، وعبر عن الإنسانِ بالبشرِ اعتباراً بظهورِ جلدةٍ من الشعرِ ، بخلاف الحيوانات التي عليها الصُّوفُ أو الشعرُ أو الوبرُ .

وخصَّ في القرآنِ في كلِّ موضعٍ اعتبر من الإنسانِ جثته وظاهره بلفظِ البشرِ ، نحو : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ وقال : ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ .

ولما أراد الكفارُ الغضَّ من الأنبياءِ اعتبروا ذٰلك فقالوا : ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ ، ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ ، ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ .

---

(١) المفردات للراغب (أنس) ، لسان العرب (أنس) .

(٢) الفروق اللغوية (٢٩١ ـ ٢٩٢) .

وعلىٰ هـٰذا قال : ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ تنبيهاً أن الناسَ يتساوون في البشريةِ ، وإنما يتفاضلون بما يختصُّون به من المعارفِ الجليلةِ والأعمال الجميلة ؛ ولـذا قـال بعـده : ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ تنبيهـاً أنـي تميـزت عنكـم بذٰلك »[1] .

ومن الملاحظِ في القرآنِ الكريمِ أنه إذا أرادَ وصفَ الإنسانِ بصفاتٍ مما طبع عليها ، أو غير ذٰلك من الصِّفاتِ المتميز بها جاءَ بلفظِ (الإنسان) ولم يأتِ بلفظِ (البشر) ممايباعده عن البهيمةِ .

فقد يصفه بالكفرِ أو العجلةِ أو الظُّلمِ أو الجدلِ ، أو أن يسأله سؤالاً للتبكيتِ أو الاتعاظِ أو نحو ذٰلك ، أو أن يناديه لغرضٍ ما ، فإنه يناديه بلفظِ الإنسانِ وليس بلفظِ البشرِ ، وذٰلك نحو قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء : ١١] . وقوله : ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٧] . ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٠] . ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٤] . ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ ﴾ [الإسراء : ٨٣] . ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] . ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : ٣٦] . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق : ٦] . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار : ٦ ـ ٧] . ولم يأتِ بنحوِ ذٰلك بلفظِ (البشر) .

وإنما يأتي بلفظِ (البشر) لإثباتِ المماثلةِ وأنهم متساوون ، ولما

---

(١) المفردات للراغب (بشر) .

ليس فيه اتِّصافٌ بشيءٍ من مميزاتِ الإنسانِ .

قال تعالىٰ : ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة : ١٨] . ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [إبراهيم : ١٠] . ﴿ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ ﴾ [الأنبياء : ٣] . ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣٤] . ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر : ٢٤] ونحو ذٰلك .

وأما التعبيرُ بـ(بني آدم) فإنه يستعمله في مقام التَّذكيرِ بأبيهم ، وما وقع له مع إبليسَ ، فيحذرهم مما أوقع أباهم فيه ، أو في مقامِ التَّكريمِ كما كرَّم أباهم وأسجدَ له ملائكته .

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف : ٢٧] . وقبلَها : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦] . وبعدَها : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٥] ، وكلُّها في سياقِ آدمَ وإبليسَ وإخراجه من الجنةِ .

ونحو ذٰلك قوله : ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يٰس : ٦٠] .

ومن ذكره في مقامِ التَّكريمِ : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

فناداهم ببني آدمَ لتذكيرِهم بما حصلَ مع أبيهم ، أو تكريمِهم كما كرَّم أباهم ، وتحذيرِهم من أن يقعوا في حبائلِ الشيطانِ ومن المعصيةِ .

١٨٥ ـ **سؤالٌ :** في مواضعَ من القرآنِ الكريمِ يعبر بـ(القرية) عن المكانِ ، وأحياناً يعبر عنه بـ(المدينة) ، وهما موضعٌ واحدٌ . وذٰلك كما في قولِه تعالىٰ في سورةِ يـٰس : ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يـٰس : ١٣] ، وقوله فيها أيضاً : ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يـٰس : ٢٠] .

وكذٰلك في قصةِ لوطٍ ، فقد قال فيهم في سورةِ الحجرِ : ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الحجر : ٦٧] ، وقال في العنكبوتِ فيهم : ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت : ٣٤]فما الفرقُ ؟ وما السببُ ؟

الجوابُ : إنَّ لفظَ (المدينةِ) من (مدن) إذا أقامَ بالمكانِ[١] . وأما (القرية) فهي المصرُ الجامعُ[٢] ، والقريةُ الضيعةُ ، وكلُّ مكانٍ اتَّصلت به الأبنيةُ واتخذ قراراً . وتقع علىٰ المدنِ وغيرِها [٣] .

وفي (روحِ المعاني) في قولِه تعالىٰ : ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ أنه عبر بالمدينة بعد التَّعبير بالقريةِ إشارة إلىٰ السَّعة[٤] .

وعلىٰ هٰذا لا منافاةَ بين القريةِ والمدينةِ ، غير أن المدينةَ تقال لما اتَّسع ، والقريةُ تقالُ فيها وفيما هو أقلُّ سعةً كالضيعةِ ، فالتَّعبيرُ بالمدينةِ بعد التَّعبيرِ بالقريةِ إشارةٌ إلىٰ أنها متسعةٌ وليست صغيرةً . هٰذا من ناحيةٍ .

---

(١) لسان العرب (مدن) .

(٢) المصدر السابق نفسه (قرا) ، القاموس المحيط (القرية) .

(٣) المصباح المنير (قريت) .

(٤) روح المعاني (٢٢ / ١٢٦) .

ومن ناحيةٍ أخرىٰ أن ربَّنا إذا ذكر الهلاكَ جاء معه بلفظ (القرية) ، وذٰلك نحو قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ ﴾ [الحجر : ٤] .

وقوله : ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٠٨] ، وقوله : ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا ﴾ [الإسراء : ١٦] . وقوله : ﴿ وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [الإسراء : ٥٨] وغيرها . وذٰلك أنها تعد دارَ إقامةٍ فعبَّر عنها بالقريةِ .

١٨٦ ـ **سؤالٌ** : يقول ربُّنا في مواضعَ : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ فيصفه بالعظمةِ . وفي موضعٍ يقول : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ فيصفه بالكبر . وفي موضعٍ آخر يقول : ﴿ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ فيصفه بأنه ظاهرٌ واضحٌ . فما الفرقُ ؟

الجوابُ : أعلىٰ الأوصافِ للفوزِ ما كان بالعظمةِ ، ويليه الوصفُ بالكبرِ ، ويليه الوصفُ بأنه مبينٌ .

وإيضاحُ ذٰلك أنه يصفُ الفوزَ بأنه مبينٌ في صرفِ العذابِ ، أو الإدخالِ في رحمته ، ولم يذكر إدخالَهم الجنةَ ، وذٰلك في موضعين من القرآنِ الكريمِ ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٍ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الأنعام : ١٥ ـ ١٦] .

وقال : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الجاثية : ٣٠] .

ولا شكَّ أن إدخالَ الجنةِ أعلىٰ من مجرَّدِ صرفِ العذابِ أو ذكرِ الرَّحمةِ علىٰ العمومِ ، وإن كان المقصودُ بها الجنة .

وأما وصفُ الفوزِ بأنه كبيرٌ فذٰلك في موطنٍ واحدٍ وهو قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [البروج : ١١] . فذكر أن لهم جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ .

وأما الوصفُ بأنه عظيمٌ ، فإنه يزيد علىٰ ذٰلك في الجزاءِ إما بذكرِ الخلودِ ، أو إدخالِ الجنةِ ، مع ذكرِ المساكنِ الطيبةِ ، ونحو ذٰلك .

قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٩] .

فقد زاد علىٰ آيةِ البروجِ أنهم خالدون أبداً ، وأنه رضي ٱلله عنهم ورضوا عنه . ولا شكَّ أن هـٰذا أعلىٰ مما ذكر في آيةِ البروجِ .

وقال : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٧٢] .

وقال : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [غافر : ٨ ـ ٩] .

فقد ذكرَ إدخالَ الجنةِ مع الآباءِ والأزواجِ والذرياتِ ووقايةِ السَّيِّئاتِ . فوصفه بالعظمةِ .

فالوصفُ بالعظمةِ أعلاهن ، ثم الوصفُ بالكبرِ ، ثم بأنه مبينٌ .

١٨٧ ـ سؤالٌ : يقول ربُّنا في آياتٍ : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بذكرِ الواوِ بعد همزةِ الاستفهامِ . ويقول في آياتٍ أخرىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بذكرِ الفاءِ بعد الهمزةِ ، فما الفرق بينهما ؟

الجوابُ : الواو تفيد مطلقَ الجمعِ .

أما الفاءُ فهي قد تفيدُ السببَ ، فإذا كان ما قبلها سبباً يدعو لما بعدها ، وكان ما بعدها مبنياً علىٰ ما قبلها عطف بالفاءِ ، وإلا عطفَ بالواوِ .

وإيضاحُ ذٰلك ما ورد في قوله سبحانه : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف : ١٠٩] ، فقد قالَ قبلها : ﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾... وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴾ [يوسف : ١٠٧ ـ ١٠٩] فإن ذٰلك مدعاةٌ إلىٰ التأملِ والتَّدبرِ والنظرِ .

فقد جاءت من قبلهم غاشيةٌ من عذاب ٱلله ، بل غواشٍ كثيرة ، أفأمنوا أن تأتيهم غاشيةٌ من عذابه ، أفلم يسيروا في الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلِهم ، ممن جاءتهم الغاشيات !!

ألا يكون ذٰلك سبباً كافياً للاتِّعاظِ ؟ فإنه لا يردُّ بأسه عن القومِ المجرمين ، أفلم يسيروا في الأرضِ فينظروا ؟! فالسِّياقُ يستدعي المجيءَ بالفاءِ .

ونحو ذٰلك قولُه تعالىٰ في سورةِ الحجِّ : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج : ٤٦] فإنه جاءَ بالفاءِ ؛ لأنه مبنيٌّ علىٰ ما قبله ، واستدلالٌ به ، فقد قال قبل هٰذه الآيةِ : ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ

فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج : ٤٢ ـ ٤٥] . ثم قال بعدَ ذلك : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ...﴾ [الحج : ٤٦] فما قبلها سببٌ يدعو للسَّيرِ والنَّظرِ والاتِّعاظِ .

في حين قال في سورةِ الروم : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم : ٩] .

فقد جاء بالواوِ ذلك أن قبلها : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم : ٨] ، فالواو كما ترىٰ هنا لمطلقِ الجمعِ ، وليس ما قبلها سبباً لما بعدها كما مرَّ فيما سبق .

ونحو ذلك قال تعالىٰ في سورةِ غافرٍ : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر : ١٩ ـ ٢١] .

فجاء بالواوِ لمطلقِ الجمعِ ، وليس ما قبل الآيةِ سبباً لما في الآيةِ . فناسب كلٌّ تعبيرٍ موضعه الذي وردَ فيه .

١٨٨ ـ سؤالٌ : قال ٱلله سبحانه في سورةِ الصَّافاتِ في قسمٍ من الأنبياءِ أنه ترك عليهم في الآخرينَ سلاماً . فقد قال في نوحٍ : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ

﴿ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ٧٨ ـ ٨٠] .

وكذٰلك قال في إبراهيمَ وموسىٰ وهارونَ وإلياسَ ، ولم يقل مثلَ ذٰلك في لوطٍ ويونسَ . فلماذا ؟

الجوابُ : أما يونسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنه ذكر عنه عدم الأَوْلى من فعله ، فقد قال عنه : إنه أبقَ إلىٰ الفلكِ المشحونِ ، فالتقمه الحوتُ وهو مليم ؛ أي أتىٰ بما يلام عليه . وقال فيه : ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : ١٤٠ ـ ١٤٥] .

فلا يناسب أن يقول : (وتركنا عليه في الآخرين . سلام علىٰ يونسَ) ؛ لأنه ذكر المؤاخذاتِ عليه .

وأما لوطٌ فإن قومه كانوا يفعلون فاحشةً لم يسبقهم بها أحدٌ من العالمين ؛ وهي فاحشةٌ يُستحيىٰ من ذكرها ، فلا تكاد تذكر ؛ لأن الناس يخجلون من ذكرِها فلا يذكر لوطٌ بذكرها .

ثم إن لوطاً لم يؤمن به أحدٌ من قومِه غير أهلِ بيتِه ، فلم ينجُ من قومه أحدٌ فيذكروه بعد ذٰلك ، وعلىٰ ما نعلم أنه لم ينجُ معه إلا ابنتاه .

ثم إنه قد دخلَ كلٌّ من يونسَ ولوطٍ في قوله : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات : ١٨١] . فدخلا في سلامِ ٱللهِ مع إخوانهم المرسلينَ ، والحمدُ لله ربِّ العالمينَ .

١٨٩ ـ سؤالٌ : يردُ في القرآنِ الكريمِ ذكرُ المسيحِ ، والمسيحُ ابن مريمَ ، والمسيحُ عيسىٰ ابن مريمَ . كما يردُ ذكر عيسىٰ ابنِ مريمَ أو ابن مريمَ من دونِ ذكرِ المسيحِ . فما الفرقُ ؟

الجوابُ :

١ ـ كلُّ ما وردَ فيه ذكرُ (المسيح) إنما هو في مقامِ تصحيحِ العقيدةِ ، أو في مقامِ المدحِ والثناءِ عليه . وليس في سياقِ ذكرِ الرِّسالةِ أو إيتائه البيناتِ أو التكليفِ .

قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ﴾ [المائدة : ١٧] .

وقال : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ﴾ [المائدة : ٧٢] . وقال : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة : ٣١] . وقال : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [التوبة : ٣٠] . وهي كما ترىٰ في تصحيحِ العقيدةِ واتخاذِ المسيحِ إلـٰهاً .

وقال : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ...﴾ [آل عمران : ٤٥ ـ ٦١] .

وقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء : ١٧١] . وهي في مقامِ الثَّناءِ عليه ، وتصحيحِ العقيدةِ .

٢ ـ لم يذكر (ابن مريمَ) في مقامِ التَّكليفِ وإيتائه البيِّناتِ ، وإنما في مقامِ الثَّناءِ عليه . قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون : ٥٠] .

وقال : ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الزخرف : ٥٧ ـ ٥٩] . وهو كما ترىٰ في مقامِ الثناءِ عليه .

٣ ـ أما ذكرُ (عيسىٰ) فهو عامٌّ :

أ ـ يرد في سياقِ التّكليفِ وإيتائه البيّناتِ ، ولم يأتِ التّكليفُ إلا مع اسمِه العَلَمِ : (عيسىٰ) .

ب ـ ويردُ في سياقِ الثّناءِ عليه .

ج ـ ولم يرد نداؤه إلا باسمه العَلَمِ : (عيسىٰ) .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ ﴾ [البقرة : ٨٧] . وقال : ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

وقال : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة : ٤٦] . وقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [الصف : ٦] .

وقال : ﴿ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾ [الصف : ١٤] ، وقال : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الزخرف : ٦٣] . وقال : ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ﴾ [آل عمران : ٥٢] ، وهي في سياقِ إيتائهِ البيّناتِ وفي سياقِ التّكليفِ .

وقال : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ

أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة : ١١٠] .

وقال : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد : ٢٧] .

وقال : ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة : ١١٢] .

وقال : ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة : ١١٤] . وهي في سياقِ الثَّناءِ عليه والنداءِ .

١٩٠ ـ **سؤالٌ** : ما الفرق بين الأجرِ والرزقِ ؟

الجوابُ : الأجرُ قد يكونُ هو الجزاءَ علىٰ العملِ ، ويقال فيما كان عُقِدَ ، وما يجري مجرىٰ العقدِ[1] .

أما الرزقُ فقد يستعملُ للنَّصيبِ ، ويستعمل للقوتِ الذي يتغذىٰ به البدن ، وذٰلك نحو قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود : ٦] .

وقـال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت : ٦٠] . ولا يصحُّ أن يقالَ في هٰذا : أجرٌ .

وقد يستعمل الرزقُ للمطرِ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ [غافر : ١٣] ، وله استعمالاتٌ أخرىٰ[2] .

---

(١) انظر : مفردات الراغب (أجر) .

(٢) انظر : مفردات الراغب (رزق) .

١٩١ ـ سؤالٌ : ما الفرق بين (يا ويلنا) و(يا ويلتنا) ؟

الجوابُ : الويل معناه الهلاكُ والعذابُ ، قال تعالىٰ : ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين : ١] ، وقال : ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٤] . وقال : ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس : ٥٢] .

أما الويلةُ فهي الفضيحةُ[1] والخزيُ ، قال تعالىٰ : ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ [هود : ٧٢] . أي : يا للفضيحةِ .

وقال : ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف : ٤٩] .

وذٰلك أنه لما رأوا فيه أعمالاً مخزيةً ، وفضائحَ لا يحبون أن يطَّلعَ عليها أحدٌ ، وقد رأوها مدوَّنةً في الكتابِ ؛ قالوا : (يا ويلتنا) أي : يا للفضيحةِ والخزيِ .

١٩٢ ـ سؤالٌ : ما الفرق بين البعلِ والزَّوجِ ؟

الجوابُ : البعلُ : هو الذَّكرُ من الزوجينِ ، وهو من الاستعلاءِ ؛ لأنه المستعلي علىٰ المرأةِ والقائمُ عليها .

والبعلُ : هو المالكُ والرَّئيسُ ، وسمي زوجُ المرأةِ بعلاً ؛ لأنه سيدها . وقيل للأرضِ المستعليةِ علىٰ غيرها بعلاً ، وسميت الأرض المرتفعة بعلاً ، وقيل لفحل النَّخلِ بعلاً .

وسمي به كلُّ مستعلٍ علىٰ غيرهِ ، فسمىٰ العربُ معبودهم بعلاً ، وهو

---

(١) انظر : لسان العرب (ويل) .

الذي يتقربون به إلىٰ ٱللهِ [١] .

وأما الزوجُ : فيقال لكلٍّ من القرينين من الذكر والأنثىٰ ، فالرَّجل زوجُ المرأةِ ، والمرأة زوجُ الرَّجلِ ، ويقالُ لكلِّ ما يقترن بآخرَ مماثلاً له أو مضاداً كالخفِّ والنَّعلِ [٢] .

والأزواج هم القرناءُ والنُّظراءُ والأمثالُ ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات : ٢٢] أي : أمثالَهم ونظراءَهم في العملِ : أصحابُ الرِّبا مع أصحابِ الرِّبا ، وأصحابُ الخمرِ مع أصحابِ الخمرِ [٣] .

وقال : ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ [صٓ : ٥٨] أي أجناسٌ [٤] .

١٩٣ ـ سؤالٌ : ما الفرق بين القسطِ والعدلِ ؟

الجوابُ : القسطُ هو الحصَّةُ والنَّصيبُ ، تقول : ليأخذ كل واحدٍ قسطه ؛ أي : نصيبه [٥] .

ولذا لم يستعمل القرآن في الوزنِ إلا القسط ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [هود : ٨٥] . وقال : ﴿ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الرحمـٰن : ٩] .

أما (العدل) فهو المساواةُ ، فبالفتح أي : العَدْل هو في الأحكامِ

---

(١) انظر : لسان العرب (بعل) ، مفردات الراغب (بعل) .
(٢) انظر : مفردات الراغب (زوج) ، لسان العرب (زوج) .
(٣) انظر : روح المعاني (٢٣ / ٧٩) .
(٤) انظر : روح المعاني (٢٣ / ٢١٥) .
(٥) انظر : لسان العرب (قسط) .

وما لا يبصَر . والعِدلُ (بكسرِ العينِ) والعديلُ فيما يدرك بالحاسةِ ، كالموزوناتِ والمعدوداتِ والمكيلاتِ[(١)] . تقول : (هـٰذا عِدل هـٰذا).

قال تعالىٰ : ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق : ٦٥] ولا يصحُّ : ذوي قسطٍ .

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ...عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ [المائدة : ٩٥] .

فقال : ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ بالفتحِ ؛ لأن الصيامَ لا يبصرُ بالحاسّةِ .

١٩٤ ـ سؤالٌ : ما الفرق بين قولِهِ تعالىٰ : ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ و﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ ؟

الجوابُ : معنىٰ (وقع القولُ) : حصلَ وحلَّ ، والمرادُ بـ(القولِ) ما نطقَ من الآياتِ الكريمةِ بمجيءِ الساعةِ ، وما فيها من فنونِ الأهوالِ ، وقد يراد بالوقوعِ دُنُوُّه واقترابُه[(٢)] .

فمعنىٰ ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ : حلَّ بهم العذابُ وحصل ما ذكره القرآن من مجيءِ الساعةِ وأهوالِها .

وأما (حق القول) فمعناه : ثبت لهم العذابُ ووجب ، وإن لم

(١) انظر : المفردات في غريب القرآن (عدل) .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود (٥ / ٣٠٨) ، روح المعاني (١٥ / ٤١ ، ١٥٣) ، فتح القدير (٥ / ٢٧٧) .

يكن قد وقع . قال تعالىٰ في قريش : ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يسٓ : ٧] .

وقد يكون العذابُ في الدنيا ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء : ١٦] .

فقوله : ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ قد يكون ذٰلك في الدنيا أو في الآخرةِ .

وأما قوله : ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ فلم يرد في القرآنِ إلا في الآخرةِ أو قبيلَ الساعةِ .

وقد ورد هـٰذا التعبيرُ في موطنينِ من القرآنِ الكريم ، وهما قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل : ٨٢] . وهـٰذا حين مشارفةِ السَّاعةِ وظهور أشراطِها ، وحين لا تنفعُ التوبةُ [١] . وقوله : ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل : ٨٥] . وهـٰذا في الآخرةِ . فقوله : ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أقربُ إلىٰ الحصولِ من ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ .

١٩٥ ـ سؤالٌ : ما الفرقُ بين الوفاةِ والموتِ ؟

الجوابُ : الوفاة تأتي بمعنىٰ الموتِ ، وتأتي بمعنىٰ النومِ [٢] .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا

---

(١) انظر : الكشاف (٥ / ١١٠) .

(٢) انظر : مفردات الراغب (وفىٰ) ، لسان العرب (وفىٰ) .

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر : ٤٢] .

وقال : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام : ٦٠] . فسمى النوم توفياً .

جاء في (مفرداتِ الراغبِ) : « وقد عبَّر عنِ الموتِ والنَّوم بالتوفي ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ ، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ »[١] .

وجاء في (لسانِ العربِ) : « وأما توفي النائم فهو استيفاءُ عقلِهِ وتمييزه إلىٰ أن ينامَ »[٢] .

وأما الموتُ فهو نقيضُ الحياةِ[٣] . جاء في (روحِ المعاني) في قوله : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ : « ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ أي : يقبضها عن الأبدان ؛ بأن يقطع تعلقها تعلق التَّصرفِ فيها عنها . ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي : في وقتِ موتِها . . . ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ بأن يقطع سبحانه تعلقها بالأبدانِ تعلق التَصرُّفِ فيها عنها أيضاً .

فتوفي الأنفس حين الموتِ وتوفيها في وقتِ النَّومِ بمعنىٰ قبضها عن الأبدانِ ، وقطعِ تعلقها بها تعلق التَّصرُّفِ . إلا أن توفيها حين الموتِ قطع تعلقها بها تعلقَ التَّصرفِ ظاهراً وباطناً ، وتوفيها وقت النومِ قطعٌ لذٰلك ظاهراً فقط ، وسلبُ الحركاتِ الاختياريةِ وغيرها »[٤] .

---

(١) مفردات الراغب (وفىٰ) .

(٢) لسان العرب (وفىٰ) .

(٣) المصدر السابق نفسه (موت) .

(٤) روح المعاني (٢٤ / ٧) .

وجاء في (روحِ المعاني) في قوله : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ « حيث لا تميزون ولا تتصرفون كما أن الموتىٰ كذٰلك »[1] .

وقد استعمل القرآنُ الموتَ عاماً في الإنسانِ والحيوانِ والنباتِ . قال تعالىٰ : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر : ٣٠] .

وقال : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة : ٢٦٠] . فاستعمل الموتَ للطَّيرِ .

واستعمله للأرضِ ، فقال في آياتٍ عدَّةٍ : ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة : ١٦٤] .

وقال : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الفرقان : ٤٨ـ٤٩] . ولم يستعملِ التَّوفي إلا للإنسانِ .

١٩٦ ـ سؤالٌ : ما الفرق بين العذابِ والعقابِ والنكالِ ؟

الجوابُ : العذابُ هو الألمُ الثقيلُ والإيجاعُ الشديدُ جزاءً كان أوْ لا ، وسواءً كان صاحبه مستحقاً أم غيرَ مستحقٍّ[2] . والعقابُ جزاءُ الشرِّ[3] ، وينبئ عن استحقاقٍ . وسمي بذٰلك لأن الفاعل يستحقه عقيب فعلِه[4] .

---

(١) المصدر السابق نفسه (٢٤ / ٧) .

(٢) انظر : الفروق اللغوية (٢٥٣) ، المفردات في غريب القرآن (عذب) ، الكليات (٦٥٤) .

(٣) انظر : الكليات (٦٥٣) .

(٤) الفروق اللغوية (٢٥٣) .

جاء في (لسانِ العربِ) : « العقابُ والمعاقبةُ أن تجزي الرجلَ بما فعل سوءاً . والاسمُ العقوبةُ . وعاقبه بذنبهِ معاقبةً وعقاباً : أخذه به »[١] .

وأما النَّكالُ فهو العقوبةُ الرَّادعةُ للغيرِ ، إذا رآه خاف أن يعملَ عمله . جاء في (لسانِ العربِ) : « النكلُ اسمٌ لما جعلته نكالاً لغيره إذا رآه خاف أن يعملَ عملهُ . . . نكلَ به تنكيلاً إذا جعله نكالاً وعبرةً لغيره . ويقالُ : نكلت بفلانٍ إذا عاقبته في جرمٍ أجرمه عقوبةً تنكِّل غيره عن ارتكابِ مثله »[٢] .

١٩٧ ـ سؤالٌ : ما الفرق بين الغنىٰ والثَّروةِ ؟

الجوابُ : الثروةُ كثرةُ العددِ من النَّاسِ والمالِ ، يقال : ثروةُ رجالٍ وثروةُ مالٍ .

والثَّراءُ المالُ الكثيرُ . وثرا ٱلله القومَ ؛ أي : كثَّرهم . وثرا القومُ كثروا ونموا . ويقال : مال ثريٌّ ؛ أي : كثيرٌ[٣] .

وأما الغِنىٰ فهو ضدُّ الفقرِ . والغنيُّ الذي لا يحتاجُ إلىٰ أحدٍ في شيءٍ وهو الغنيُّ المطلق ، وذٰلك هو ٱلله وحده . أو قلَّةُ الحاجةِ إلىٰ الشَّيءِ . واستغنىٰ عن الشَّيءِ لم يلتفت إليه[٤] .

---

(١) لسان العرب (عقب) .

(٢) المصدر السابق نفسه (نكل) .

(٣) انظر : لسان العرب (ثرا) .

(٤) انظر : لسان العرب (غنا) ، المفردات في غريب القرآن (غني) .

١٩٨ ـ **سؤالٌ** : ما الفرق بين الأبناءِ والأولادِ ؟

الجوابُ : (الأبناءُ) جمعُ ابنٍ وهو الذَّكرُ خاصَّةً . قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ [البقرة : ٤٩] .

أما (الأولادُ) فجمعُ ولدٍ وهو عامٌّ ، يقال للذَّكرِ والأنثىٰ . قال تعالىٰ : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء : ١١] . والوصيةُ للجميعِ .

وقال : ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] . والإرضاعُ لا يختصُّ بالذكورِ أو الإناثِ .

١٩٩ ـ **سؤالٌ** : ما الفرقُ بين الخوفِ والخشيةِ والوجلِ ؟

الجوابُ : قيل : إن « الخوف توقعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ »[١] .

« والخشيةُ خوفٌ يشوبه تعظيمٌ ، وأكثر ما يكون ذٰلك عن علمٍ بما يخشىٰ منه ؛ ولذٰلك خصَّ العلماء بها في قوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] »[٢] .

وقيل : الخشيةُ أشدُّ الخوفِ وأعظمه . وقيلَ : ربما قيل : خشيت بمعنىٰ علمت[٣] .

---

(١) مفردات الراغب (خوف) .

(٢) المصدر السابق نفسه (خشي) .

(٣) المصباح المنير (خشي) .

قال تعالىٰ في آلِ عمرانَ : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] .

وقال : ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة : ٣] .

فذكر الخوف في آلِ عمرانَ ؛ ذٰلك أنه في سياقِ توقع مكروهٍ ، فهي في سياقِ القتالِ . قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٣ ـ ١٧٥] .

وليس السِّياقُ في المائدةِ في مثلِ ذٰلك .

وقال تعالىٰ مخاطباً موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٧٧] .

فذكر الخوفَ في قولِهِ : ﴿ لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا ﴾ وعطفَ عليه الخشيةَ ، فقال : ﴿ وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ ، قيل : إن المعنىٰ « لا تخاف أن يدرككم فرعونُ وجنودهُ من خلفكم . ولا تخشىٰ أن يغرقَكم البحر من قدامكم . . . والخشيةُ أعظمُ الخوفِ ، وكأنه إنما اختيرت هنا لأن الغرقَ أعظمُ من إدراك فرعون وجنوده لما أن ذٰلك مظنَّةُ السَّلامةِ . ولا ينافي ذٰلك أنهم إنما ذكروا أولاً ما يدل علىٰ خوفِهم من حيث قالوا : (إنا لمدركون) ؛ ولذا سُوْرِعَ في إزاحتِه بتقديمِ نفيه »[1] .

---

(١) روح المعاني (١٦ / ٢٣٦ ـ ٢٣٧) .

وأما الوجلُ فهو الفزعُ والخوفُ[١] ، وقيل : اضطرابُ النَّفسِ لتوقعِ مكروهٍ . وعلامته حصول القشعريرةِ واضطراب القلبِ ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : ٣٥] . ومعنىٰ ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ : « أي : فزعت استعظاماً لشأنِ الجليلِ وتهيُّباً منه ، وهـٰذا الوجل في قلبِ المؤمنِ كضربة السَّعفةِ ، كما جاء عن عائشةَ رضي ٱلله تعالىٰ عنها ، وعلامتهُ حصولُ القشعريرةِ »[٢] .

وعن أمِّ الدَّرداءِ رضي ٱلله عنها أن الوجلَ في القلبِ كاحتراقِ السَّعفةِ ، أما تجد له قشعريرةً[٣] ؟

ومن الملاحظِ أنه لم يرد في القرآنِ إسنادُ الوجلِ من ٱللهِ إلا للقلبِ . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢] .

وقال : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : ٣٤ ـ ٣٥] .

وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون : ٦٠] .

وورِدَ الوجلُ من الملائكةِ في قصَّةِ إبراهيمَ علىٰ العمومِ ، ولم يخصه بالقلبِ ، فقال : ﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ ﴾ [الحجر : ٥٢ ـ ٥٣] . ولم يردْ في القرآنِ الكريمِ إسنادُ الخشيةِ أو الخوفِ إلىٰ القلبِ .

٢٠٠ ـ سؤالٌ : ما الفرق بين الرُّشْدِ والرَّشَدِ ؟

الجوابُ : الرُّشْدُ يقال في الأمور الدُّنيويةِ والأخرويةِ . وأما الرَّشَدُ

---

(١) المفردات للراغب (وجل) ، لسان العرب (وجل) .

(٢) روح المعاني (٩ / ١٦٥) .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير (٢ / ٢٨٥) .

فيقال في الأمور الأخرويةِ لا غير[١] .

وفي (لسانِ العربِ) : « الرُّشْد والرَّشَد والرَّشادُ نقيضُ الغيِّ . رشَد الإنسانُ بالفتحِ يرشد رُشداً بالضَّمِّ .

ورشِد بالكسرِ يرشَد رشَداً ورشاداً ، فهو راشدٌ ورشيدٌ ، وهو نقيضُ الضَّلالِ ، إذا أصابَ وجهَ الأمرِ والطَّريقِ »[٢] .

والرَّشادُ نقيضُ الضَّلالِ ، والإرشادُ الهدايةُ ، وسبيلِ الرَّشادِ سبيلُ القصدِ[٣] ، وطريق الصَّوابِ والصَّلاحِ ، والغيُّ الضَّلالُ والخيبةُ والفسادُ[٤] .

وقد استعمل القرآن (الرُّشْد) بالضَّمِّ للأمورِ الدنيويةِ والأخرويةِ . قال تعالىٰ : ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ [النساء : ٦] .

وقال : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] . وقال : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ [الجن : ١ ـ ٢] .

وقال : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

أما الرَّشَد فاستعمله في الأمورِ الأخرويةِ لا غيرُ . قال تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف : ١٠] . وقال : ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [الكهف : ٢٤] .

---

(١) انظر : مفردات الراغب (رشد) .

(٢) لسان العرب (رشد) .

(٣) انظر : لسان العرب (رشد) .

(٤) انظر : لسان العرب (غوىٰ) .

وقال : ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن : ١٠] . وقال : ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ [الجن : ١٤] .

واستعمل (الرَّشاد) في سبيلِ القصدِ وطريقِ الصَّوابِ والصَّلاحِ . قال تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر : ٢٩] . وقال : ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر : ٣٨] .

✍ ✍ ✍



ـ الإتقان في علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطي تحقيق : محمود أحمد القيسية ، ومحمد أشرف سليمان الأتاسي ، مؤسسة النداء ، الطبعة الأولىٰ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م .

ـ الأصول لابن السَّراج ، تحقيق : الدكتور عبد الحسين الفتلي ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف .

ـ الأمالي الشجرية ، لأبي السعادات هبة ٱلله بن الشجري ، الطبعة الأولىٰ ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الدكن ، ١٣٤٩ هـ .

ـ أنوار التنزيل ، للقاضي البيضاوي ، المطبعة العثمانية ، ١٣٠٥هـ .

ـ البحر المحيط ، لأبي حيان ، الطبعة الأولىٰ ، ١٣٢٨ هـ ، مطبعة السعادة ، مصر .

ـ البرهان في علوم القرآن ، لبدر الدين محمد بن عبد ٱلله الزركشي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولىٰ ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م ، دار إحياء الكتب العربية .

- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، للدكتور فاضل صالح السامرائي ، دار عمار ، عمان ، الأردن .

- تاج العروس شرح القاموس ، لمحمد مرتضىٰ الزبيدي ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، تصوير الطبعة الأولىٰ بالمطبعة الخيرية ، مصر ، ١٣٠٦ هـ .

- تفسير أبي السعود .

- تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، طبع بدار إحياء الكتب العربية، عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه .

- التفسير الكبير ، لفخر الدين الرازي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ م .

- جواهر الأدب في معرفة كلام العرب ، للإمام علاء الدين بن علي بن محمد الأربلي ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠ م .

- درة التنزيل وغرة التأويل ، للخطيب الإسكافي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الأولىٰ ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .

- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم ، لشهاب الدين السيد محمود الألوسي ، إدارة الطباعة المنيرية ، دار إحياء التراث العربي .

- شرح الأشموني علىٰ ألفية ابن مالك ، دار إحياء الكتب العربية .

- شرح ألفية ابن مالك ، لابن الناظم ، المطبعة العلوية في النجف ، ١٣٤٢هـ .

- شرح التَّصريح علىٰ التوضيح ، لخالد بن عبد ٱلله الأزهري ، دار إحياء الكتب العربية .

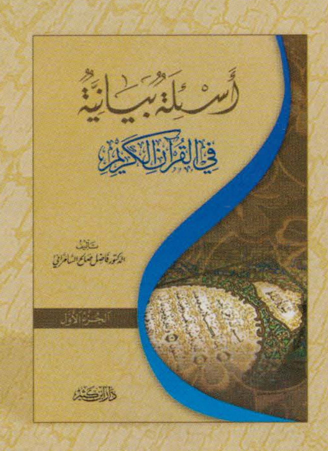
- شرح رضي الدين الإستراباذي علىٰ الكافية لابن الحاجب .

ـ فتح القدير ، لمحمد بن علي الشوكاني ، الطبعة الأولىٰ ، مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، سنة ١٣٤٩ هـ .
ـ الفروق اللغوية ، لأبي هلال العسكري ، المكتبة التوفيقية ، تحقيق : أبي عمرو عماد زكي البارودي ، مصر .
ـ القاموس المحيط ، لمجد الدين الفيروزأبادي ، الطبعة الخامسة ، شركة فن الطباعة ، مصر .
ـ كتاب سيبويه ، مصور عن طبعة بولاق ، نشر مكتبة المثنىٰ ، بغداد .
ـ الكشاف ، لجار ٱلله الزمخشري ، مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .
ـ الكليات ، لأبي البقاء أيوب بن موسىٰ الكفوي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، سنة ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .
ـ لسان العرب ، لابن منظور ، مصور عن طبعة بولاق .
ـ المصباح المنير ، لأحمد بن محمد الفيومي ، المكتبة العلمية ، بيروت .
ـ معاني الأبنية في العربية ، للدكتور فاضل صالح السامرائي ، الطبعة الأولىٰ ، الشركة المتحدة للتوزيع ، بيروت ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
ـ معاني القرآن ، لأبي زكريا يحيىٰ بن زياد الفراء ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠ م .
ـ معاني النحو ، للدكتور فاضل صالح السامرائي ، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر ، الموصل ، الطبعة الأولىٰ ، سنة ١٩٩١ م .
ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام الأنصاري ، تحقيق : محمد بن محيي الدين عبد الحميد .
ـ المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، طهران .

- المفصل في علم العربية ، للزمخشري ، نشره محمود توفيق ، مطبعة حجازي ، القاهرة .
- ملاك التأويل ، لأبي جعفر الزبير الغرناطي ، تحقيق : الدكتور محمود كامل أحمد ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- النشر في القراءات العشر ، لابن الجزري ، مطبعة مصطفىٰ محمد ، مصر .
- همع الهوامع ، للسيوطي ، مطبعة السَّعادة ، مصر ، الطبعة الأولىٰ ، ١٣٢٧ هـ .

✍ ✍ ✍


فهرس الموضوعات



أسئلة وإجابات حول الأسلوب البياني في القرآن الكريم، مرتبة حسب تسلسل الموضوعات في المصحف الشريف.

ويجد القارئ لفتات عميقة، ونظرات صائبة، تدل على حسن التفهم، والربط بين الآيات، تأكيداً لإعجاز القرآن، وأنه موحى من لدن حكيم عليم.

واعتمد المؤلف على المصادر الموثوقة المعتبرة لدى العلماء، من التفاسير، والمعاجم، وكتب الغريب، وبعض المراجع الحديثة ذات الصلة بموضوع هذا الكتاب، وهي بمجموعها تزيد على الثلاثين مصنفاً.

وأسلوب السؤال والجواب يثير الفكر، ويحرض العقل على التأمل والتدبر، ويساعد على الحفظ والاستظهار، واستحضار الجواب عند المذاكرة في نصوص التنزيل.

ISBN 978-614-415-040-5




www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com